رواية

الكأس السادسة

محمد الخزري

قصص

الكأس السادسة

رواية

محمد الخزري

العنوان: الكأس السادسة

النوع الأدبي: رواية

المؤلف: محمد الخزري (نبذة)

قوة السرد: كتابات إبداعية

المُدقق اللُغوي: الكاتب بنفسه

اللغة: فصحى

تصميم الغُلاف والإخراج الفني: رمضان سلمي برقي

سنة النشر: 2022

تم النشر بواسطة دار قصص وحكايات للنشر الإلكتروني2022

الدار غير مسؤولة عن أفكار الكُتّاب الواردة بإبداعاتهم؛ الكُتّاب وحدهم المسؤولون عنها.

الموقع الصفحة الجروب

الكأس السادسة

القصّة أو الرواية، أو غيرها من الأنماط الأدبية التي يبرع في تصنيفها أهل الاختصاص من المفكرين و المبدعين، هي في كلّ الأحوال مجرّد حكاية أحداثها مثيرة و مشوقة ننتظر نهايتها بلهفة شهريار، فقط من أجل أبطالها الذين نحب بعضهم و نتعاطف معهم، و هذه أصل متعة القراءة بعيدا عن ضوضاء الكتابات الصعبة و الشاقة و التي يبحث كتابها عن قراء ذوو أنفاس عميقة و عقول ملآ بزاد معرفي و لغوي استثنائي. هذا النصّ الذي بين أيديكم هو فقط حكاية عن الحبّ.

محمد الخزري

.....

أصدر الرجل العجوز المستلقي على مخدعه في ركن الكوخ صوتا قويا بسعاله الرخيم، حطم السكون الرهيب الذي كان مخيما على المكان، حيث كان مخدعه عال في ركن مظلم تصله بين الفينة و الأخرى قطع نور منبعثة من بقعة ضوء في الوسط قرب زوجته المنهمكة في تحضير الأكل، و كأنه يرفض ذلك السكون صاح بصوته الجهوري الذي يوحي بأنه رجل عملاق، في حين أنه ضعيف البنية و صغير الحجم، و قال:

–هل حضر الطعام يا امرأة؟

أجابته زوجته بصوت مرتعش :

– عن أي طعام تتحدث؟ لا يوجد في هذا القدر سوى بقايا خضر جمعتهم من عند الجيران، الرجال في هذا البيت لا يعرفون غير السؤال عن الطعام، و لا يدركون كيفية توفيره.

علقت على كلامها ابنتها التي كانت جالسة قربها تلعب ببعض قطع القماش البالية و قالت :

– أو أن يضربوننا نحن.

وقتها استأنف الرجل كلامه ردّا على ما سمعه و قال متنهدا:

– لقد ذهبت أيامي، أيام الصبا و المجد، و ها أنا ذا عاجز حتى عن الرد على زوجتي الشمطاء، و صرت مدعاة سخرية لأبنائي، و حتى ولدي البكر عماد بيتي و خليفتي في هذا البيت، هائم في ثنايا البلاد و لا يريد مساعدتي.

في تلك اللحظة وقف ابنه الصغير الذي كان يصنع بعض الدمى و الألعاب بالطين، قرب والدته أيضا، في بقعة الضوء و التفت لوالده و كأنه يريد أن يجيبه و قال:

– أخي فراس....لقد سمعت أحد الشبان هذا المساء يقول بأنه رآه متجها إلى قصر السلطان.

لم يكد الطفل يكمل كلامه حتى ساد جو من الرعب و الخوف في ذلك الكوخ الداكن، المرأة كادت تقلب القدر في التراب من شدة ارتعاش يديها، أما الطفلة فانسحبت من مكانها كالهاربة لتجلس في العتمة تحت مخدع والدها و وضعت رأسها بين ركبتيها، أما الولد فتجمّد في مكانه و ظل يجول بنظره في الكوخ يترصد ردة فعل من أحد والديه، أما الرجل العجوز فقال :

– اصمت أيها الشقي، فالجدران لها آذان و قد يسمعنا أحد الجواسيس هيا أخرج و تفقد زريبة المواشي و انظر خلف البيت.

وقتها ابتسم فراس و لولا أنامل حسناء الرقيقة التي امتدت إلى شفتيه لتكتم أنفاسه حتى لا يصدر قهقهة قوية لافتضح أمرهما، حيث كانا جالسين خلف الكوخ يراقبان من خلال فتحة صغيرة ما يحدث في بيت فراس، و يتسامران وهو أكثر مكان آمن

اختارته حسناء ابنة سلطان البلاد لتلتقي بحبيبها ابن تلك الأسرة الفقيرة، و تعيش من خلال فتحة صغيرة في جدار بيته البائس جو عائلي جميل فقدته في قصر أبيها الفخم، نظرت حسناء إلى داخل الكوخ منتظرة عودة الصبي من خارج البيت وهي متأكدة أنه صغير ويخاف و لن يتجول كثيرا خارج البيت في الليل، و فجأة رأته يدخل مذعورا و سمعت خلفه ضجيج و وقع أقدام كثيرة، أجهش الصبي بالبكاء حيث يبدو أن في ثغره الصغير كلمات تأبى أن تخرج، ركزت نظرها جيدا في الباب منتظرة من سيدخل خلف الصبي و إذا به قائد حرس السلطان محفوفا بعدد من الحراس و يبدو أنه ترك أغلبهم خارجا و ما إن دخل حتى نظر إلى المرأة الجالسة قرب الموقد في بقعة الضوء و صاح صيحة مفزعة قائلا:

– أين ولدكم فراس؟ مطلوب حيا كان أو ميتا، بلغتنا معلومات تقول أنه خطف ابنة السلطان و جلبها إلى بيتكم هذا.

ثم شق بقعة الضوء كوحش ضار و اقترب من الطفلة و سحبها من ثيابها المهترئة، و دفعها أمامه و طلب منها أن تجلب له كرسي يجلس عليه، شعرت حسناء بالخوف و تصرفت بحكمة فأحكمت قبضة يدها على يد فراس و هي في كل مرة تضع يدها الأخرى على فمه كي لا يتكلم، ثم جرته خلفها و بحذر و ذكاء خرجت من ذلك المكان و اتجهت به إلى البستان، وهو أحد البساتين التابعة لقصر السلطان، و هو أول مكان التقت فيه بفراس، و قد وصلا إليه بعد معانات كبيرة فالمدينة في تلك الليلة كانت تعج بحرس السلطان المنتشرين في كل الطرقات و الأركان و يقتحمون بعض البيوت، التي يتعالى منها الصياح و العويل. جلست حسناء بعدما أصابها التعب قرب

جذع شجرة كانت قريبة من جدول يمر وسط ذلك البستان في اتجاه النهر، و جلس فراس بجانبها وهو يلهث و ينظر إليها باستغراب و سذاجة و لم يتجرأ على سؤالها عما يحدث و عن سبب هروبهما فقد اكتفى بإخبارها بأنه شعر بالخوف و التعب، تركته يسترد أنفاسه ثم أمسكت يديه برفق و سألته :

– عزيزي فراس، أتذكر هذا المكان؟

ظل فراس صامتا و ينظر إليها و قد أطلّ ضوء القمر من بين الأشجار أضفى على المكان نورا خافتا، و هبت نسمة باردة زادت الجو هدوءا و سكونا، و كان صوت انسياب المياه في الجدول يأتي خفيفا بالكاد يمكن التمييز بينه و بين صوت أوراق الأشجار التي يذروها الهواء، أخذ نفسا عميقا ثم التفت إلى حسناء و أجابها:

– كم جميل هذا المكان، طبعا أتذكره جيدا هو أول مكان التقينا فيه ، أذكر جيدا تخفّيك خلف هذه الشجرة عن الحراس و الخدم، وقتها كنت هنا صدفة، وقتها اكتشف الحراس أمرك بسببي و كادوا يقتلونني لولا تدخلك، و تواعدنا على اللقاء قبل أن يأخذوك إلى القصر، لما لمحتك أول مرة ظننت أنك من الأحلام، آخر شيء كنت أتخيله آنذاك هو أن تكوني ابنة السلطان و محفوفة بالخدم و الحراس، لن أنسى هذا المكان، و لن أنسى ذلك اللقاء، أحبك كثيرا حسناء، و سأظل وفيا لك ما حييت، هذا المكان هو أجمل مكان زرته في حياتي، مع أنني لم أفهم لماذا جلبتني إلى هنا الآن فقد فرحت كثيرا بمجيئي إلى هذا المكان الرائع و الجميل و في هذا الجو الحالم و النسمات المنعشة و خرير المياه، و فرحتي أكبر لأنك معي.

تنهدت حسناء و نظرت إلى القمر، ثم وضعت يدي فراس على الأرض و كأنها تضع شيئا ثقيلا ثم وقفت و راحت تطوف بالشجرة و تقطف من أغصانها أحيانا بعض الأوراق، و فراس جالس في مكانه صامتا و ينظر إلى جدول الماء، فاتكأت بكتفها على جذع الشجرة ورائه مباشرة، فرفع نظره إليها و قال :

– عزيزتي، أراك متوترة، مالي لا أرى في عينيك تلك الرسائل الجميلة التي ترسلها لي كل ليلة؟ أين ذهبت تلك النظرات الحالمة المليئة بالأمل و الحب؟ أين ابتساماتك البريئة؟

ابتعدت عن الشجرة و اقتربت من جدول الماء، و راحت تداعب الماء بيدها لبرهة من الزمن ثم التفتت إليه و قالت:

– ما أعظم القلب الحزين عندما لا يشغله حزنه من أن يبعث المحبة و الأمل في قلوب الآخرين، كل شيء يتغير عزيزي فراس. أكملت كلماتها و انحدرت من عينيها دموع اهتز لها فراس و اقترب منها و راح يمسح دموعها و يقبل يديها ثم قال لها:

– أن تبكي يعني أنك تحبين فالحب دموع، عزيزتي أنت روحي و أملي، دموعك التي تنحدر كاللآلئ على وجنتيك اللامعتين تغمرني كما لو أنها أنهار متدفقة و معها أشعر بخفقات قلبي ترتفع و أنفاسي تنقبض عزيزتي، قد أنسى لحظات الفرح التي نتقاسمها لأنها كثيرة، لكن ان شاركتك لحظات حزن فلن أنساها أبدا، مالي أراك حزينة؟

أمسكت يده و وقفت و قالت له:

– فعلا عزيزي هي لحظات حزن، و أعي جيدا أنك أحسست بحزني، لكنك لم تسأل عن سبب حزني، نحن هنا في هذا المكان الجميل الآمن في حين أن البلد خارج هذا البستان تحترق، من عيوبك أنك لا تهتم بشؤون الناس و البلاد أنت تعيش فقط لنفسك، منذ تقابلنا أول مرة إلى اليوم لم تتحدث معي عن البلد و عن السلطة و عن والدي السلطان كيف يحكم هذا البلد، كلما تقابلنا كنت تحدثني عن الأماكن الجميلة عن الأزهار و أحيانا عن الأعمال المختلفة التي كنت تمتهنها، عزيزي أنا الابنة البكر للسلطان و أميرة القصر وإخوتي صغار و بالتالي مسؤولياتي جسيمة في هذا البلد و كم احتجت لك كي أخبرك بهمومي و أخبرك بمشاغلي لكنك لا تهتم، أنت تريد فقط اللهو و اللعب، و مع ذلك سأخبرك هذا اليوم ببعض الأشياء قبل أن أودعك، بلادنا قد تتعرض في الأيام القادمة لغزوة من بلاد "الوسا" و هي إمبراطورية عظمى وراء البحار لها نفوذ في عدة بلدان مجاورة لنا من المؤكد أنك لا تعرف شيئا عنها، بلادنا أيضا تعيش اضطرابات و احتجاجات و غضب كبير و كما رأيت ما يحدث في المدينة من نهب و تكسير و من مداهمات، عزيزي، والدي يشك في أن قائد حرس السلطان هو من يدبر كل شيء، و كما رأيت هو اقتحم بيتكم بحثا عنك، و قد يعتقلهم ليجبرك على الذهاب إليه، و أنا لا أنصحك بذلك، فقد يدبر لك مكيدة، عزيزي أنا ذاهبة الآن اسمح لي أن أودعك.

لم تكد حسناء تنتهي من حديثها حتى لمحت فراس يرتعش و العرق يكسو وجهه و جبينه و قبل أن يهم بالبكاء ارتمت في أحضانه و ظلت صامتة وهو يهذي بكلمات و تساؤلات مختلطة و مضطربة فقبلته ثم أجلسته كطفل صغير تحت جذع الشجرة و

ربتت على كتفيه و انصرفت مسرعة نحو القصر، وفي طريقها إلى القصر بكت كثيرا و انتحبت كثيرا، فقد تركت حبيبها فراس وحيدا عاجزا حائرا، دون أن تفسر له ما يحدث حوله، و دون أن تخبره عن مصيرها، لقد كان فراقا صعبا و مرا فحسناء قد أحبت فراس بكل جوارحها و لم تتخيل يوما أنها ستتخلى عنه و تتركه، لقد التقت به أول مرة في ذلك البستان و تحديدا خلف تلك الشجرة لما حاولت التخفي عن أنظار الحراس و الخدم الذين يرافقونها في كل جولاتها في المدينة. حسناء كانت دائما حريصة على كسر كل القوالب و القيود الرسمية التي تفرضها عليها مكانتها كأميرة للبلد، و قد استغلت حب والدها السلطان لها لتتصرف بحرية و تتعلم كل شيء تريد أن تتعلمه و تتجول في المدينة و في الحقول و القرى، كما اشتهرت بحسنها و جمالها في عدة بلدان، و قد كانت مطلوبة للزواج من عدة أمراء و من أعيان البلد و كبار التجار، لكنها كانت ترفض في كل مرة رغم إلحاح والدتها و توسلات والدها الذي كان يرغب في ربط علاقات جديدة بمصاهرة أحد كبار التجار، فهي متيمة بفراس الشاب البسيط الفقير الذي يخرج كل يوم للقيام بأشغال مضنية ليساعد والده على توفير حاجيات أسرته، لقد وجدته شابا مرحا مبتهجا رغم صعوبة حياته و معاناته، فقضت معه أوقات فرحة و سعادة وهو أيضا أحبها كثيرا و كان يفعل ما بوسعه ليجعلها سعيدة و يغامر بحياته و يلتقي بها كلما طلبت منه ذلك غير مبال بخطورة الأمر، و قد كانت كل اللقاءات بينهما جميلة و رائعة و حالمة عدى اللقاء الأخير الذي كان حزينا و تزامن مع حالة العنف و الفوضى التي تعيشها البلاد و اقتحام قائد حرس السلطان لبيت فراس، و قائد حرس السلطان هو من المقربين من أبيها و قد عرف ببطشه و

جبروته، لكن سلوكه بدأ يتغير منذ مدة و حتى علاقته بوالدها بدأت تشهد مؤخرا بعض التوتر، حيث كان السلطان دائما يقول بأنه هو من تسبب في غضب الناس بممارسة العنف و القمع و إثقال كاهل الفلاحين و صغار التجار بالإتاوات، والدها السلطان الذي عرف بجبروته و استبداده و تسلطه بات في المدة الأخيرة يحاول تغيير البلاد و تغيير أسلوبه في الحكم، لكن يبدوا أنه لم يعد ماسكا بزمام الأمور، و صار يعيش حالة من اليأس و الحزن خاصة بعدما سمع بقرار إمبراطورية "الوسا" غزو البلاد، و هو يعرف أنه لم يعد قادرا على صدهم و مقاومتهم، نظرا لحالة الضعف و الهوان و الفوضى الذي تعيشه البلاد و الأهم من ذلك هو عدم ثقته في قائد حرس السلطان، حسناء لم تعد ملمّة بحال والدها الذي لم يعد يحدثها عن كل شيء، فقط سمعته في بعض حواراته مع والدتها يتحدث عن انتحار جماعي لكل الأسرة قبل أن ينقلب عليه قائد حرس السلطان و يلقي بهم في الشارع فريسة للناس الغاضبين، و هي تتوقع أن الاجتماع الذي وعدها به والدها مع العائلة سيتخذ فيه قرارا هاما و حاسما و قد يكون هذا القرار هو الانتحار، و هذا ما زاد في حزنها بعدما ودعت حبيبها فراس، فهي لا تريد أن تتركه وحيدا.

وصلت حسناء القصر بعد معانات و تعب و بقدر ما أرهقها الهروب من أعين الحراس في المدينة و تفادي بؤر الفوضى فقد أرهقها التفكير في فراس و في مصيرهما و فيما سيقرره والدها، وجدت القصر هادئا و الحراس في أماكنهم المعهودة و الأضواء متلألئة و قبل أن تدخل إلى مجلس أبيها حيث تنتظرها كل الأسرة دخلت إلى غرفتها لتهيأ نفسها و تسترد أنفاسها، و في ظرف وجيز دخلت عليها الخادمة لتخبرها بأن والدها

السلطان يسأل عنها منذ المساء و يريدها فورا في مجلسه فرافقتها حسناء إلى مجلس السلطان فوجدته متجهما و مهموما رغم ما حاول أن يبديه من حزم و شدة ، أما والدتها فقد كانت واقفة بجانب كرسي السلطان في كامل أناقتها و شموخها ، والدتها كانت امرأة قوية عرفت بكبريائها و بجمالها و بقوة شخصيتها، كما عرفت بنشاطاتها الخيرية و التطوعية، لكنها لم تكن تتدخل في شؤون الحكم، و حتى ان تحدثت مع السلطان في شأن البلاد و أحوالها و في شأن الحروب فهي تتحدث من باب المجاملة و قد تعلمت منها حسناء عدة مهارات، و آداب التعامل مع الرجال و مع عامة الناس، نظرت حسناء لوالدتها نظرة ساذجة و كأنها تريد أن تثبت لها أنها لم تفهم شيئا مما يحدث، لكن والدتها ظلت صامتة و لم تكلمها، في تلك الأثناء كان والدها يجوب كامل أرجاء قاعة المجلس واضعا يديه خلف ظهره، طأطأت رأسها و ظلت صامتة لتشعر بوالدها يقف بجانبها و يقرب رأسه من أذنها و يقول:

– أين كنت يا أميرتي؟ ما ذا تفعلين بأبيك؟ هل ينقصنا فضائح أخرى على فضائحنا و على المصائب التي حلت بالبلاد و الفوضى العارمة، لتقابلي عشيقك البائس في مثل هذه الظروف؟ لا أريد أن أطيل في معاتبتك، فقط جمعتكم لأخبركم بما وصلنا إليه الآن و بما سأقرره، لقد نزلت إلى المدينة هذا المساء متخفيا و قابلت صديقا لي وفيا لا يعرفه كل الناس، لأتأكد بنفسي من حقيقة ما يشاع من أخبار، و قد أخبرني بأن البلاد في حالة غضب و أن الناس لم تعد تخاف من الحراس، و لم تعد تخاف الموت قد يهاجمون القصر في أي لحظة، كما أكد لي أن محاربي "الوسا" قد نزلوا في مدينة الميناء و هم في طريقهم إلى المدينة لاحتلالها ثم السيطرة على كامل البلاد، و أثناء

عودتي للقصر مررت قرب ساحة المدينة و رأيت الناس يسقطون تمثالي و تمثال جدك السلطان الأكبر و يجرونه بالسلاسل و الحبال، ابنتي العزيزة و زوجتي الغالية مصيرنا سيكون السحل تحت أقدام الناس الغاضبين ان نحن بقينا هنا، و لم يعد أمامنا حل سوى الاختفاء نهائيا.

وقتها تحركت الملكة بهدوء ماسكة بطرف ثوبها و رافعة رأسها بكبرياء و شموخ، و أمرت حسناء بالجلوس و أمسكت السلطان من يده و أجلسته في مكانه ثم انحنت أمامه بكل احترام و تقدير و عادت هي لتقف بجانبه في نفس المكان و بنفس الشموخ و كأنها قطعة من تحف الغرفة، ليسود الصمت في مجلس السلطان مرة أخرى و بعد لحظات دخلت الخادمة و بعدما انحنت احتراما لمجلس السلطان اتخذت لنفسها موقفا في ركن المجلس و ظلت واقفة و رمقت حسناء بنظرة خاطفة ثم أحنت رأسها و ضمت يديها فوق بطنها و ظلت صامتة و تجمدت في مكانها، شعرت حسناء بأمر مريب يحدث و بأن والدها السلطان لم يكمل كلامه، و أن للخادمة علاقة بهذا الأمر و الخادمة تحظى بثقة كبيرة من السلطان و زوجته في حين أن حسناء تراها كثيرة التملق و مثيرة للشكوك، بدأ الغضب ينتاب حسناء بسبب حضور الخادمة في اجتماع يبدو أنه هام و خطير فتصرفت بجرأة و بادرت بالكلام قبل أن يأذن لها السلطان و قالت:

– مولانا السلطان مالي أرى الخادمة تحضر بيننا، في حين أننا في اجتماع هام و أعلمتنا بأنك ستتخذ قرارا خطيرا.

حدقت الملكة في عيون حسناء بحدة و رفعت يدها ثم مدت كفها في اتجاهها بهدوء و رزانة و قالت:

– ها أنا أرى أميرتنا صارت تتحدث بجرأة في مجلس السلطان، ما هكذا ربيتك يا ابنتي.

تدخل السلطان و كأنه يريد أن يستبق جدالا كبيرا سيحدث بين حسناء و والدتها، و قال :

– الخادمة معنية بالقرار الذي سأتخذه و هي فرد من العائلة و الآن بدأ وقت التنفيذ هيا يا حسناء نادي أخويك من غرفتهم، و أنت أيتها الخادمة اجلبي لنا الكؤوس.

انصرفت الخادمة بخطى حثيثة و كأن السلطان قد دفعها بيده نحو الباب أما حسناء فقامت من مجلسها متثاقلة حائرة و اتجهت نحو غرفة أخويها و ما ان وصلت باب الغرفة حتى دار بخلدها أن تلحق الخادمة لترى قصة الكؤوس، ثم اقتربت من باب المطبخ خلسة و أطلت دون أن تشعر الخادمة بوجودها، فرأتها تضع ستة كؤوس في طبق و رتبتهم جيدا ثم تناولت آخر كأس و أفرغته مما فيه و ملأته بالماء، لم تفهم شيئا مما يحدث لكنها حاولت في تلك اللحظة أن تنبش ذاكرتها و تفك طلاسم الكلام الغريب الذي قاله والدها و حواراته السابقة مع والدتها، فتذكرت كلامه عن الانتحار، و تذكرت أيضا كلامه عن الاختفاء نهائيا فشكت في أن الكؤوس قد تكون مليئة بالسم، و لعل الخادمة غيرت محتوى الكأس السادسة لتنقذ نفسها، فتقهقرت إلى الوراء و قررت أن تفسد ما قامت به الخادمة فنادتها قبل أن تدخل المطبخ و ما ان دخلت

عليها حتى وجدتها مرتبكة و الكؤوس ترتعش في الطبق بين يديها فأمرتها بأن تضع الطبق جانبا و تجلب لها فستانها من غرفتها، فغادرت الخادمة المطبخ و الخوف باد في عينيها، رافقتها حسناء بنظرها حتى تأكدت من أنها قد ابتعدت عن المطبخ، ثم تناولت الكأس السادس و وضعت عليه علامة صغيرة بالكاد يمكن رؤيتها، ثم غيرت مكانه في ترتيب الكؤوس و رجعت إلى باب المطبخ لتنتظر الخادمة، التي رجعت مسرعة محاولة تبرير سرعتها بحرصها على تطبيق كلام السلطان الذي ينتظرهم و قد أمر الجميع بأن يعودوا بسرعة إلى مجلسه، تجاهلت حسناء همهمتها و تناولت من يدها الفستان و انصرفت نحو غرفة إخوتها و هي تفكر و مشغولة بما سيقرره والدها، و قد باتت شبه متأكدة أن قراره قد يكون الانتحار الجماعي، و أن تلك الكؤوس الستة هي كؤوس مسمومة.

حضر الجميع في مجلس السلطان، الذي كان قلقا و متوترا و يتحرك في كل أرجاء القاعة، و زوجته واقفة في مكانها كتمثال، هرع الطفلين نحو السلطان لتقبيل يديه كما تعودوا، فتناول كل واحد منهما و قبله على رأسه، دونما اهتمام كبير، أما حسناء فقد ظلت واقفة في مكانها و تجول بنظرها في كامل القاعة و تتفحص وجوه الجميع و حركاتهم، أما الخادمة فاتّخذت لنفسها مكانا وقفت فيه مطأطئة رأسها و ماسكة طبق الكؤوس بشدة و اهتمام و كأن الطبق جزءا من جسدها، اقترب السلطان من الباب و أطل برأسه ليتأكد من خلو الأروقة من الحراس و الخدم ثم رجع إلى وسط القاعة و قال:

– الوقت صار مناسبا الآن لنقوم بمهمتنا الأخيرة في هذا القصر، عزيزتي حسناء، اعذريني لأني لم أعلمك بقراري الخطير هذا رغم أن والدتك و خادمتنا الوفية، قد أخبرتهما قبلك، لكن الآن و خوفا على إخوتك الصغار فسأخبرك همسا لما ندخل إلى الممر السري.

في تلك الأثناء تحركت والدتها من مكانها بخطوات متثاقلة و جثت على ركبتها و أخذت ترتب ملابس الطفلين و تقفل الأزرار المفتوحة و تلمّعها بطرف ثوبها ثم قالت لأحدهم:

– بنيّ العزيز أنت كشقيقتك لا تهتم بمظهرك، أنظر إلى سروالك كيف انكمش و مبلل بالماء.

لم تكد تكمل كلماتها حتى بح صوتها و لمعت عيناها فوضعت يدها الرقيقة على فمها و يمّمت وجهها للحائط لألاّ يكتشفوا عبراتها، أما حسناء فبدأت الأمور تتضح أمامها و لم تعد بحاجة لأن يهمس لها والدها، و لم يعد أمامها خيار آخر غير متابعة الأحداث و طاعة أوامر والدها، و هي آخر الأوامر التي سيعطيها في حياته المليئة بالأمر و النهي و التسلط ، توجه السلطان نحو تمثال حجري في ركن الغرفة حرّكه بطريقة مميزة ، و كانت الخادمة تراقبه عن كثب لمّا فتح ممرّا سرّيا و أمر الجميع بأن يتبعوه، ثم حمل ضوءا في يده و أمر حسناء بأن تحمل صندوق الأختام.

دخل الجميع إلى الممرّ السري و حسناء عندها فكرة عن ذلك الممرّ، و عن كل الممرّات السرية بالقصر التي حدثها عنها والدها سابقا، حيث أخبرها بأنه عبارة عن

نفق يمرّ أسفل القصر و يفضي إلى ضفاف النهر، كما حدثها عن الكنوز و المجوهرات و القطع الثمينة التي يخبؤها في مخابئ محفورة على جوانب الممر، و رغم ذلك انتابها خوف شديد و بدأ الحزن يتسرب إلى قلبها مع كل خطوة تخطوها مع أسرتها إلى أسفل النفق، و كانت صورة فراس لا تفارق مخيلتها فهي قد اشتاقت إليه و تمنت لو أنه معها حتى ينتشلها من هذه المغامرة المجنونة التي سيقدم عليها والدها الذي يبدو أنّه خاف أن يداس تحت أقدام الناس في الشوارع بعدما كان حراسه يدوسون الجميع بإشارة من إصبعه. تقدمت حسناء نحو والدها حتى يخبرها كما وعدها بما سيحدث، و لما شعر بها بجانبه، التفت ورائه ليتأكد من أن ولديه بعيدين عنه، ثم همس في أذنها قائلا :

– ابنتي الغالية، لقد اتخذت قراري و نحن الآن في المرحلة الأخيرة لتنفيذ القرار، خلاصنا في تلك الكؤوس التي تحملها الخادمة لأنها مليئة بماء مسموم، و بعدما نشربها سنفارق الحياة و سنتفادى السحل في الشوارع، و الصندوق الذي في يدك فيه كل الأختام، و لن يقدر أحد على الوصول إلى هنا بما في ذلك الخائن قائد حرس السلطان الذي خطط لرمينا في الشوارع تحت أقدام الناس و الاستيلاء على السلطة، هو من المؤكد سيشيع وسط الناس خبر هروبنا و سيشيع عنا فضائح و سيظهر في ثوب البطل المنقذ و سيساعده في ذلك قادة محاربي"الوسا" الذين سيحتلون البلاد، عزيزتي أعرف أنك تشكّين في الخادمة، لكن لا تخافي حتى و ان خدعتنا و لم تشرب كأسها فستموت هنا بالجوع و العطش فهي لن تقدر على الخروج، ها قد وصلنا هيا ضعي الصندوق و لنتوقف هنا.

توقف السلطان و تحلق الجميع حوله و اقتربت الخادمة حاملة الطبق بحذر و وقفت بجانبه، و ما إن أمر بتفريق الكؤوس حتى مرّرت أمامه الطبق بطريقة تجعله يأخذ أول كأس في ركن الطبق، ثم مرت إلى الملكة، ثم إلى حسناء التي اختطفت بخفة الكأس الذي تركت عليه علامة مما جعل الخادمة ترتبك و ترفع عينيها و ترمقها بنظرة حادّة و مرعبة، لم تبالي حسناء بذلك، و خوفا من أن يخطئ الصغار أمسكت الخادمة الطبق بيد و ناولتهما باليد الأخرى كأسيهما لتترك لنفسها الكأس السادس في آخر الصف، وقتها شعرت حسناء بشيء من الطمأنينة و بنشوة انتصار على دهاء الخادمة، فتسربت من بين شفتيها ابتسامة عجزت عن مقاومتها في تلك اللحظات المرعبة، حيث كان الكل يرتعش من شدة الخوف و الترقب، و مع ابتسامة حسناء أغرق أخويها في الضحك، فتدخلت الملكة و كأنها تريد أن تستعجل الأمور فنهرت الطفلين بصوت كلّه حزم و قسوة كما لو أنها دفنت عاطفة الأمومة قبل أن تنزل إلى النفق، أما السلطان فأشار للجميع بأن ينتبهوا له ثم قال:

– أسرتي العزيزة ابنتي الغالية حسناء ولديّ الطيبين زوجتي الوفيّة، خادمتنا المخلصة، نحن هنا في هذا المكان الآمن قد نجونا من بطش الناس الذين تآمروا علينا، و هم في الحقيقة قد تآمروا على البلاد التي هي الآن تحترق، و تعم فيها الفوضى و التخريب و في يوم الغد ستكون تحت سلطة محاربي "الوسا" الذين غزو بلادنا منذ مدة، و من المؤكد أنّهم سيعيثون فيها فسادا كما فعلوا سابقا مع بلدان أخرى، فإمبراطورية "الوسا" تريد أن تبسط نفوذها في كل المناطق من الأرض ، لقد نزلنا هنا في هذا المكان الجميل الذي أخبئ فيه كل كنوز البلاد، و كذلك أهم الوثائق و الأختام، حتى لا يجد

الخونة الذين سيحكمون بعدي أي وسيلة للتعامل مع البلدان الأخرى، و يصعب عليهم إصدار الأوامر و حكم البلاد ، لا أريد أن أطيل عليكم و أن أشغلكم بهذه التفاصيل فقط أريد أن أقول لكم أننا الآن سنحتفل و سأعلن بداية الاحتفال بأن نشرب مع بعضنا كؤوس الماء العذبة هذه.

أكمل السلطان كلامه و قد ركز نظره ،لما قال الكلمات الأخيرة، على ولديه و ابتسم لهما، ثم رفع الكأس إلى فمه و رفع معه البقيّة كؤوسهم، فسبقتهم الخادمة و شربت كأسها بالكامل في جرعة واحدة، أماّ الطفلين فشربا جرعات صغيرة ثمّ وضعا كأسيهما و جلسا منهكين على الأرض، و ظلّت الملكة مترددة ثم شربت كأسها و اقتربت من ولديها تحاول يائسة إنقاذهما و مسح اللعاب المنساب على جانبي فم كل واحد منهما، أما السلطان فتصرف و كأنه في احتفال حقيقي حيث بقي واقفا يرتشف الماء المسموم و يمسح شفتيه بين الفينة و الأخرى بلسانه و كأنه يشرب ماء حلو المذاق، في تلك الأثناء شربت حسناء هي الأخرى كأسها و اقتربت من الخادمة التي استلقت على الأرض و تظاهرت بالموت، داست على رقبتها واضعة يديها في خصرها و قالت لها:

– هيّا أفيقي من سباتك المفتعل، فالموت لن يأخذ أمثالك بسرعة، هيّا صارعي الموت أمامي و لا تستعجلي الأمر، أيتها الخائنة.

ما إن سمعت الخادمة كلمات حسناء حتى قامت من مكانها مذعورة، و راحت تصيح و تكسر كل شيء أمامها، و تركض في جميع الاتجاهات محاولة الهروب، ثمّ هاجمت حسناء، فتصدّت لها و دفعتها إلى أن خارت قواها و سقطت على الأرض و بدأت

تتلوّى و تتأوه، أمّا حسناء فنظرت حولها لترى والدها يصارع الموت و يتلوّى هو أيضا، و رأت أمها مستلقية على ظهرها على الأرض و أخويها فوقها فاقتربت منهم لتكتشف أنهم قد ماتوا بسبب عدم قدرة أجسادهم على مقاومة السمّ، فسوّت جسد والدتها و وضعت على جانبيها الولدين ثم مزقت فستانها و جعلت منه رداءا غطتهم به، و بما أنّها تعرف أن أخويها لم يشربا كلّ السمّ الموجود في كأسيهما تناولت الكأسين و خلطت الماء المسموم في كأس واحد و همّت بشرب كأسها و اللحاق بأهلها و وضع حدّ لحياتها، و طاعة آخر أوامر والدها الذي لازال يصارع الموت و لن يسامحها إن هو يشاهد خيانتها لأهلها، رفعت الكأس و ظلت تحدق فيه، ثم قرّبته من الضوء فرأت وجهها الجميل يتمايل مع حركة الماء، فتذكرت اللحظات التي كانت تقضيها مع فراس على ضفاف النهر و يراقبان وجهيهما على صفحة الماء الصافي المتلألئ، وقتها شعرت بشيء من الخوف و الرهبة و ترددت في شرب الماء المسموم، و التفتت إلى والدها فرأته يتهاوى كالجبل و يشير إليها بيده محاولا إثنائها عن شرب السمّ، لم تبالي بإشارته و قرّبت الكأس من شفتها و راحت ترفع الكأس و كأنها ترفع وعاءا ثقيلا، مال الكأس بصعوبة فى اتجاه فمها و انحدر خيط رقيق من الماء البارد المسموم على لسانها فشعرت بحدته و كأنه حدّ سكين، فارتعد جسمها و تسارعت خفقات قلبها و مرّت غشاوة على عينها فالتفتت إلى أمها و إخوتها و والدها و الخادمة فرأتهم يتراقصون أمامها و كأنهم يقفون وسط عاصفة رملية، أبعدت الكأس عن فمها و أحكمت عليه قبضة يدها و راحت تفرك عينيها باليد الأخرى إلى أن انزاحت عنهما الغشاوة فنظرت حولها لتجد الجميع أصبحوا جثثا هامدة فانتابها الرعب و الخوف و خارت قواها و

لم تعد قادرة على الوقوف فجلست على صندوق لمحته خلفها، ثم انحنت إلى الأمام و وضعت رأسها بين يديها و ظلت تفكّر في حبيبها فراس، أين ذهب؟ ماذا يفعل؟ ماذا أكل؟ هل يفكّر فيها؟ هل اشتاق إليها؟ ثم أجهشت بالبكاء و صاحت بصوت مجروح و قالت:

– هل عليّ أن أشرب كأسي و أترك حبيبي فراس وحيدا؟ سيتعذب بدوني

ضاع صوتها بين الجثث في ذلك النفق الرطب فواصلت بكائها إلى أن شعرت بملوحة الدموع المنسابة بين شفتيها، فحرّرت رأسها من قبضة يديها و راحت تمرّر أناملها بهدوء على شعرها ثمّ على كامل جسدها، ثمّ قالت:

– أنا الآن متّ، لكن هذا الجسد لازال على قيد الحياة سأصارع به من أجل حبيبي فراس، من أجل أن ألتقي به ثانية و أحتويه بهذا الجسد و أقبله و أعانقه كي يعيش سعيدا مبتسما.

مسحت دموعها و أخذت كأسها ثم اقتربت من جثة الخادمة فأفرغته على رأسها ثم جرّدتها من ثيابها لتلبسها هي، ثمّ نزعت حليّها و حليّ والدها و جمعت بعض المجوهرات و القطع الثمينة و جمعتها كلّها في صرّة و أخذت الضوء الذي كان يستعمله والدها و مشت في اتجاه مخرج النفق و اتّبعت الطريق مثلما وصفه لها والدها إلى أن وصلت آخر النفق فوجدت سلّما صعدته فوجدت غطاءا حاولت دفعه لكنه كان ثقيلا و بعد عناء فتحته، فوجدت نفسها وسط أجمة من العلّيق مليئة بالحطب و الأعشاب اليابسة، كان الظلام دامس و المكان مرعب و كانت الأصوات المنبعثة من

كلّ الاتجاهات مخيفة، لكن حسناء تصرفت بحكمة و ذكاء فتخلصت من الضوء و أحكمت إغلاق النفق و لم تترك أي أثر في المكان ثم خلّصت نفسها بصعوبة من ذلك المكان الشائك، فوجدت نفسها قرب النهر و قد اتسخ ثوبها و تمزق و أصابتها بعض الخدوش في وجهها و يديها بسبب الأشواك، نزلت إلى النهر بحذر كان الماء هادئا و منخفضا بسبب الجفاف مما جعل ضفة النهر يابسة فاستغلت ذلك لتسير على ضفة النهر متخفيّة بالأشجار، حيث قررت أن تهرب في اتجاه الغابة، بدأت تقترب من الجسر الذي يشقّ المدينة و كانت كلّما اقتربت كلّما كثر صوت الصياح و العويل و بدأت الأضواء تتسلّل إليها من بين الأشجار، وصلت أسفل الجسر فرأت حرس السلطان يغلقونه من الجانبين أمام الناس الذين يتدافعون رغبة في الهروب بأطفالهم من جحيم المعارك و الفوضى داخل المدينة، توقّفت في مكانها خوفا من أن يكتشفوا أمرها، و بحكم أنّها تجيد السباحة ربطت الصرّة التي بحوزتها جيدا ثمّ تسربت داخل الماء و غاصت و قطعت المسافة سباحة الى أن تأكدت من أنّها غابت عن أنظار حرس السلطان ثم رجعت للسير على ضفاف النهر و بدأت تبتعد عن المدينة و بدأت الأضواء تخفت و الأصوات تنخفض عدى أصوات الصراصير و الحشرات و الزواحف التي تنزل للنهر بحثا عن الرطوبة و الماء. شعرت حسناء بالأمان و تنفست الصعداء لأنها تعرف نفسها قادرة على تجاوز كلّ الأخطار المحتملة داخل الغابة، لأنها تجيد التعامل معها فالغابة بالنسبة لها أقل خطرا من البشر الذين في المدينة و الذين يريدون سحلها و سحل كلّ من يمتّ بصلة للسلطان، و بعد زمن من السير و الخوف شعرت بالإعياء ففكرت بأن تبحث لنفسها عن مكان آمن قبل أن يحلّ النهار، صعدت إلى

أعلى ضفة النهر، و جالت بنظرها في كلّ الاتجاهات فلم تر أي ضوء فقط برز أمامها شكل هضبة يبدوا أنها قريبة فتنقلت في اتجاهها بحذر و كانت تتوقف بين الفينة و الأخرى لتصغي جيدا عسى أن تسمع صوت أناس في المكان، كان الخوف يتملّكها أحيانا لدرجة أن تسمع نبضات قلبها، فتتغلب عليه لأنه لا خيار أمامها، صعدت إلى أعلى الهضبة فوجدت فيها بعض الأشجار فتسلّقت شجرة كثيفة و اختارت جذعا متينا اتكأت عليه محاولة النوم، لكن ما ان استرخى جسدها و سحبت نفسا عميقا حتى أخذ ذلك النفس معه تنهيدة من أعماق صدرها تنهيدة مشحونة بالألم و الخوف و الندم و الشوق و الترقّب و الانتظار و الحزن، تنهيدة كانت بمثابة حبل سحبت به من أعماق صدرها دلوا دهاقا بالأشجان و الذكريات فتذكرت اليوم الأول الذي رأت فيه فراس و تذكرت لحظات الفرح التي قضتها معه و تذكرت عناده و ابتساماته و سذاجته و تصرّفاته الصبيانية، كما تذكرت جماله و نظراته الحالمة و كلماته الصادقة و مشاعره الفيّاضة، ثمّ تذكرت أسرتها و والدها الحاكم المستبدّ و تذكرت أيام الرخاء و الرفاهية في قصر أبيها، ثم تذكّرت اللحظات الأخيرة التي فارقت فيها أسرتها و قرّرت أن تنجوا بنفسها و تختار الإبقاء على جسدها حيّ ،رغم موت كلّ شيء ،حافظت على حياة جسدها فقط من أجل فراس، من أجل أن يأتي يوم و يحتضن فراس هذا الجسد الذي أنقذته من الموت ألما، بالماء المسموم الذي أعدّه والدها، لكنها شعرت ببعض الندم و التأنيب لأنّها لم تكن وفيّة لأسرتها و مطيعة لآخر أوامر والدها الذي عاش حياته كلّها و لم يرفض له طلب و لم تعص أوامره، قد تكون هي الوحيدة التي عصت أمرا من أوامر السلطان في تاريخ بلدها الذي عاش أهله زمنا طويلا خاضعين خانعين لأوامر

والدها السلطان و جدّها السلطان الأكبر، ظلّت الأفكار و الذكريات تؤلم رأسها و تسبب طنينا في أذنيها منع عنها النوم رغم محاولاتها اليائسة لإطباق جفونها ممّا اضطرها لفتح عينيها و النظر إلى السماء و النجوم، التي بدأت تأفل تدريجيّا ، عسى أن تخفف من وطأة الأفكار و الأحاسيس التي تؤلم رأسها و ترهق قلبها، واصلت مراقبة النجوم و ودّعتها واحدة تلو الأخرى إلى أن برزت خيوط الفجر الأولى و بدأ معها ضجيج المواشي و الدواب و الكلاب و الديوك يتصاعد من اتجاهات مختلفة، أطلّت من بين الأغصان بحثا عن مصادر الأصوات فرأت الفلاحين و المواشي يتحرّكون في العتمة كالأشباح بسرعة، و بدأ بعضهم يقترب منها فكتمت أنفاسها إلى أن مرّ أحد الرعاة أسفل الشجرة التي هي فوقها و راح يدور تحت جذعها و يتساءل عن سبب وجود آثار الذئاب تحت الشجرة، ثمّ انصرف في اتجاه الهضبة إلى أن غاب خلفها متجها للغابة، كانت لحظات عصيبة على حسناء كادت تنهار فيها و تصيح أو تبكي و يكتشف ذلك الراعي أمرها، طلع النهار و بدأت أشعّة الشمس تتسرب إليها بين الأغصان حادّة و حارقة، و كثر الضجيج حولها و اكتشفت أن المكان الذي هربت إليه ليس بعيد عن المدينة و ربما بسبب التعب و الإرهاق و التفكير ظنّت أنها ابتعدت في حين أنها في ضاحية من ضواحي المدينة، حيث أن نشاطهم يقتصر على تربية المواشي و زراعة الخضر على ضفاف النهر، ظلّت صامتة في مكانها منتظرة الليل كي تغادر، و قد قرّرت أن تواصل سيرها على ضفة النهر، فالطرّيق غير آمن، اشتدّ الحر فاقتربت امرأة كانت تسقي حقل الذرة لتستظل بفيء شجرة ثم لحقت بها امرأة أخرى كانت ترعى أغنامها، و بدأتا تتجاذبان أطراف الحديث، حيث قالت لها الأولى:

– هل سمعت بالسلطان؟ لقد هرب هو و أسرته من القصر و ترك البلاد للغزاة، لقد قرّرنا أنا و زوجي أن نهرب بمواشينا إلى الغابة، فنحن لا نملك شيء غير المواشي، أما أنت فقد يفتكّون أرضكم و حقلكم ماذا ستفعلون.

أجابتها الأخرى:

– نحن سنبقى هنا و سنقاوم، لو كلّفنا ذلك الموت فوق أرضنا، ثمّ لا شيء واضح الآن كلّها إشاعات، الزمن سيكشف لنا ما حدث البارحة، زوج جارتنا جاء من المدينة فجر اليوم محملا بالأقمشة و المقتنيات الفاخرة، لقد قال لها أن كل المخازن و المتاجر قد نهبت، هيّا لننصرف فالحرارة بدأت تشتدّ.

تنفست حسناء الصعداء بعد مغادرتهما رغم أنها تمنّت أن تسمع منهما المزيد من الكلام لتفهم ما يحدث في البلاد، مالت الشمس إلى وسط السماء و زادت أشعتها حرارة و قوة و لم يكن الظلّ في أعلي الشجرة يكفي ليقيها من ذلك الحرّ الشديد، فظلّت تطل بين الأغصان لتتأكد من خلوّ المكان من الفلاحين و العابرين، لتفاجأ بذلك الرّاعي نازل بمواشيه من أعلى الهضبة ليقترب من الشجرة و يعيد دورته متفحصا آثار الذئب و يعيد نفس تساؤلاته التي طرحها على نفسه في الصباح ثمّ يمضي، رافقته حسناء بنظرها إلى أن ابتعد فنزلت من الشجرة و مشت إلى أعلى الهضبة متخفية بين الأشجار لتجد كوخا صغيرا متداع للسقوط و بحذر بحثت حوله عن آثار للبشر فلم تجد فدخلته لتجده فارغا و الحرارة فيه أقل وطأة من الخارج لكنه كان متسخا و يبدوا أنه مخزن لتجميع المحاصيل الزراعية حيث وجدت فيه كومة هشيم فنظفت مكان لتنام فيه و تفقدت كلّ زوايا الكوخ خشية أن تباغتها بعض الزواحف القاتلة ثم محت

آثار أقدامها باستعمال غصن صغير و استلقت في مكانها و غطت نفسها جيدا بالهشيم و غرقت في نوم عميق رأت فيه كلّ الكوابيس و سمعت فيه كلّ الأصوات بعضها حقيقيّ متأتّ من الرعاة و الفلاحين الذين مرّوا قرب الكوخ في المساء، و بعضها كان أضغاث أحلام، لتستفيق مذعورة على صوت عواء الذئاب و قد أسدل الليل ستائره، و صار المكان معتما، شعرت ببرود العرق على جبينها و في كامل جسدها، و تلمست ثوبها فوجدته مبلّلا بالعرق، أدركت أنّها كانت تغط في نوم عميق في ذلك الكوخ الخرب، أبعدت عنها الهشيم بحذر، ثمّ قامت من مكانها و حملت صرتها و خرجت فبدا لها الأفق محمرّ، فاطمأنت أنها في أول الليل و مازال أمامها الوقت لتغادر المكان، سمعت أصوات الذئاب تقترب منها فحملت عصا لتدافع بها عن نفسها و اتجهت نحو النهر و كانت بعد بضع خطوات تقف لتصغي جيدا عسى أن تسمع أصوات خطى العابرين أو حديثهم، اقتربت من النهر فتذكّرت حقل الذرة، فتسلّلت إلى الحقل و ملأت صرّتها و تركت واحدة في يدها لتلتهمها بعدما أضناها الجوع ثم اغترفت شربة ماء من النهر وواصلت سيرها في اتجاه الجبل. مرّ عليها شطر من الليل وهي تمشي على ضفة النهر إلى أن تراءى لها شبح الجبل يتضخّم شيئا فشيئا، فشعرت بالانشراح و الارتياح لأنها بدأت تبتعد عن الخطر. اقتربت من سفح الجبل فوجدت النهر يتفرع إلى اتجاهين مختلفين، حيث يصب فيه من كلّ اتجاه وادي و هي مجبرة على أن تختار اتجاه واحد تسير فيه، و الاختيار في مثل هذه المواقف يكون صعبا و عسيرا، خاصة و أنه لم يبق أمامها الكثير من الوقت للتفكير، وقتها تذكرت حبيبها فراس الذي دائما يكون مترددا حائرا في اتخاذ القرارات و تغلبه العاطفة، و تذكرت

أنها تنصحه بأن يراقب النجوم و يسألها أن تساعده في اتخاذ القرار، فنظرت إلى السماء التي كانت صافية و كانت النجوم فيها متلألئة فقرّرت أن تسير في الاتجاه الذي فيه أكثر عدد من النجوم، و كان الاختيار أن تسير في اتجاه يدها اليسرى فواصلت كالعادة على ضفة الوادي الجديد الذي كان الماء فيه قليل و كان ضيقا و تملؤه الحجارة مما جعلها تتعب و ترهق في السير، لكن رغم ذلك سارت شوطا طويلا إلى أن سمعت صوت نقيق الضفادع يرتفع و أصوات الصراصير تتعالى، و لمحت جدولا صغيرا ينهمر منه الماء في ذلك الوادي، فصعدت لترى مصدر تلك الأصوات، فوجدت نفسها أمام بركة ماء كبيرة و خلفها دغل، ثم جالت بنظرها فجلب انتباهها نور خافت في الأعلى فولجت إلى الدغل، و اختارت شجرة كثيفة كالعادة لتختبئ بين أغصانها و تنال قسطا من الراحة، نظرت إلى السماء فلم تر غير نجمة واحدة حيث غادرت اغلب النجمات لتفسح المجال لنهار جديد و حياة جديدة صعبة و قاسية على حسناء ابنة القصور و أميرة البلاد المتألّقة، لكنّها قرّرت أن تصمد و تواجه مصيرها بكلّ شجاعة و جرأة، و هي خصال استمدّتها من حياة الأمراء التي كانت تعيشها حيث لم يمنعها الدلال و البذخ من أن تكون امرأة صلبة، انتظرت شروق الشمس لتراقب حركة الناس في المكان الجديد، الذي ستسكنه فلم تلاحظ أي حركة، فقد كان المكان هادئا حالما، فشعرت ببعض الاطمئنان فأسلمت نفسها للنوم لتريح جسدها المنهك.

مرّت الأيام و الليالي على حسناء ثقيلة و صعبة، وهي التي كانت أميرة و حاكمة بأمرها في ملك والدها، وهي التي كانت المدلّلة و الجميلة و الحكيمة و المشعّة و المتعلمة و المهذبة و الطيبة و الحنون العاشقة، و هي التي كانت تشير لكل ما تريده بأصابعها

فيكون بين يديها، و هي التي كانت تلبس الأفخم و الأجمل، و هي التي كانت تلبس بكل الألوان و تأكل أشهى الطعام ، تجد نفسها في أوهن حال و قد فقدت أشياء كثيرة ، الحبيب و الأهل و السلطة و القصور، لكن المهم أنها أخذت من حياة الأمراء و السلاطين القوة و الجرأة و الشجاعة و الذكاء، فقد كان والدها حريصا على تعليمها و تثقيفها و تمكينها من فنون القتال و الرماية و الفروسية و حتى قيادة المعارك، ربّما لأنه كان يرغب في أن يوليها ملكه أو تزويجها من أمير مقتدر قادر على صون ملكها، و هذا ما ساعدها على تحمل الصعاب و البقاء على قيد الحياة في غابة مترامية الأطراف لمدة طويلة متخفية بين أغصان الأشجار و تقتات من بعض النباتات و من صيد الطيور، لكن لا يمكن لهذا الوضع أن يستمر و لا بدّ لها من حياة كريمة، لأنّها اختارت الحياة، و لأن الحب وحده هو الذي أعطاها الأمل لكي لا تهرب مع أسرتها نحو الانتحار، و من أجل الحب عليها أن تتمسك بالحياة بكل ما فيها من تعب و شقاء فالحياة جمالها لا يكمن فقط في الترف و اللهو بل أيضا في التعب و المعاناة فالإنسان عليه أن يكدح و يناضل من أجل لقمة العيش و أن يشعر بالشبع بعد الجوع و بالارتواء بعد الظمأ، كل هذه الأفكار و الهواجس كانت تجول بخاطر حسناء كلّما حلّ الظلام و همّت بالنوم، و هي أفكار أرهقتها و جعلتها تبحث عن مخرج من وضعها حبيسة الغابة فهي اختارت الحياة لتعيش مع الناس لا أن تعيش في الغابة كالوحوش، فخطر ببالها أن تستطلع ذلك الكوخ الذي لمحت فيه بصيص نور لما وصلت أول مرة للغابة، فاقتربت منه قدر استطاعتها و ظلت تراقبه من وسط ذلك الدغل بجانب بركة الماء، كان الكوخ في مكان مرتفع ملتصق بحاشية الغابة، و أمامه حقل صغير و مرعى

،و منحدر فسيح تملؤه بقايا أعشاب جافة، كان يخرج من ذلك الكوخ كل يوم عند بداية الظهيرة شاب في مقتبل العمر، ليأخذ أبقاره الذين ينزلون بدورهم من الغابة و يوصلهم إلى بركة الماء ليشربوا ثم يعيدهم إلى الزريبة و يرجع هو إلى الكوخ و لا يخرج منه إلا في اليوم الموالي. مرّت عدة أيام و حسناء تراقب ذلك الكوخ وذلك الشاب لكن لا شيء جديد حيث كلّ شيء يتكرّر كل يوم بكلّ التفاصيل، لكن مع ذلك ظلت تفكر في طريقة تدخل بها حياته حتى تضمن لنفسها الحياة في أمان رغم يقينها أنّ الحياة في هذا الكوخ و مع هذا الشاب و أهله ،إن وجدوا، ستكون صعبة و متعبة فهي مجبرة على ذلك فالأمان أهم من السعادة بالنسبة لها، و هي تشعر بأنها ودعت السعادة بتوديعها لحبيبها فراس. بعد تفكير طويل و مضن قرّرت أن يكون دخولها لحياة هذا الشاب بطريقة غير عادية، حيث يجب أن تكون مخيفة بالنسبة له و غريبة الأطوار، لأنها تخاف ان هي ذهبت إليه بشكل طبيعي كامرأة عادية سيستضعفها و يفتك منها مجوهراتها و ربما يعتدي عليها و يعذبها، و ربما يكتشف حقيقتها فينقم عليها، و في أحد الأيام لما أنزل ذلك الشاب بقراته ليسقيهم قفزت حسناء وسطهم برشاقة و بدأت تشرب الماء مثلهم مباشرة من البركة دون استعمال يديها و تقوم بحركات غريبة ثمّ تسللت إلى الدغل القريب و هربت منه بين الأشجار و أصدرت أصوات غريبة، و راحت تكرّر هذه الحركات كلّ يوم و لم يعد الشاب يطاردها بعدما يئس من مطاردتها ولاحظت أنّه بدأ يحتار في أمرها، فصارت ترعى مع الأبقار و تتظاهر بأنها تأكل الأعشاب و أوراق الشجيرات مثلهم ثمّ صارت تدخل معهم إلى الزريبة و اتخذت ركنا تنام معهم فيه حيث شعرت معهم بالأمان و الطمأنينة

و دفنت في نفس الركن كنزها الذي تحمله في صرتها و اطمأنت عليه، فالكنز تحت حوافر الأبقار أفضل من أن يكون تحت أقدام البشر، كان ذلك الشاب يتحاشى أن يقترب منها، و فهمت حسناء من تصرفاته أنه صار يخاف منها و يهابها فهي تدرك أنّ شاب مثله يعيش في مكان معزول ربما تسيطر على عقله الخرافة و الأساطير، و بالتالي لا مجال عنده للتفكير في الأمور كما يراها و كما تدركها حواسه، و بمرور الأيام شعرت بالأمان و ظلّت تراقب ذلك الشاب و تكتشفه شيئا فشيئا، كان يقضي كلّ يومه في البيت يصنع بعض الأشياء البسيطة و يحضر علف البقرات، و يعتني ببعض المحاصيل المخزنة داخل الكوخ، و ذات يوم اكتشفت اسمه حيث سمعت صوت متقطع و خافت لامرأة واهنة تناديه باسم جهاد و ما إن سمع الصوت حتى هرع إلى داخل غرفة بجانب الكوخ من جهة الغابة فبقى لبرهة من الزمن ثم خرج ليواصل أعماله، بعد ذلك اليوم ظلّت حسناء تركز سمعها جيدا، فاكتشفت أن تلك الحادثة تتكرر دائما، لكن ليس بشكل منتظم، و مع ذلك قررت أن تتسلل إلى تلك الغرفة لترى صاحبة الصوت المجروح، فاستغلت خروجه لأخذ البقرات للبركة لتقوم بذلك فوجدت في الغرفة امرأة عجوز مستلقية على فراش بال ووجهها مصفر تكسوه القروح و يداها مرتعشة، و تتنفس بصعوبة و بالكاد تتكلّم و يبدوا أن الشاب جهاد ابنها إنما يجاهد من أجل إبقائها على قيد الحياة ، صدمت حسناء من هول المعانات التي يمكن للإنسان أن يتعرض لها، كما فوجئت بالطاقة و القوة التي يتمتع بها الشاب جهاد الذي يكافح من أجل العناية بوالدته و التخفيف من آلامها، كما لمحت في عيون والدته نظرات أمل و في وجهها ابتسامة خامدة قد تكون هي سرّ حب جهاد للحياة و إقباله عليها رغم التعب و الألم،

فقرّرت منذ ذلك اليوم أن تساعدهما ، و بدأت كلّ يوم تأخذ البقرات إلى المرعى و تظلّ معهم و تأخذهم في الظهيرة إلى بركة الماء و تعيدهم كل مساء إلى الزريبة و تحكم غلقها و تنام معهم في الركن الذي اختارته مستقرا لها، أما جهاد فقد اطمأن لها رغم خوفه من كونها جنية أو ساحرة مجنونة لكنه قبل بتدخلها لأنه مضطر فهو مطالب بأن يكون في كل لحظة بجانب والدته المريضة، و هكذا تمكنت حسناء في حياتها الجديدة من القيام بعمل لفائدة إنسان، فشعرت بالارتياح و تأقلمت مع حياة الأبقار و صارت تجيد رعيهم و العناية بهم و معرفة احتياجاتهم، و تتغذّى من لبنهم، و بمرور الأيام نالت ثقة الشاب جهاد الذي ترك لها شأن العناية بالأبقار دون أن يكلمها أو يقترب منها.

من بين المهارات و العلوم التي تعلمتها حسناء في قصر والدها كان الطب و خلط الأعشاب و النباتات، و تعلمت ذلك على يد أمهر الأطباء الذين كان يجلبهم والدها السلطان و يغدق عليهم الكثير من المال، و لما رأت حسناء الحالة التي عليها والدة جهاد و رأت تدهورها كلّ يوم، و عجز ابنها عن علاجها، شعرت أنه من واجبها أن تعالجها ، و ذات يوم استغلت غياب جهاد عن البيت لقضاء بعض الشؤون فدخلت على والدته لتفحصها و تفهم سبب آلامها و قروحها ثم خرجت قبل عودته، و لما خرجت في مساء ذلك اليوم إلى الغابة مع الأبقار، جمعت كل ما تحتاج إليه و حضرت الأدوية و الزيوت، و رجعت إلى الزريبة مع الأبقار، و بعد ذلك اليوم صارت كل يوم تدخل على العجوز مباشرة بعد خروج جهاد من عندها و تقوم بدهن وجهها المليء بالقروح و تناولها بعض الزيوت و الأعشاب و تنصرف، وقتها كان هو يراقبها بحذر و

الخوف يملأ قلبه، لكنه كان دائما يراقب ما تقوم به من بعيد بخوف و وجل، فهو يرى أنها كائن غير عادي، و بمرور الأيام بدأت العجوز تتعافى و بدأت القروح تجف تدريجيا، و شعرت حسناء بالارتياح و بفرحة غامرة، أما جهاد فقد زادت ثقته في حسناء لكن في الآن ذاته زاد خوفه منها و كأنه بدأ يتأكد من أنها جنية أو ساحرة، و قد سمعته حسناء يهمس لوالدته في إحدى المرات، وهي ذاهبة لغرفتها لتعالجها، و يقول لها أنها روح البقرة الحمراء التي أكلها الذئب قد تحولت في صورة امرأة و جاءت لتزرع في كوخهم الصغير البهجة و الحياة بعدما كاد يملؤه الحزن و الموت، وقتها شعرت حسناء بالطمأنينة و الأمان و تأكدت من أن جهاد سوف لن يمسها بسوء و أنها ستبقى سرّا بالنسبة له و لوالدته و لن يخبرا أحدا عنها، لكنها أحيانا لما تخلد للنوم بعد يوم مضن ترعى فيه الأبقار و تعتني بوالدة جهاد، تتدفق إلى ذهنها العديد من الذكريات و الهموم، و تشعر بالتعب و الملل من حياتها بهذا الشكل، و تحدوها رغبة في التغيير، و تبقى دائما تفكر في مخرج من وضعيتها بين الأبقار، و بينما كانت تهيئ نفسها للنوم في إحدى الليالي، سمعت جلبة بين الأبقار فتأهبت في مكانها تحسّبا لأي خطر، و عندما رأت جهاد قادما في اتجاهها تنفست الصعداء و مع ذلك ظلت تنظر إليه بحدة و جرأة حتى تحافظ على هيبتها و غموضها أمامه، فاقترب منها بحذر حاملا معه فراشا قديما و طبقا من الطعام يبدو أنه طعام دسم و شهيّ على غير العادة، تملكه في البداية خجل شديد ثم نظر إليها نظرة فيها الكثير من الطيبة و الحنان و ابتسم ابتسامة كادت حسناء تفقد معها هيبتها و غموضها لكنها تمالكت نفسها و

قامت ببعض الحركات الغريبة لتعيد لجهاد وجله و خوفه، فوضع الطبق و الفراش على الأرض و قال:

– يا سيدتي هذا الفراش لك افترشيه، فهو يقيك من الحشرات، و من البرد، و هذا الطعام أعددته تكريما لك على ما قدمته من أجل أمي و من أجلي و من أجل بقراتي.

ظلّت حسناء صامتة في ركنها و ضمت ركبتيها إلى صدرها و زادت في انزوائها و كأنها تبحث خلفها عن حفرة تدفن فيها جسدها، فتقهقر جهاد إلى الخلف و أخذ يتمتم ثم انصرف بخطى مرتعشة و أحكم إغلاق الزريبة بعدما اطمأن على الأبقار و جمع اللبن في أواني، فافترشت حسناء ذلك الفراش و التهمت الطعام بنهم، ثم استلقت و عادت للتفكير في الخروج من وضعها الحالي بما فيه من راحة و أمان وسط القطيع، فهي لم تخلق لتعيش مع القطيع، لأنها رفضت الموت مع أهلها و اختارت الحياة، و الحياة لا معنى لها بلا حرية، مهما كانت المعانات و التعب و الألم الذي سينجر عن الحرية، خاطبت حسناء نفسها بصوت عال قائلة:

– يجب أن أتحرّر....عليّ أن أتحرّر....و ألتقي حبيبي فراس...

ثم خلدت للنوم

أفاقت حسناء من نومها بعدما عاشت ليلة مليئة بالذكريات و الأحلام الجميلة، و بعدما تناولت عشاءا لذيذا، فتحت الزريبة كعادتها كي تخرج البقرات و ما ان خرجت حتى وجدت جهاد ينهر الأبقار و يحشرهم بسرعة في اتجاه الغابة ساعدته على إيصالهم إلى الغابة، و لمّا وصلت للغابة لاحظت استعجاله في العودة للبيت فبقيت مشغولة

وتفكّر في سبب ذلك الاستعجال، ثم جمعت الأبقار في مكان آمن و أحاطتهم بجذوع الأشجار كي لا يبتعدوا، و تسللت متخفية إلى أن اقتربت من بيت جهاد و ظلت تختلس النظر من خلف الزريبة فرأت حشدا من الناس يصعدون في اتجاه البيت، و لمّا اقتربوا عرفت من لباسهم أنهم حرس السلطان، و كانت معهم عربة محملة بالمحاصيل الزراعية، استغربت و انتابها شعور بالخوف و الريبة فقد يكونوا جاؤوا بحثا عنها، و مع ذلك لم تفكر في الهروب بل فكّرت في معرفة سبب وجودهم، لمحت جهاد يقترب منهم و هم يدفعونه و يتحدثون معه بحدة و حزم إلى أن وصلوا إلى ساحة البيت و صارت أصواتهم واضحة و مسموعة حيث سمعت قائدهم يقول مخاطبا جهاد:

– البلاد لم يتغير فيها شيء، سقط السلطان و نحن بقينا نحكم، فقط هناك إجراءات جديدة و عليك أنت كمزارع أن تتأقلم معها، و من أجل بقاء البلد و الوطن عليك أن تدفع الإتاوة على أبقارك و زراعتك، مع العلم أننا غيرنا في معيار الإتاوة حتى تتناسب مع ما ينتجه كل مزارع.

التفتت حسناء حيث جهاد لترى ردّة فعله فلاحظت توتره ثم صاح فيهم صيحة فيها الكثير من الخوف و شيء من الجرأة و قال:

– ماذا أنتج أنا أكثر من بقراتي التي أعيل منها والدتي المريضة.....ثمّ من أنتم؟

رفع أحد الحراس سلاحه في وجه جهاد فاقترب قائدهم ليصده، ثم وضع يده على كتف جهاد و خطى معه بضع خطوات و خاطبه بهدوء قائلا:

– أخي جهاد، لنا أعين في كل مكان و في كلّ شبر من هته المزارع و الحقول و نعرف كم تملك من البقرات و نعرف وضع والدتك الذي تحسن بعدما عالجتها جنية و نعرف أنك خبأت البقرات في الغابة، و أنك منذ مدة قد حصدت كمية من البقول، سأعطيك ورقة عليها ختم قائد حرس السلطان الحاكم الفعلي لهذا الوطن و فيها لائحة الأشياء التي ستدفعها لنا كإتاوة، و بفضلها يمكنك التمتع بالحماية و بكل ما توفره البلاد من أطعمة و أدوية، و يمكنك أن تدخل أسواق المدينة بحرية، و تمارس فيها ما شئت من اللهو و التجارة، و يمكن ان تسكن فيها ان شئت و تتخلص من الأبقار و تشتغل شغلا مريحا، كما يمكنك ان شئت أن تكون معنا كجندي من جنود حرس السلطان و تحمي البلاد من المجرمين و المنحرفين و الخونة، و تنال شرف حمل أزيائنا المهيبة.

سمعت حسناء جيدا خطبة قائد الحرس حيث كانا هو و جهاد قريبين منها فشعرت بالخوف و الشك، لكن ما جعلها تطمئن هو أنّ الجاسوس الذي عرف بوجودها في بيت جهاد هو الآخر يظن أنها جنية و بالتالي ان شاع الخبر فسيشاع على أساس أنها جنية و بالتالي سيهابها الناس، عمّ الصمت في المكان و ترك القائد جهاد واقفا متسمرا في مكانه يفكّر أما حسناء فانتابها بعض الحزن على حال البلاد التي كان يحكمها والدها بالخديعة و بالسطو على ممتلكات الناس و اضطهادهم، ثم انتحر و تركها في قبضة حرسه الذين كانوا يحكمون و يجورون باسمه، و صاروا يجورون باسم حماية الوطن، في حين أنه كان يفترض أن يقاوموا الغزاة من بلاد "الوسا" الذين غزوا البلاد هم أيضا تحت مسميات و عناوين مشابهة كالحماية و تحقيق الأمن، ظلت هذه

الأفكار والهواجس تنقر رأسها كما الحجارة، و في تلك الأثناء تحرك جهاد نحو حرس السلطان فأصغت له جيدا لتسمعه يجيبهم بهدوء و كأنه قد استردّ أنفاسه و تجاوز خوفه، حيث قال:

– لا وطن لي سوى هذه الأرض التي أزرعها و بقراتي و أمي المريضة، و أنا لا أستطيع أن أتنفس خارج هذه الأرض، و الوطن الذي تتحدث عنه سأدفع له الإتاوة و ذلك واجبي، و أنتم ان شئتم أن تقدموا لي حقوقي باسم الوطن كما تسلبونني باسمه منذ زمن بعيد، فأنا ممتن لكم كثيرا و أرجوا أن تتلون عليا ما هو مكتوب على اللائحة لأنني لا أجيد القراءة.

ابتسم القائد ابتسامة صفراء ثم فتح الورقتين برشاقة و قال:

– هما ورقتان متشابهتان تحتفظ بواحدة و نأخذ نحن الأخرى، لو ذهبت معنا إلى المدينة ستتعلم القراءة و الكتابة، أنت عليك بدفع ثلاثة عجول و سبعة بقرات يافعات، و كيس من كل نوع من البقول، و الأكياس سنقدمها لك فارغة لتعيّر بها، أنا متأكد من ملامحك أنك مستغرب من المقدار الذي حددناه، لكن تأكد أننا لم نظلمك مقارنة بباقي المزارعين، و هذا التعيير يحدث لأول مرّة في بلادنا، و لكي تثق فينا اجلب البقرات من الغابة كي نحصيهم أمامك و نحدد ما عليك دفعه بطريقة عادلة.

لما سمعت حسناء كلمات القائد هرعت مسرعة نحو الغابة و أخرجت شطر الأبقار، و تركت الشطر الآخر في نفس المكان و بقيت على حاشية الغابة ترصد ما سيحدث، اقترب جهاد من البقرات و هو يرتعش و ترك القائد يعدهم ثم قال له:

– هذا كل ما أملك لقد أكل المرض منهم و أكل الذئب أيضا، خذ ما شئت أيها الزعيم خذ الأسمن و الأجمل، اسمح لي أن أسألك، ماذا يحدث في المدينة؟ ما هي الأخبار؟

رفع القائد كتفيه و وضع يديه خلف ظهره و راح يتحرك بخطوات متوازنة كلّها غرور و كبرياء، ثم أشار برأسه لأحد مساعديه بأن يعد الأبقار و يأخذ منهم الإتاوة، و مع حركاته بدأ جهاد يتنفس الصعداء، و يستعيد توازنه، و بقي يتبع خطوات القائد تقربا و مجاملة وقتها اكتشفت حسناء أن جهاد ذلك الشاب الذي تبدو عليه البساطة و السذاجة، إنما هو شخص حكيم و رصين، حيث عرف كيف يخرج من المأزق و يتخلص من بطش حرس السلطان و جبروتهم ببعض المجاملات. توقف القائد فجأة و نفخ صدره و رفع رأسه إلى الفضاء ثم أطلق قهقهة مستفزة و التفت إلى جهاد و قال:

– مسكين الذئب، تحملونه كل ذنوبكم و أخطائكم، كن حذرا أيها الشاب، قد نعود إليك مرة أخرى، قائدنا حسم كل شيء، لقد أنقذنا البلاد من فوضى و من دماء، لقد هرب السلطان الجائر هو و أسرته و لا أحد يعلم مكانهم، أما فراس حبيب ابنته حسناء فقد فر مع قافلة تجارية إلى بلاد "الوسا" و قد وفرنا لوالديه ملاذا آمنا، و شقيقته في قصر قائدنا السلطان الجديد، أما المدينة فقد عاد لها الهدوء و الاستقرار، و نحن فداء لهذا الوطن سنحرق كل يد تحاول النيل منه، فنحن حماة الديار.

كان جهاد يتظاهر بالاهتمام بكلام القائد و يومئ برأسه مع كل جملة يقولها ثم ميل رأسه كطفل صغير و طرح عليه السؤال:

– ما معنى حماة الديار؟ أي ديار؟

ابتسم القائد بثقة و صافحه قائلا:

– هذه أمور لا تفهمها أيها القروي، تنتظرنا أمور أكثر أهمية من الثرثرة معك.

أخذوا بضاعتهم و انصرفوا و بقي جهاد في مكانه يراقبهم إلى أن اختفوا و بدأ يصيح غاضبا منهم و ينعتهم بأبشع النعوت و يقول بأن لا فرق بينهم و بين اللصوص و قطاع الطرق، و يشكر الجنية على ما قامت به و يعد بتكريمها، انسحبت حسناء متخفية في اتجاه الغابة تجري مسرعة بين الأشجار و الأشواك، دون أن تشعر أين تطأ أقدامها، فهي كانت تفكر في ما قاله حرس السلطان عن فراس الذي اشتاقت إليه منذ أول لحظة ودعته فيها و زاد شوقها له بعدما تأكدت من رحيله بعيدا، شعرت بالندم على فراقه، و تمنت لو أنها بقيت برفقته و عاشت معه حياة لذيذة و متعبة كحياة جهاد و والدته، جمعت البقرات و أخرجتهم من الغابة و جلست بجانب شجرة لتذرف بعض الدموع من أجل حبيبها فراس.

مرّ زمن و حسناء تعيش مع الأبقار و مع جهاد و والدته، و قد ساهمت في تغيير حياتهم و جعلتها أجمل و أطيب، و قد ذاع صيتها بين القرويين الذين ظنّوا أن في بيت جهاد جنية، و صاروا يلتجئون إليها للعلاج و البحث عمّا يطمئن قلوبهم، و صار بيت جهاد مقصدا لأغلب القرويين و المزارعين، و قد كان يروج بينهم أنها من روح بقرة حمراء كان يحبها جهاد و والدته و أكلها الذئب في إحدى ليالي الشتاء القاسية، أما جهاد فقد كان سعيدا بشفاء والدته التي كانت بدورها سعيدة و تشعر بشيء من

الفخر ببيتها المبارك و بالجنية التي عوضت بقرتها الغالية. بعد اقتناعه بأن حسناء لا يمكنها أن تعيش بعيدا عن الأبقار هيأ لها مخدعا داخل الزريبة و وفر لها كل مستلزماتها من طعام و أغطية، و هكذا استطاعت أن تحافظ على حياتها و أن تقدّم معروفا للناس، و تقدم لهم أملا في حياة أفضل، و هو ما لم تكن قادرة على تقديمه لما كانت أميرة في قصر والدها، لكنها كعادتها دائما تفكر في تغيير وضعها، و تفكر أيضا في العودة إلى المدينة، كما أن شهرتها قد تتجاوز القرية و ربما يأتي شخص يعرف ملامحها فيكتشف أمرها، و تتعرض للأذى و بالتالي عليها أن تخفي ملامحها، تبادر إلى ذهنها أن تغطي وجهها برداء، ثم تراجعت فالرداء قد يجبرها الحراس في المدينة على نزعه، و بعد تفكير طويل توصلت إلى طريقة تتناسب مع ما يشاع عنها بكونها جنية من روح بقرة حمراء، حيث قررت أن تصنع قناع من جلد البقر، و بعد أيام تحصلت على جلد لونه أحمر، و نظفته جيدا و دبغته ببعض الأدوية كي لا يؤذي وجهها، ثم قصّت منه قناعا يغطي الجزء العلوي من وجهها و قد حافظت على الفرو الخارجي للقناع و لما لبسته بدا لها شكل وجهها يوحي بأنها من البقر، حفظته في كيس نظيف وخبأته مع كنزها ثم أتلفت باقي الجلد، و واصلت حياتها بشكل عادي تبحث عن فرصة تظهر فيها أمام الناس بالقناع. بعدما تعودت حسناء على استقبال القرويين صارت تتعرف من خلال محاورتهم على مختلف عاداتهم و تقاليدهم و مشاغلهم و اهتماماتهم، و لما اقترب فصل الخريف جلب انتباهها حديث الناس عن صخرة الماء، وهي صخرة كبيرة ترسوا على ضفة واد صغير يمر من تحتها مسلك ضيق، و الصخرة كما وصفوها لها شكلها يوحي بأنها آيلة للسقوط لكنها ترفض ذلك رأفة بمن يمرون تحتها و في قمتها

حوض صغير يمتلئ بالماء كلما نزلت المطر، و قد تعود القرويين على ذبح بقرة في أسفلها كل خريف ثم يلطخون أيديهم بدمائها و يلمسون الصخرة تاركين آثار أصابعهم عليها، ثم يتقاسمون اللحم و يأكلونه و يبيتون قربها منتظرين نزول المطر. فهمت حسناء أن كلما يقومون به انما هو طلب للمطر من صخرة الماء، و فهمت أيضا أن للصخرة مكانة هامة في قلوب الناس، و منذ أن عرفت تلك القصة المثيرة صارت تسأل كلّ يوم عن موعد الاحتفال و جهزت بعض العقاقير التي تثير دخانا كثيفا عند حرقها و عدة أدوية و عقاقير قد تحتاجها و خبأت كل شيء في نفس الكيس مع القناع ظلت تنتظر الموعد لتنفيذ خطتها.

في إحدى الأمسيات قال أحد القرويين لحسناء أن موعد الاحتفال بصخرة الماء سيكون في اليوم الموالي فطلبت من جهاد أن يأخذها في الصباح الباكر إلى هناك، فوافق على طلبها و في اليوم الموالي اصطحبها مع والدته حيث وصلوا قرب الصخرة قبل الجميع، و مع شروق الشمس بدأ الناس يتجمعون أسفل الصخرة و قد تفاجأ بعضهم بوجود حسناء فاتخذت مكانا بعيدا عنهم و حفرت حفرة صغيرة دفنت فيها القناع، و أشعلت فوقها النار، كان الناس ينظرون إليها بوجل و خوف و رغم وجودها واصلو نشاطهم بشكل طبيعي، حيث يقومون ببعض الحركات و يرددون بعض الأصوات، و كأنها طقوس خاصّة بتلك المناسبة، و قبيل الظهيرة حلّ بالمكان جمع من المزارعين يبدو أنهم من الأعيان و يحضون بوجاهة لدى الناس، و خلفهم خادم يجر بقرة يافعة حمراء جميلة و سمينة مكتنزة اللحم، و تواصلت الاحتفالات و حضي الأعيان و البقرة بحفاوة كبيرة، بدأت الحرارة تشتد، نظرت حسناء إلى الأفق، فلاحظت

الشمس في كبد السماء و لا وجود للغيوم فاستبشرت بذلك لأن الأمور تسير في صالحها، بدأت بعض الأهازيج تتعالى و صعد شيخ إلى أعلى الصخرة و في يده إناء مملوء بالماء سكبه في الحوض و أشار للناس فصمتوا و انتبهوا له ليبدأ يخطب فيهم قائلا:

– أيها الناس الطيّبون الرائعون، أيها المكافحون في الجبال و السهول و الأحراش، أيها المزارعون اليوم حان موعد منح هديتنا الموسمية لهذه الصخرة الطيبة المباركة، سنهديها أجمل بقرة و نملأ هذا الحوض المبارك بماء النهر حتى يتدفق الماء في تجاويفها و تجاعيدها عند نزول الأمطار فهي التي ستطلب المطر من السماء بدلا عنا كي يمتلئ حوضها،ستخضر الأرض و الزرع و سيركض أولادنا خلف الفراشات، و ستأكل مواشينا عشبا غضا طريا، و سيتدفق الماء صافيا رقراقا في هذه الأودية المحيطة بنا و سيمتلئ النهر و البحيرات و حتى المستنقعات بالماء اللذيذ، و سنشرب ماءا عذبا، و نسقي أرضنا و أشجارنا، سنغتسل بالماء حتى نشفى من أمراضنا و نزيل الأوساخ و الأدران و القروح عن أجسادنا و نزيل الهم عن أرواحنا، هيا اقتربوا من الصخرة و أفسحوا المجال للجزار كي يذبح أجمل بقرة لنقدم روحها الطيبة لهذه الصخرة المباركة، سيأخذ كل فرد حضر هنا قطعة من لحمها ليأكلها قبل نزول الأمطار، و كالعادة سنضع قليلا من العشب في فمها و نترك رأسها معلقا هنا في أعلى الصخرة.

عمّ السكون في المكان و كأن الجميع تجمدوا في أماكنهم عدا الشيخ الذي أخذ يقوم بحركات و يقول كلاما غريبا، في تلك الأثناء حسناء كانت مندهشة و في الآن ذاته كانت تراقب السماء، و لمّا تأكدت من انعدام الغيوم، قرّرت أن تبدأ في تنفيذ

خطتها، و استغلّت الصمت و الهدوء الذي ساد المكان لتنشر العقاقير التي بحوزتها فوق النار فثار دخان كثيف فشكلت أعمدة الدخان المتصاعدة ستارا يخفيها عن أنظار الناس المجتمعين قرب الصخرة، فسحبت القناع بخفة من الحفرة و لبسته ثم اجتازت الدخان و ظهرت لهم بوجهها الجديد و بدأت تصيح فيهم و تقول:

– اذبحوني أنا، أنا بقرة أجمل من هذه التي ستقدمونها للصخرة.

اتجهت كل الأنظار نحوها، و بهت الجميع لبرهة من الزمن ثم بدأت ترتفع جلبة خفيفة بينهم و راحوا يتهامسون و الحيرة بادية على وجوههم، أما الشيخ فبقي متجمدا في مكانه في أعلى الصخرة و لم يتفوه بأي كلمة، فهمت من أصواتهم و إشاراتهم أنهم تأكدوا من أنها جنية من روح بقرة، حيث سمعت صوت طفل صغير يقول بصوت واضح بأنها بقرة في هيأة امرأة، و طفل آخر يرد عليه و يقول أنها امرأة بوجه بقرة، هرع جهاد نحوها محاولا منع الناس من الاقتراب منها و من ذبحها و طلب منهم أن يذبحوه معها ان قرروا ذلك فلحقت به والدته مذعورة و صاحت قائلة:

– يا بني لا تقربها ستصيبك اللعنة ، اتركها و شأنها فهي تحدت عادات القرية فلتتحمل مسؤوليتها.

احتضن جهاد حسناء و التفت إلى والدته و قال:

– لن أتركها، لن أتخلى عنها فهي التي أعادت الحياة لك و لبقراتنا و لحقلنا، و هي التي أنقذتك من الموت و أنقذتني من الضياع.

تخلصت حسناء من بين يدي جهاد ثم صاحت صيحة تشبه خوار الأبقار و أعادت نثر العقاقير في النار بخفة ليزداد الدخان كثافة و يزداد الناس دهشة و انبهارا بهذه القدرات الخارقة التي تتمتع بها المرأة البقرة، تقهقر كل الناس إلى الخلف، و ظلوا يحدقون فيها في صمت، وقتها صاح الشيخ من أعلى بصوت مرتعش فهو الوحيد الذي يعي جيدا خطورة الموقف على حياته و رزقه حيث يرتزق من الصخرة و من هبات الناس له بحكم أنه المكلف بالصخرة، فقال :

– أيها الناس، لن تثنينا الحركات الغريبة لهذه البقرة المرأة أو الجنية عن تقديم هديتنا لصخرة الماء، التي تهدينا الماء كل عام، هيا اذبحوا البقرة و لا يحق لأحد مهما كان شأنه أن يتدخل في معتقداتنا و في ما يختلج صدورنا.

نزل الشيخ من أعلى الصخرة و رغم الدهشة و الحيرة البادية على ملامح الناس فقد تواصلت مراسم الاحتفال و تم ذبح البقرة و شرعوا في تفريق اللحم، أما حسناء فبعدما جالت بنظرها في الأفق و تأكدت من غياب السحب صعدت فوق الصخرة و قالت:

– أيها الناس أنتم اليوم تحديتموني و تركتم هذا الشيخ يمارس إرادته عليكم رغم أني قبلت التضحية بنفسي من أجل أبقاركم التي هي مورد رزقكم، فكم بقرة ستذبحون من أرزاق الفقراء و الكادحين تحت هذه الصخرة؟ و كم من طفل سيجوع و سيمرض لما تأخذوا من والده رزقه و بقرته؟ ما علاقة هذه الصخرة بالماء؟ فالماء ينزل من السماء تأتي به الغيوم من بعيد. لماذا لا تصغون إلي و أنا التي كنت دائما إلى جانبكم و ساعدتكم في حل مشاكلكم و علاجكم.

صاح أحدهم قائلا:

– ارحلي عنّا لا نريد علاجك، أنت جنية ساحرة.

حافظت حسناء على هدوئها و أجابته قائلة:

– العلاج و حل المشاكل لا يكون بالسحر، انما بالعقل، أيها المزارعون الطيبون، أنصتوا إليّ جيدا ها قد ضحيتم ببقرة لهذه الصخرة سأنتظر معكم و سأتحداكم ان نزلت الأمطار، سوف لن تنزل اليوم و لا غدا.

تعالت صيحات الناس و أخذوا يتدافعون محاولين الصعود إلى الصخرة و يرمون حسناء بالحجارة و يشتمونها، و يصفونها بالمارقة فتصدى لهم الشيخ و طلب منم أن يقبلوا التحدي و ينتظروا معها، فنزلت و جلست في مكانها قرب النار، و سمعت من الناس الكثير من الشتائم و التشكيك لكنها بقيت صامدة و حافظت على هدوئها و ظلت تراقب السماء في خوف و وجل و هو خوف من أن تأتي غيمة فتفسد خطتها و ربما تتسبب في احتقارها من قبل الناس الذين قد يدوسونها بأقدامهم؟ حلّ المساء و لم يقترب منها أحد عدى جهاد الذي جلب لها بعض الطعام، فأمرته بأن يختار أجمل بقرة في قطيعه و يجلبها لها، و لما أحضر جهاد البقرة منحتها أمام ذهول الجميع إلى صاحب البقرة التي تم ذبحها ففرح كثيرا و انسحب، و بدأ ينسحب معه بعض المتعاطفين معه. حلّ الظلام و حسناء مكوّمة في مكانها و لم تنزل المطر و الجميع في حالة ترقب و انتظار، و طلع القمر باكرا و عيناها معلقة في السماء، إلى أن أشرقت الشمس بعد ليلة مضنية عليها و على باقي الناس المجتمعين أسفل الصخرة و الشيخ

الذي أخذه النعاس على قمتها، نظرت إلى النار أمامها فوجدتها خامدة فأججتها ببعض الهشيم و الحطب القريب منها و نثرت فيها العقاقير ليصعد منها الدخان مرة أخرى و بدأت تقفز قفزات رشيقة و تصيح صيحات مفزعة، مما جلب انتباه الناس إليها و استفاق كل من كان نائما، كما استفاق الشيخ النائم على قمة الصخرة و بعدما نظر إلى السماء، حيث يبدوا أنه يئس من نزول المطر قال:

– أنا سأغادر القرية و أذهب إلى مكان آخر فالصخرة قد غضبت منكم، لأنكم تصدقون هذه البقرة الجنية، عليكم أن تعتذروا على فعلتكم و تطلبوا الصفح، ستصيبكم اللعنة و تصيب أبنائكم و زرعكم و ستذهب أرزاقكم و تتبدد و سيلحقكم العار.

غادر المكان و هو يردد كلمة العار و لم يعره الناس اهتماما كبيرا، فقط حاول بعضهم من باب الشفقة إثنائه عن المغادرة لكنه أصر على الهروب، شعر الناس باليأس و الإحباط، و غادر بعضهم المكان، أما حسناء فشعرت ببعض الارتياح، لكن تدفقت إلى ذهنها العديد من الأسئلة، و ماذا ستفعل بعدما أبهرت الناس و كشفت لهم قدراتها الخارقة، هل تكتفي بذلك و تغادر هي الأخرى؟ فقد حققت غايتها و تأكدوا من أنها من روح بقرة و أن قناعها لا يمكن نزعه، نظرت إلى الناس فرأت على ملامحهم اليأس و الحزن فهم جاؤوا من أجل المطر، فالقرية و المزارع المحيطة بها تعاني من ندرة المياه، و بتفكيرها في المياه تذكرت حسناء البحيرات التي شاهدتها مع والدها ذات مرّة لما سافرت معه لإحدى البلدان، وهي بحيرات تساعد الناس على تجميع المياه في مواسم الأمطار و استغلالها في مواسم الجفاف، و بينما كانت تهمّ بمغادرة المكان و تترك أولئك المزارعين البؤساء قابعين تحت الصخرة راودتها فكرة جريئة بصفة مفاجئة

مما جعلها ترتبك و تجلس على الأرض واضعة رأسها بين كفيها، و في لحظة خاطفة و دون تردد صعدت إلى قمة الصخرة و نظرت إلى الناس الذين رفعوا رؤوسهم نحوها بحركة ثقيلة و بطيئة و بنظرات كلها حيرة و دهشة، لتخطب فيهم قائلة:

– أتفهم غضبكم، و أقدر مشاعركم، و هذه الصخرة مباركة، نعم مباركة و كل من يعتقد في بركتها و يتقرب منها فذلك شأنه و تلك حريته و لا يحق لأحد أن يمنعه، فقط عليكم أن تحترموا بعضكم و أن لا تحرموا أسرة فقيرة من رزقها من أجل أن تقدموا هدية لهذه الصخرة، علينا أيضا تحكيم العقل في مثل هذه الأمور، فالمطر كما تعلمون ينزل بكثرة في الشتاء ثم يندر نزوله في باقي الأيام و الحل يكمن في تجميع المياه المتدفق في الأودية و الجداول خلال مواسم الأمطار.

تغيرت ملامح الحاضرين و تعالى ضجيجهم و نقاشهم، بدوا مستبشرين و مبتسمين رغم أنهم لم يفهموا كثيرا ما تقوله حسناء و طرحوا عليها كثير من الأسئلة ففهمت حسناء حيرتهم فطلبت منهم أن يصغوا إليها ثم قالت:

– هناك الكثير من برك الماء وسط الغابة التي يجف بعضها في فصل الصيف و بعضها يتحول إلى مستنقع آسن ومن بين هذه البرك هناك واحدة قريبة من النهر و في مكان مناسب تصب فيه عدة جداول و مجاري، يمكنكم حفرها و توسعتها و ربطها بالنهر، ثم سدها بحواجز متينة.

صاح أحد الرجال ليقول لحسناء أن الماء اذا تجمع بكميات كبيرة قد يحطم الحواجز و يغمر القرية و المزارع القريبة، فثارت جلبة صغيرة هدأتها حسناء ببعض الحركات و الإشارات فانتبه لها الناس مرة أخرى لتجيبهم قائلة:

– سنبني أسفل الحواجز قنوات يتسرب من خلالها الماء و سنجد طريقة تمكننا من التحكم في فتح و غلق هذه القنوات.

نظرت حسناء إلى الناس فرأت على ملامحهم شيء من الحيرة و الشك، و بدأت تتعالى عبارات السخرية و الاستهجان و قتها فهمت أن خطاب العقل قد يأخذ وقتا طويلا ليقتنع به الناس، فقررت مرة أخرى أن تلجأ لأسلوب الإبهار و الخداع، فقامت بقفزات رشيقة هي فقط تجيدها لتجد نفسها قرب الموقد فأثارت فيه دخانا كثيفا، ثم سحبت من صرتها بعض العقاقير التي تساعدها على نفث النار من فمها و هي خدعة تعلمتها أيضا في قصر أبيها من قبل معلم يجيد هذه الألعاب، و لما نجحت في نفث النار من فمها صمت الجميع و أصابهم الخوف و الهلع و التحمت أجسادهم و كأنهم صاروا إنسانا واحدا و ركزوا نظراتهم الخائفة عليها فاستغلت لحظة خوفهم لتخطب فيهم مرة أخرى و تقول:

– ستصيبكم لعنتي و لعنة كل البقرات التي ذبحتموها تحت هذه الصخرة و حتى الأبقار التي أكلها الذئب، إن لم تطيعوا أوامري و تحفروا بحيرة، فأنا قد قلت لكم منذ الأمس أن المطر لن ينزل، و ها أنتم تكتشفون أن المطر لم ينزل فهلمّوا الآن نذهب إلى مكان حفر البحيرة.

أسدت حسناء أوامرها و هرعت مسرعة نحو مكان البحيرة و هي تقفز قفزات غريبة و الناس يتبعونها مسرعين إلى أن وصلوا إلى المكان فوجدوا آثار بركة قريبة من النهر و تلتقي فيها الجداول و المجاري، مثلما وصفتها لهم لكن كلها جافة ، و قبل بداية الحفر جمعتهم حسناء أمامها فقسمتهم إلى فرق عمل و وزعت عليهم المهام ثم أمرتهم ببداية الحفر و كانت هي المشرفة عليهم يأتمرون بأوامرها و كان العمل في ذلك اليوم الصعب يسير في أجواء رائعة إلى أن انقضى النهار، فأذنت لهم بالاستراحة .

مرّت أيام على بداية الحفر و البناء في أجواء حماسية و احتفالية و استعانت حسناء بجهاد الذي بفضله زاد عدد الناس المشاركين في مشروع البحيرة فشعرت بسعادة غامرة و كأنها في حلم جميل، حيث استطاعت أن تقود الناس و تقدم لهم خدمات تحسن ظروف عيشهم و هو ما لم تكن قادرة على القيام به عندما كانت أميرة في قصر أبيها السلطان الذي كان يحكم البلاد بالحديد و النار. هي لم تقدم للناس هدايا مجانية إنما ساعدتهم بالفكر و بتوجيه مجهودهم توجيها ايجابيا، لكن ما نغّص عليها فرحتها بحلمها الجميل هو شوقها لحبيبها فراس الذي تمنت أن يعيش معها هذه اللحظات الرائعة التي تشعر فيها أنها أميرة حقيقية و ليست أميرة مفروضة على الناس بسلطة أبيها و سياط حراسه الذين يعيثون في البلاد فسادا و يسلبون الناس أرزاقهم دون أن يقدموا شيئا.

بدأ جهاد يفرض نفسه في العمل و يشرف على كل الأمور و يحظى باحترام الناس و نجح في تسيير الأشغال التي بلغت شوطا هاما قبل حلول موسم الأمطار، أما حسناء فصارت تعول عليه ففضلت التقليل من ظهورها بين الناس و رجعت للاهتمام بالأبقار

و معالجة المرضى، و هكذا سارت الأمور على أحسن ما يرام، و صارت البحيرة جاهزة حيث تم حفر مساحة هامة و بناء الحواجز بإتقان بفضل عزيمة الناس و تعاونهم و جديتهم في العمل، و بمرور الوقت بدأ الطقس يتغير و صارت الأمطار تنزل بكميات قليلة و كان كل يوم تنزل فيه الأمطار يتجمع الناس قرب البحيرة ليراقبوا تراكم المياه داخلها، لكن المياه تتسرب عبر القنوات فتفرغ البحيرة بسرعة، فبدأ الشك يدب في نفوس القرويين الذين صاروا كل يوم يتجمعون حول صخرة الماء و يطلبون منها الصفح و قد استغل أعيان القرية تلك الظرف لتحريض الناس ضد مشروع البحيرة و ضد حسناء و جهاد، كما تعرض جهاد للشتم و هددوه بأن يبلغوا عنه حرس السلطان و عن نشاطات الجنية التي تقيم في بيته، فاضطر لمغادرة مكان العمل و طلب من حسناء أن تذهب بنفسها لإقناع الناس و تهدئتهم فوافقت على ذلك و كعادتها، عولت على قدراتها الخارقة في الإبهار و حركاتها الرشيقة و بعض الخدع حتى تجعل الناس يرهبونها، و نجحت في ذلك حيث انتبهوا لها و هي تخطب فيهم فقالت لهم:

– أيها المزارعون ....أيها الكادحون كنت أبحث عن الفرصة المناسبة لأشكركم و أثني على ما قدمتموه من جهد لبناء تلك البركة الكبيرة التي سيعم بفضلها الخير و الرخاء عليكم و على أبنائكم و أحفادكم لسنوات قادمة، بل لقرون قادمة، لكن ما راعني هو أنكم أمام أول عقبة شككتم في أفكاري و في وعودي و في قدرتي على مساعدتكم، و على بناء مستقبل أبنائكم، لقد ساءني ذلك كثيرا، أنتم تملكون من العقل و الفكر ما يمكنكم من أن تتعاونوا معي و ترفعوا معنوياتي لا أن تحبطوني، صحيح أن الماء لم يتجمع بكثافة في البحيرة و هذا بسبب الفجوات و القنوات التي

حفرناها في أسفل الحواجز، لكنكم نسيتم أن موسم الأمطار قد اقترب موعده، و لما تنزل المطر بغزارة سوف تمتلئ البحيرة، و كما ترون هذه الغيوم الداكنة سوف ينهمر منها المطر دون أن تقدموا أي هدية لهذه الصخرة، أمّا الفجوات و القنوات لا يجب غلقها الآن حتى لا تنهار البحيرة بل علينا أن نغلقها في أواخر موسم الأمطار حتى نحفظ المياه، الوقت يداهمنا أمامنا الكثير من العمل حتى نحصي المزارع و المنازل، و نوصل الماء للجميع، و يكن لكل مزارع و لكل أسرة نصيب من الماء في كل الأوقات و المواسم، فلنكن يدا واحدة و لنتعاون و نترك خلافاتنا جانبا و لنتصدى لكل من يحاول أن يسخر منا أو يحط من معنوياتنا، بالصدق و المحبة و الثقة سنثبت لكل من يشكك فينا أننا قادرين على فعل الخوارق، و الزمن هو الحكم بيننا فقط لا تدّخروا حبة عرق في سبيل مشروعنا، فالبحيرة ستجمعنا و ستكون مكانا لسعادتنا، و سنفرح على ضفافها، لكن لازالت أمامنا بعض العوائق لأننا لا نملك بعض المواد الضرورية لاستكمال بناء مشروعنا و تحقيق حلمنا، فنحن نحتاج بعض المعادن التي تكون خفيفة و سهلة الاستعمال و في الآن ذاته صلبة و قوية، و كما تعرفون هذه المعادن مفقودة في القرى و الأرياف و نادرة في المدينة و في البلاد كلها، و هذه المواد حكرا على السلطان و أتباعه حيث يخاف من أن تستغلها الناس في صناعة الأسلحة، و بالنظر للأخبار الواردة من المدينة فإن قوات "الوسا" هي الماسكة بشؤون الأمن و السلاح و الحرب، لكن يبقى للسلطان الجديد صلاحية في مدّنا بهذه المواد ان أقنعناه بأن غايتنا سلمية و فيها نفع للناس، و بالتالي علينا إرسال وفد ليقنع السلطان و لا أظن أنكم سترفضون جهاد كقائد لهذا الوفد، الذي يجب أن نساعده للنجاح في

مهمته، كما ساعدناه في تسيير الأشغال أثناء كل مراحل البناء، و بالتالي علينا أن نعطيه رسم لمخطط البحيرة نشرح فيه كل ما قمنا به فقد يعجب السلطان و حكام البلاد بعملنا و يأمر كلّ القرى بالنسج على منوالنا و تعم الفائدة و الآن لم يبقى أمامنا غير العمل هيّا انصرفوا الآن بنفس الفرح و بنفس الحماس.

أكملت حسناء كلامها وسط انبهار و إعجاب كبيرين من قبل الناس الذين كانوا مشدودين إليها كأطفال يسمعون حكايات جدتهم، فإضافة إلى أساليب السحر و الخداع صارت حسناء تستعمل سحر الكلام و الخطابة لإقناع الناس بكل ما تريدهم أن يفعلوه أيضا صارت قادرة على امتصاص غضبهم و شحذ عزائمهم و توجيههم، و قد واصل أغلب الناس العمل في البحيرة متضامنين مع بعضهم و في جو يسوده التفاهم و المحبة، و منهم من كان مقتنعا بخطابات حسناء، و منهم من كان يخافها و يهاب قدراتها الخارقة، و فيهم من لم يكن مقتنعا بها لكنه مجبرا على الانسياق و مسايرة الجميع خوفا من أن يتم تخوينه، أما أعيان القرية و بعض ممن تبعهم لازالوا يحاولون تيئيس الناس لكن دون جدوى.

بعد أيّام من العمل الجاد و الانتظار أفاقت القرية على صباح غائم داكن و أفاقت حسناء على صوت جهاد الذي جاء ليوقظها و يبشرها بحلول موسم الأمطار و يطلب منها أن تمشي معه إلى ضفاف البحيرة فرافقته دون تردّد حيث وصلا قبل أن يجتمع الناس، أمّا جهاد فقد نزل إلى البحيرة ليتفقد الحواجز و القنوات غير آبه بالأمطار الغزيرة و لا بالمياه المتدفقة، أمّا حسناء فقد احتمت بأغصان شجرة في هضبة مشرفة و ظلّت تراقبه بفرح و إعجاب، رغم مشاعر الخوف التي انتابتها، فهي تخاف من أن

يفشل مشروعها، أو أن يتسبب في خطر على حياة الناس و ممتلكاتهم، كما تخاف أيضا من ردة فعل الناس ان فشل المشروع فقد يكتشفون أمرها و يستضعفونها، بدأ الماء يتدفق بقوة منساب من المرتفعات المجاورة و أضفى على البحيرة لونا بنيا جميلا مشابها للون الغيوم المتلبدة في السماء، جالت حسناء بنظرها في كل الاتجاهات و كأنها تبحث عن شيء تاه عنها، فلمحت جهاد يتحرك نشيطا فنادته كي يخرج من البحيرة محذرة إياه من خطر المياه المتدفقة فلبى طلبها و صعد ليقف بقربها و أخذ يحدثها عن البحيرة و عن تفاصيل الأشغال و عدة معلومات حول الحواجز و البناء، فابتسمت و شكرته و أذنت له بالاستراحة و الجلوس ثم قالت له:

– يا جهاد أنت رجل مكافح و إنسان طيب و لهذا أنا وثقت فيك منذ أول يوم رأيت فيه وجهك الجميل، لقد أعجبني صبرك و جهادك من أجل أمك التي ضحيت بشبابك من أجلها، و لازلت أثق فيك لأنك قمت بعملك بإتقان و تفان و سأثق فيك مستقبلا و ستكون أنت صندوق أسراري و سنتعاون على خدمة الناس في بلادنا و على تغيير واقعنا نحو الأفضل، فكما ترى للإنسان قدرة كبيرة على الإبداع و العمل، فقط يحتاج إلى الأفكار و إلى كلام طيب يبعث فيه الثقة في النفس و العزيمة، الناس هنا تعودوا على نمط عيش جامد لا طعم له، كل شيء يتكرر، يزرعون الأرض و يربون المواشي و كلما جمعوا محاصيلهم يأتي حرس السلطان لأخذ الإتاوة و في مواسم الجفاف يندبون حظهم و ينتظرون المساعدات تأتيهم مجانا ثم يذهبون إلى الصخرة ليقدموا لها هدية و يطلبوا منها أن تأتيهم بالماء، و هكذا تعود دورة الحياة مرة أخرى كدورة الحياة بالنسبة للحيوانات و الزواحف لا جديد فيها سوى الموت. صديقي جهاد منذ أن

وطئت قدمي هذه الأرض أول مرّة شعرت أنها أرض معطاء و أنّ الناس فيها قادرون على الإبداع و على تطوير عيشهم و ضمان حياة أفضل لهم و لأجيالهم القادمة، و قد لمست حبهم للأرض و تشبثهم بها من خلال حديثي معهم لما يأتون لي للعلاج، حيث كنت أكتشف كل أسرارهم و خواطرهم و مشاعرهم لأنهم كانوا يبوحون لي بكلّ شيء بحكم خوفهم مني و وجلهم و هم يظنون أني جنية و أعلم عنهم كل شيء، و قد كنت أخاطبهم بكلام غامض كي أزيد دهشتهم و خوفهم مني، و رغم خداعي لهم فقد كانت النتيجة رائعة، فقد عالجت أغلب الحالات المرضية و قدمت وصفات شافية لأغلب المرضى و عالجت البعض بالكلام و النصح، فأنا قد تعلمت الطب و العلاج و تحضير الأدوية و العقاقير على يد أطباء معروفين في المدينة كما أنني سافرت إلى بلدان أخرى و تعلمت فيها الفنون و العلوم فالحياة هناك متحركة و الإنسان هناك يطلقون له العنان كي يبدع بل و يدعمونه و يثمنون مجهوده حتى ينجح و يحقق كل طموحاته فقط عليه أن يمتثل لقوانين المدينة، هناك يعطون أهمية للكتب و الأعيان يتنافسون على شراء أثمنها و كل من يكتب كتابا ينال شرفا كبيرا و مالا وفيرا، لقد اشتريت كتبا كثيرة و تعلمت منها، سأعلمك القراءة و الكتابة فأنت ذكي و موهوب، و كفاءتك في البناء و تسيير الأشغال دليل واضح على ذكائك و فطنتك...."

صمتت حسناء لبرهة من الزمن ثم تنهدت و قالت:

– تعبت من الكلام....

بقي جهاد صامتا و متجمدا في مكانه و كأن كلام حسناء قد سحره، و ظلّ ينظر إليها محاولا أن يجد ردّا على ما سمعه، لكن تاهت عنه الكلمات، فحاول أن يتحرك ربما تنحل عقدة لسانه، فسار بعض الخطوات إلى الوراء ثم التفت إلى البحيرة و قال:

– أنت جنية، أنت بقرة جنية.....لن أصدق ما تقولين، كيف خدعتني؟ و كيف خدعت أهل القرية طوال هذه المدة؟

ظلّ ينظر إلى البحيرة و ازداد المطر غزارة و هو واقف كالصخرة غير آبه بثيابه المبللة و بالمياه المنهمرة كالدموع على وجنتيه، فوقفت حسناء و اقتربت منه ثم أمسكت بيده و سحبته إلى جذع الشجرة و أجلسته كطفل صغير و نظرت حولها كي تتأكد من خلو المكان من الناس و نزعت عن وجهها القناع، و قالت:

– يا جهاد، ها أنا أمامك إنسانة عادية، و هذا القناع قد صنعته بيدي كي أخدع الناس و أرهبهم حتى يهابونني و يسمعوا كلامي و ينتبهوا لخطاباتي، فقد كنت مضطرة لفعل ذلك، ماذا تريد من امرأة في مثل ظروفي أن تفعل؟ هربت من المدينة ليلا بعدما هاجمها محاربي "الوسا" و عمت الفوضى والدي كان من أثرياء المدينة و قد فقد ثروته و هو مهدد بالتصفية من قبل قائد حرس السلطان لذلك قرر أن ينتحر و يجبر كلّ الأسرة على الانتحار أما أنا فقد أنقذت نفسي لأنني متمسّكة بالحياة، لقد عانيت كثيرا حتى وصلت إلى قريتكم و تعرفت عليكم و الحل الوحيد أمامي كي لا أتعرض للمضايقة أو الاعتداء من الناس هو أن أقوم بتلك الحركات الغريبة، أنت تعلم يا صديقي جهاد أنه في تلك الأيام العصيبة لو يعثر بعض الناس على امرأة مثلي وحيدة و ضعيفة ما قد يفعلونه بها، ها أنا أبوح لك بهذا السرّ لأني أثق فيك أولا ، و ثانيا لأنه باتت لك مكانة

خاصة في قلبي، فأنا أرى فيك الرجل الشهم ، الطيب، الجميل المثابر، الرجل المحب للحياة، الرجل الصبور، لقد كان لي حبيب تقاسمت معه أياما جميلة كنّا روحا واحدة في جسدين ترعرعنا بين البساتين و الجداول، كنا نلتقي كل يوم، نتبادل أعذب كلمات الحب و الغزل، كان يراني روحه و أمله و حياته،و كنت أرى الدنيا بعينيه كنت أعدّ أيّامي لأجله، كنت أرى الشمس و القمر و النجوم كلّها تشرق لأجله، كنت أرى الأمطار و قطرات الندى إنما تنزل لتسقي الأشجار و الزهور التي أحببنا بعضنا بقربها، كنت أمرض لمرضه و أفرح لفرحه لقد التقيت به في ليلتي الأخيرة بالمدينة و ودّعته وداعا أخيرا، تركته قرب جدول الماء الذي شهد جلّ لحظات حبنا، أظن أنه رحل بعيدا، هذا ما وعدني به. هو يشبهك كثيرا يا جهاد لكنه لا يتمتع بهدوئك و رصانتك فقد كان كثير الانفعال و لا يحسب خطواته جيدا، أتمنى أن ألتقي به و أضمّه إلى صدري و لو للحظات.

اشتد نزول الأمطار و بدأ الماء ينساب داخل البحيرة ثم يتسرب منها عبر القنوات و جهاد جامد في مكانه و ينظر في كل الاتجاهات عدى وجه حسناء ثمّ قال:

– بهذه الطريقة لن يتجمع الماء في البحيرة.

فهمت حسناء أنه كان متأثرا و أراد بحديثه عن البحيرة أن يُنسي نفسه و أن يغير محور الحديث فأجابته قائلة :

– المطر لم يمض على نزولها وقت طويل، و عندما تتدفق كميات كبيرة في مواسم الأمطار سوف تبقى البحيرة ممتلئة حتى و إن بقيت الفجوات مفتوحة، و بالتالي عليك

أن تنزل إلى المدينة و تجلب لنا المعادن التي نحتاجها في إكمال بناء البحيرة ، سأسلمك رسالة تحملها معك إلى قائد حرس السلطان، و من المؤكد سيوفر لك الحماية و سيسلمك ما تحتاجه، و أنا سأظل هنا لأعتني بوالدتك و بأبقارك، بقي سرّ واحد لم أبح به لك و هو اسمي، يمكنك منذ الآن أن تناديني حسناء لما نكون وحدنا.

تنهد جهاد و أجابها:

– و إلى متى عليّ أن أكتم كل هذه الأسرار؟ ستكون حملا ثقيلا عليّ...مما تخافين؟ لقد زال سبب خوفك فأنا سأحميك من كل مكروه قد يصيبك، و هذا أقلّ ما يجب أن أقوم به ردّا لجميلك، منذ دخولك إلى حياتي أعطيتني السعادة و أعدت لي و لوالدتي متعة الحياة و بهجتها، أنقذت ثروتي و أبقاري من حرس السلطان، أنقذت أبقاري أيضا من المرض و الموت، سأكتم هذا السرّ طوال حياتي ان كنت ترغبين في ذلك لكن أريد فقط أن أعرف لماذا تصرّين على العيش بقناع بقرة و ترتدين ثوب جنيّة ؟ فأنا أريد أن أراك حسناء امرأة حنون، عطوف تملئين حياتي بهجة و سرورا و نكون أسرة و نربي أبنائنا في رحاب هذه القرية الرائعة، وقتها سيمنحنا أبناؤنا عمرا جميلا، أظن أن ما تقومين به إنما هو وفاء لحبيبك الذي رحل، أليس كذلك؟ سأحترم قرارك و سأكتم سرّك و سأظل خادمك.

بدأت المطر تتوقف تدريجيّا و ظهرت الشمس من بين الغيوم، فوقفت حسناء متثاقلة و كأنها تقتلع جسدها من جذع الشجرة و مشت في اتجاه البحيرة و جهاد يتبعها، ثم التفتت له و قالت:

– انظر إلى البحيرة كيف تجمّع فيها الماء، و انظر إلى السيول كيف تنساب عبر القنوات في اتجاه الحقول و المزارع، أظن أنه خلال مواسم الأمطار ستتجمع كمية كبيرة من المياه و سينجح مشروعنا، كما ترى أهمّ شيء في حياتنا هي الأفكار، لقد أعطيت للناس فكرة، تحمّسوا لها و شرعوا في البناء و العمل، لكن يا جهاد لو لم أستعمل الحيل و الخداع هل كان الناس سيقتنعون بأفكاري؟ لهذا لبست القناع، و لست سعيدة به، فأنا كنت أعيش حياة الترف و الرفاه و كنت أعتني بلباسي و بزينتي و كنت أسعى للظهور بمظهر لائق و جذاب بين الناس، صديقي جهاد بفضل هذا القناع صرت قادرة على تقديم خدمات للناس، و المساهمة في توفير أسباب العيش الكريم لهم و لأبنائهم ببعض الأفكار البسيطة التي اكتسبتها بفضل ما تلقيته من علوم و مهارات، فدعني أساعد الناس في تطوير عيشهم حتى و إن كانوا يظنّون أنني جنية من روح بقرة أكلها الذئب، صديقي جهاد بلادنا يجب أن تتغير و على الناس أن يتغيروا و تكون حياتهم أكثر تنظيما و أكثر تضامنا، و الحكام و السلاطين يريدون فعل ذلك بقوة السلاح، أمّا نحن فسنحاول التغيير بالفكر و بالكلمة و بالعقل و ها نحن نحقق أولى خطوات النجاح، صحيح أنني استعملت القناع و بعض الحركات الغريبة لايهام الناس أنني جنية، لكن هذا أفضل أسلوب ممكن في ظل الظروف التي عشتها و الصدفة التي جلبتني إلى هذه الأرض التي تسيطر على خيال أهلها الخرافات و الأساطير....

صمت جهاد كعادته كلّما تأسره كلمات حسناء و يعجز لسانه عن الردّ و تتوه عنه كلّ الكلمات فيحاول أن يعبر إلى موضوع آخر غير الذي تحدثت فيه حسناء، فنظر إلى

البحيرة و بدأ يصف الشمس و الغيوم و المياه و البحيرة و وصفها بالرائعة، فأجابته حسناء:

– أجل إنها رائعة و ستكون أروع لمّا يأتي الصيف و تكون مملوءة بالماء و تحيط بها الحقول و المزارع و الثمار، هيا يا جهاد لنعد إلى البيت قبل أن يأت الناس، أظن أنهم سيأتون بعد توقف الأمطار.

سار جهاد و حسناء إلى البيت و تفادوا في طريقهم مجموعات الناس الذين جاؤوا لمراقبة تراكم المياه في البحيرة، دخلت حسناء إلى مكانها في الزريبة و جهاد ذهب إلى والدته ليطمئن عليها و بعد مدة قصيرة رجع لحسناء ليخبرها بأنّ والدته قلقة و خائفة بعدما علمت بخبر سفره، و أوصاها بأن تعتني بها في غيابه و طلب منها أن تكتب له الرسالة التي سيحملها إلى قائد حرس السلطان، و قبل أن يتركها و ينزل إلى القرية للتحضير للسفر و البحث عن معاونين و عربات طلب منها أن تحدثه عن فحوى الرسالة ليطمئن قلبه فطلبت منه أن يستريح قليلا على الأرض و قالت له:

– أنا واثقة من أنك ستختار مرافقين جيدين في رحلتك، و واثقة أيضا أن أهل هذه القرية فيهم أناس ذوو خبرة و كفاءة عالية في التجارة و السفر، معك حق يا جهاد عليك أن تكون عارفا بما ستحمله معك في الرحلة و أن تكون على علم بأدق التفاصيل، و بعض الكلمات في الرسالة قد تكون أثقل عليكم من كل الأحمال و البضائع، أنا واعية بذلك، الرسالة لا تزال خطوطها لم ترتسم بعد في مخيلتي و سأحاول أن أقول لك باختصار ما سأكتبه، طبعا سأبدأ الرسالة بتهنئة قائد حرس السلطان بمنصبه كحاكم للبلاد و أقول له بأنه هو من سينقذ البلاد مما كانت تعانيه من فقر و أزمات

و أوبئة، و سأحدثه عن قدراتي في العلاج و ما قمت به في القرية و أظن أنه قد وصلته معلومات عمّا قمنا به، و أنه قد علم بقصة القناع و بالتالي هو يعرف أن كاتبة الرسالة انسانة خارقة، و طبعا سأطلب منه المواد اللازمة لإتمام بناء البحيرة، و سأرفق رسالتي برسم للبحيرة هو أكيد لن يفهمها لكنه سيوهم الجميع بأنه فهمها، و سأعرض عليه فكرة إنشاء مشاريع مماثلة في مناطق أخرى.

احمر وجه جهاد و علت محياه ابتسامة فرح و سرور لم يشعر به منذ سنوات قبّل حسناء على رأسها، لأن وجهها مخفي تحت القناع، و انصرف. بعد أيام جهّز جهاد قافلته للرحيل و كانت حسناء حاضرة مع جمع من أهالي القرية لتوديعه، و كان الجميع مستبشرين و فرحين بانجازهم الكبير و معلقين آمالهم على القافلة التي ستجلب لهم المواد الضرورية لإكمال مشروعهم، فكانوا يتسابقون كل حسب إمكانياته لتقديم المساعدة، صعدت حسناء فوق إحدى العربات و نادت جهاد كي يقف إلى جانبها و أخذت تخطب في الناس قائلة:

– أيها الطيبون الكادحون، اليوم يذهب جهاد إلى المدينة و يقابل أعلى سلطة في البلد ليخبره بما أنجزنا و بإبداعاتنا، و سيطلب منه مساعدتنا، جهاد يحمل معه أحلامنا و آمالنا، لقد ساهمتم في هذه القافلة من قوت أبنائكم، كي تنجح في مهمتها، و جهاد يدرك جيدا جسامة مسؤوليته و خطورة مهمته، و من معه يدركون جيدا أن أمل أهل هذه القرية ومستقبل أبنائها مرهون بنجاح هذه القافلة في مهمتها، لذا سيعملون على حمايتها من المنحرفين و قطاع الطرق، ما نطلبه منهم هو أن يتحلوا بالرصانة و الهدوء في بعض المواقف خاصة اذا اعترضهم حرس السلطان في الطرقات أو عند مدخل

المدينة، و أنا على ثقة تامة أنهم سيتجاوزون الصعاب بفضل خبرتهم، أما أنتم أيها الطيبون فعليكم بمراقبة البحيرة في كل لحظة خاصة عند نزول الأمطار و أنا في بيت جهاد قريبة منكم سأستجيب لكم كلما واجهتم مشكلة و طلبتموني، و طبعا سأظل في خدمتكم كلّما احتجتم أي مساعدة عند المرض أو القلق أو حتى لفض النزاع بينكم. هذه البحيرة أنشأتموها بسواعدكم فحافظو عليها و الآن سنودع جهاد و قافلته فلتكن المناسبة احتفالية و مليئة بالبهجة و السرور و الفرح.

صاح الناس فرحين مهلّلين، و احتفلوا بالرقص و التصفيق أما حسناء فسلمت لجهاد الرسالة و أعطته قطعة ثمينة من المعادن النفيسة و أمرته بأن يسلمها لقائد حرس السلطان بغاية إبهاره فالقطعة نادرة و لا يملكها الّا الحكام و السلاطين، ثم سحبت من بين ثيابها بعض الحلي و سلمتهم لجهاد و قالت له بأن يبيعهم في المدينة إن احتاج المال. نزلت حسناء من فوق العربة وانطلقت مسرعة إلى بيت جهاد و ظلت تراقب القافلة و الناس يودعونها فرحين إلى أطراف القرية، و لما غابوا عن نظرها دخلت على والدة جهاد فوجدتها تبكي و تنتحب منزوية في ركن من أركان غرفتها، حاولت حسناء أن تقترب منها فدفعتها و قالت لها:

– أيتها الجنية لماذا لم تتركيني أموت بقروحي و أمراضي و أسقامي قبل أن أرى هذا اليوم؟ لماذا تفجعينني في ولدي؟ ماذا فعلت لك، ما هو ذنبي؟ أريد أن أموت، لقد فقدت زوجي لما سافر في رحلة تجارية، وقتها حاولت إقناعه بأن يبقى معي في الحقل نعيش على ما يتوفر هنا، لكنه أصر على الرحيل و تركني و ترك لي جهاد طفل صغير

فنخر المرض جسدي و تعذبت في تربيته حتى صار رجلا و أنت اليوم تقنعينه بالرحيل؟....لماذا؟ ....لماذا؟

احتضنتها حسناء محاولة خمد تنهيداتها المتتابعة حتى استعادت أنفاسها ثم قالت لها:

– جهاد رجل شهم و طيب سيعود قريبا، هو سيقدم خدمة جليلة لقريته و لبلده، و سيعم الخير في هذه القرية بفضله و ستفخرين به فلا تخافي و لا تحزني، فأنا هنا معك لتلبية كلّ ما تطلبينه و توفير كل ما تحتاجينه كوني فقط صبورة و مطمئنة.

و كعادة حسناء كلماتها دائما علاج و شفاء فقد هدأت العجوز و تنفست الصعداء و ابتسمت، فتناولتا بعض الطعام و تسامرتا حتى نامت، فانسحبت حسناء إلى مخدعها بين البقرات و جلست تفكر في جهاد أين وصل؟ و ماذا أكل؟ ثم في نفس اللحظة تذكرت فراس، لقد أصبح لها حبيبين راحلين، فتمنت لو أن فراس هو الذي كان مساعدها في القرية و حضر على انجازاتها و إبداعاتها، استلقت على فراشها بحثا عن النوم لكن دون جدوى فالأفكار و الذكريات تهاوت على رأسها كالمطر، فتذكرت حياتها الماضية الباذخة، و تذكرت السهرات و الملابس الفاخرة، ثم تذكرت المتاعب التي مرّت بها في ظرف وجيز بما فيها من مخاطر و مغامرات و تحديات، ثم فكرت في مستقبلها الذي بدأت ملامحه تظهر تدريجيا، و هكذا بقيت تصارع الأرق إلى أن باغتها النوم.

مرّت أيام على سفر جهاد و حسناء تعيش كعادتها في مخدعها مع الأبقار، أيضا كانت تتردد على المنزل للعناية بوالدة جهاد و تلبية كل طلباتها و قد نشأت بينهما ألفة و

انسجام كبيرين و زالت الرهبة و الخوف من قلب والدة جهاد و باتت تعامل حسناء على أنها إنسانة عادية، فارتاحت إليها و خففت عنها الحزن و الألم و آنست وحدتها في ليالي الشتاء الطويلة القاسية، فالشتاء أتى قاسيا و لياليه قاتمة و باردة، و نزلت كميات كبيرة من الأمطار و خيم على القرية جوّ شتوي داكن، لكن فيه بعض الفرحة و الأمل بفضل وجود حسناء و نجاح المشروع حيث يفيق أهل القرية كل يوم على خبر ارتفاع مستوى المياه في البحيرة و تدفق المياه في الجداول و الحقول، لكنه كان شتاء صعب و مضن على حسناء فهي تعتني بأبقار جهاد، و يقصدها أهل القرية يوميا لعلاج أبنائهم من نزلات البرد و السعال و غيرها من الأسقام التي تتكاثر بسبب البرد، كما أنها تخرج كل يوم لمراقبة البحيرة و تدفق المياه في القنوات و تتأكد من أن الماء لن يشكل خطرا على القرية فأي خطأ قد ينهي المشروع و ينتهي كل شيء بالنسبة لها، كان الناس كل يوم يرافقونها في زيارتها للبحيرة لمساعدتها و طمأنتها و الشد من أزرها، و مع ذلك هناك دائما من يشككون في المشروع و يروجون الإشاعات و يسعون دائما للإحباط، و هناك أيضا من يشنون حملات ضد مشروع البحيرة كونه خطرا على الناس و يروجون أن البحيرة ستنهار و سيغمر الماء الجميع، و من يقود هذه الحملات هم بعض أعيان القرية الذين يحتكرون منابع المياه في مواسم الجفاف، لكن رغم حيلهم و مكرهم فقد فشلوا في إحباط حسناء و الناس المقتنعين بأفكارها، فهي قد نجحت في رفع معنوياتهم و منحتهم الثقة في أنفسهم و في طاقاتهم، فكانوا سندا لها و كانوا يدا واحدة معها لتحدّي كل المصاعب و تجاوز فترة الشتاء القاسية، التي لم

تشعر حسناء بمرورها و لم تقدّر إن كانت فترة طويلة أم قصيرة فقد مرّ الشتاء سريعا بسبب مشاغلها و تعبها، و مرّ بطيئا بسبب شوقها لفراس أحيانا و لجهاد أحيانا أخرى.

مرّ الشتاء و بدأت كمية الأمطار تنخفض تدريجيا و ازدادت البحيرة صلابة بقي الماء يتدفق عبر القنوات و بدأ القلق يدب في نفوس القرويين الذين صاروا ينتظرون عودة قافلة جهاد لاستكمال بناء البحيرة و غلق القنوات و التحكم فيها في مواسم الجفاف، و أصبحت حسناء و بعض القرويين يمضون وقتا طويلا كل يوم قرب البحيرة منتظرين خبرا عن قافلة جهاد، إلى أن جاء فارس من فرسان حرس السلطان ليخبرهم بأن قائدهم الحاكم الفعلي للبلاد قادم في المساء و معه قافلة جهاد. زفت حسناء الخبر لوالدة جهاد التي وجدتها تبكي و حزينة من شدة شوقها لولدها، و ما ان سمعت الخبر حتى عانقت حسناء و انشرحت أسارير وجهها ثم انصرفت إلى أطراف القرية لاستقبال ابنها أما حسناء فأخذت معها بعض الأدوية و العقاقير التي قد تحتاجها لإبهار السلطان الجديد، و رجعت إلى البحيرة فوجدت ثلة من القرويين الطيبين الذين ساعدوها في تحضير البحيرة و تنظيفها و تزيينها حتى يستقبلوا فيها قائد حرس السلطان الذي صار سلطان البلاد الجديد.

بينما كانت حسناء في عملها سمعت الأهازيج تقترب من البحيرة أطلت من مكان مشرف فرأت حشدا من الناس يصفقون و يهللون و في وسطهم عربة فخمة يتوسطها كرسي فاخر و يجلس على الكرسي قائد حرس السلطان السابق، هي تعرف ملامحه جيدا و تعرف كل حركاته و سكناته منذ كان خادما لأبيها السلطان، و تذكر جيدا كم كان ذليلا و متمسحا و متملقا، و كم كان يجيد لعب دور الخادم الوفي و المستشار

الحكيم و تذكر كم كانت هي تحذر والدها من أحابيله و من دهائه و خبثه، و تذكر نظراته الخبيثة إليها و محاولاته التقرب منها، هاهو اليوم أمامها حاكما للبلاد و يضع على رأسه تاج أبيها و يرتدي سترته الموشاة بالنياشين و أوسمة الانتصارات في الحروب و المعارك التي خاضها الأجداد لتحرير الوطن و توحيده. كانت عربة السلطان محفوفة بمجموعة من الناس يحاولون التقرب من السلطان و البروز أمامه و أغلب المتقربين هم من الذين كانوا يحبطون الناس أثناء بناء البحيرة. اقترب الموكب من البحيرة و شعرت حسناء بقلبها يخفق بقوة و انتابها ارتعاش في كامل بدنها، و عادت إلى ذاكرتها أيام زيارات والدها ،لما كان سلطانا، إلى المزارع و الأسواق و تذكرت تصرفات الحاشية التي ترافقه و تعامل الحراس مع الناس، هي آنذاك كانت في قلب الموكب، أما اليوم فهي ترى الموكب من زاوية أوسع، هي اليوم ترى حراس السلطان كيف ينهرون الناس و يصفعونهم و يدوسون بعضهم، و يبعدون الناس الذين يحاولون الوصول إلى السلطان ليشكوه سوء حالهم، انتابها شعور اختلط فيه الحزن و الخوف و الندم، و تمنت لو أنها عاشت شقية طوال عمرها و لم تعش كل لحظات السعادة و الرفاهة العابرة التي نعمت بها على حساب آلام و جراح و معاناة هؤلاء الناس البسطاء. بينما كانت حسناء جامدة في مكانها و لا شيء يشغلها سوى ذلك المشهد المؤلم و المضحك أمام عينيها وصل الموكب إلى البحيرة و اشتد ضجيج الهتافات و الأهازيج لتستفيق على صوت أحد معاونيها يخبرها بأن القافلة وصلت وبأنهم جهزوا كل شيء، فأمرتهم بأن يستلموا المعدات و المواد اللازمة من القافلة و يواصلوا الأشغال.، ثم ركضت مسرعة نحو شجرة قريبة لتتسلقها و تجلس فوق أغصانها و تراقب ما يحدث عن كثب. ترجل

السلطان من عربته و قد توقف الحراس في صفين متوازيين كي يوفروا له ممرا آمنا يوصله إلى مكان مشرف قد تمّ تحضيره له، و مع مروره اقترب بعض فتيات القرية لنثر زهور النرجس و الياسمين في طريقه، و الناس يهللون و يهتفون بحياته إلى ان وصل إلى كرسيّه و جلس، و بدأ الحراس يبعدون الناس و لم يبقى قريبا من كرسي السلطان إلا بعض الحاشية و ثلة من أعيان القرية، جالت حسناء بنظرها في كل الأرجاء بحثا عن جهاد فلمحته في الصفوف الأخيرة واضعا يده على كتف والدته و متمسك بها و كأنه يخاف أن تهرب منه، انتابها غضب شديد لكنها تمالكت نفسها و قررت أن تواصل مراقبة ما يحدث حتى تتدخل في اللحظة المناسبة، تواصل توافد الناس على البحيرة كبارا و صغارا و شيوخا و نساء يبدوا أن الجميع جاؤوا لرؤية السلطان الجديد و تواصلت الأهازيج و الهتافات بحياة السلطان إلى أن تدخل أحد من أعيان القرية الذين كانوا في استقبال السلطان و صاح في الناس قائلا:

– اصمتوا كفوا عن الهتاف و اتركوا الفرصة لمولانا السلطان ليرتاح و يتكلم معكم.

ساد الهدوء تدريجيا على المكان و صمت جميع الناس عدى بعض الهمهمة و بعض الكلمات المتناثرة بين الصفوف فتدخل أحد آخر من أعيان القرية ليصيح قائلا:

– أيها الناس، إن مولانا السلطان يقدر فرحتكم به و حبكم له، و أنا باسمي و باسمكم أقدم له عبارات الترحيب و الولاء و الطاعة و نحن لازلنا على قيد الحياة بفضل تضحياته و حبه لوطنه، انظروا حولكم لاخضرار الطبيعة و المياه المتدفقة، انظروا حولكم للأمن و الأمان الذي تنعمون به، مولانا السلطان يحبنا و نحن لا نملك سوى أن نحبه و نقدره و لا بد أن نضحي من أجله و نضحي معه من أجل الوطن، هيا أيتها

الحسناوات لرش الزهور و الرياحين و العطور مرة أخرى على كرسي مولانا السلطان، فمولانا السلطان قد نذر عمره لحماية البلاد من الأشرار و من قطاع الطرق و المنحرفين، و قد كان حارسا أمينا لمولانا السلطان السابق الذي كان قاسيا و متسلطا علينا، و ها نحن ننعم اليوم بسلطان بشوش ضحوك مبتسم وجهه مشرق يبعث في الروح الطمأنينة و الأمل في غد أفضل، و الغد الأفضل قد هيأنا له أنفسنا بفضل توجيهات مولانا السلطان الجديد و قمنا بهذا المشروع الكبير و هذه البحيرة التي ستنقذنا من العطش و ستوفر لنا الماء في مواسم الجفاف التي تطول في قريتنا، لقد تعبنا في تحضيرها كي يراها مولانا السلطان بحيرة معبأة بالماء و الطيور تغرد فوقها و تحتفي بها، و تنبت حولها أجمل الأزهار و الرياحين. لقد شجعنا الناس العاملين بالبحيرة و شحذنا عزائمهم ووفرنا لهم الطعام و كلّ الظروف الملائمة كي يتقنوا عملهم، و ينجحوا فيه، و من بين هؤلاء يا مولانا الشاب جهاد الذي جاءكم في قافلة ليستلم المعادن، و قد ساعدته صديقته و هي امرأة غريبة الأطوار و هي دائما تتخفى عن الأنظار و قد تكون الآن مختبئة بين أغصان الأشجار أو هائمة في الجبال.أما الآن أيها الناس فلتصغوا جيدا لمولانا السلطان كي يلقي كلمته.

قام السلطان من مقامه فتعالت الأهازيج و الهتافات مدوية في أرجاء البحيرة و الغابة المحيطة بها لبرهة من الزمن ثم صمت الجميع، و لم يبقى غير صدى أصواتهم يتردد بين الأودية و الصخور، أما حسناء فحبست أنفاسها لتسمع جيدا ما سيقوله السلطان، فهي قد تمالكت نفسها و حافظت على هدوئها رغم الحزن الذي انتابها بسبب ما كانت تسمعه من نفاق و كذب أعيان القرية الذين لطالما أحبطوها، و لطالما حاولوا

التصدي لمشروع البحيرة، لتجدهم اليوم في مقدمة الصفوف يقدمون الولاء و الطاعة للسلطان و يتكلمون باسم كل سكان القرية.

ألقى السلطان نظرة خاطفة على كل أرجاء المكان ثم قال:

– أيها الناس الكرماء، لقد غمرتموني بكرمكم و بحفاوة استقبالكم لي بالزهور و الياسمين، أنا اليوم هنا من أجلكم، لقد ولّى ذلك الزمن الذي تعملون فيه و تشقون من أجل السلطان، نحن في زمن جديد و عهد جديد حيث السلطان هو من يشقى من أجل بلاده و من أجل أبناء بلاده، فأبناء البلد هم بالنسبة لي أهم من البلد نفسه، لقد ولّى زمن السلطان الجائر، ذلك السلطان كنت خادمه و حارسه الشخصي و قائد حرسه الذين ساموكم سوء العذاب، و أنا أعتذر عن كل ما حصل سابقا فقد كنت عبدا مأمورا مخلصا لسيدي، لكنني كنت دائما أحاول التصدي لكل ممارسات القمع و التسلط، و للأسف آنذاك لم أكن قادرا على تغيير أسلوب حكم ذلك السلطان المستبدّ الذي كانت أسرته باذخة تنفق ثروات البلاد و أموال الجائعين من أجل المتعة و الرحلات و اللباس و البساتين و القصور، لقد كانت ابنته المغرورة تتحكم بكل دواليب القصر، و كم من مرة حرّضتني على ضرب الناس و انتهاك حقوقهم و قد طلبتني للزواج كي أرث معها السلطة عن أبيها لكنني رفضت لأنني كنت أحلم بأن أرث وطنا أخدمه لا وطنا يخدمني، و ها قد تحقق حلمي بمساعدة أصدقائنا و أصدقاء بلادنا من دولة "الوسا" العظيمة فقد جاؤوا بجيوشهم القوية لمساعدتنا على القضاء على العصابات التي تحمي أتباع السلطان السابق و حاشيته، و تحمي مزارعهم و ممتلكاتهم التي نهبوها من قوت الفقراء، و قد تعاون معي رجال شرفاء لنجبر ذلك

السلطان الجائر على الهرب رفقة أسرته، و لازال البحث عنهم جاري إلى الآن، و لن يهنأ لي بال حتى أعثر عليهم كي أقدمهم لأبناء بلدي لينتقموا منهم، فأبناء بلدي قد أجبروني بعد هروب السلطان على أن أكون سلطانا عليهم و خادما لهم، لقد منحوني ثقتهم و ناشدوني و احتفلوا بتنصيبي و ها أنا اليوم أرى ملامح الفرحة على وجوهكم و أسمع عبارات الثقة و الارتياح نابعة من قلوبكم و تصدح بها أفواهكم، لقد سمعت الكثير عن بحيرتكم و عن اجتهادكم لتوفير الماء أثناء مواسم الجفاف، لقد جاءتني رسالة و قالوا لي أنكم بذلتم جهدا كبيرا و تعبتم في بناء هذه البحيرة الرائعة، و قالوا لي بأن الجهود تضافرت و قد شارك الجميع في هذا الانجاز التاريخي، و هذا ما نريده من أبناء البلد، نريد أن يكون الجميع يدا واحدة و قلبا واحدا متّحدين متضامنين، يعملون من أجل الخير لأنفسهم أولا و لبلدهم ثانيا، و أنا كحاكم للبلاد عليا فقط تشجيعكم و دعمكم عند الحاجة، سوف لن أتدخل في شؤونكم و في حرياتكم و طقوسكم و معتقداتكم، سأسهر فقط على ردع المنحرفين و الضرب على أيادي العابثين بمصالح الناس، و ان لزم الأمر الضرب على رقابهم بسلاحي هذا. لقد سمعت أيضا أن امرأة غريبة الأطوار قد تدخلت في معتقداتكم و قيل لي انها تسعى لتغيير نمط عيش سكان هذه القرية الرائعة،انها فعلا خطر علينا ، لكن قيل لي أيضا أنها حشرت نفسها في مشروع البحيرة كي تفرض نفسها على الناس و تندمج معهم كي تحقق مآربها، لقد أرسلت لي رسالة هي الأخرى مع الشاب الطيب جهاد الذي يبدوا أنها سحرته و جعلته مطيعا لأوامرها، لقد كتبت لي أنها هي من بنت هذه البحيرة و تطلب مني توفير المعادن و قد كانت رسالتها فيها الكثير من المدح و التملق، و أنا

لست كالسلطان السابق الذي كانت تنطلي عليه حيل المتملقين و يفرح بمدحهم له، فأنا قائد عملي و سلطان جاد في خدمة بلدي، و بالتالي سوف لن أسلم المعادن لهذه المرأة، فهذه المواد الثمينة قد جلبناها من دولة "الوسا" بأسعار باهظة و قد ساعدنا أصدقائنا هناك في توفيرها، و هذه المواد كما تعلمون هي حكر على السلطة لأننا نصنع منها الأسلحة التي ندافع بها على حوزة هذا الوطن، و بالتالي سأعطي المواد لأشراف القرية هؤلاء الرجال البررة الذين نذروا أعمارهم و ثرواتهم من أجل ازدهار هذه القرية، و قد أقنعت الشاب جهاد بأن يكون إلى جانبهم في إكمال بناء البحيرة و يأخذ من عندهم الكمية التي يحتاجها و ما سيتبقى من مواد سأطمئن عليها فقط بين أيدي هؤلاء الرجال كي لا تنالها أيادي العابثين و المنحرفين، هيا أيها الشاب جهاد اقترب لتستلم المواد الضرورية لبناء البحيرة و هؤلاء الصناعيين المهرة قد جلبتهم معي كي يساعدوك، هيا أشعلوا النيران لتكون أجواء العمل احتفالية و سأضل هنا لمراقبتكم، و اعذروني أيها الناس على الإطالة في الخطاب و أشكركم كثيرا على حسن الإصغاء.

ما إن جلس السلطان على كرسيّه حتى تعالت الصيحات و الأهازيج و هتف الناس طويلا بحياته ، و حسناء متجمدة في مكانها بالكاد تتنفس، و تفكر في ما حدث و في قوة تأثير أعيان القرية في السلطان، و الناس الذين واصلوا هتافهم دون أن يتدخلوا لكشف كذب أعيان القرية الذين كانوا من أكثر المعارضين و المعرقلين لمشروع البحيرة، شعرت بحزن و ألم فأهل القرية الذين عالجت أمراضهم و ساعدتهم لم يتشجعوا للدفاع عنها بعدما لحقها من تشويه، شعرت ببرودة دمعة تنزل من عينها تحت القناع، فأطلقت العنان لنحيبها و دموعها حتى يفرغ قلبها من جبال الحزن و الألم

التي تملؤه، حيث تذكرت في لحظات عرش أبيها الضائع و تذكرت أيام المجد و أيام كان والدها لا يسمع النصح و لا يعمل إلا ما يراه هو صحيح و يتجاهل كل الآراء المخالفة له، و تمنت لو أن والدها كان يلقي خطابات لينة بين الناس حتى كذبا و نفاقا، خير من خطابات الغطرسة و التسلط و التهديد التي نفّرت الناس من حوله، هكذا بقيت حسناء تفكر و تبكي إلى أن استعادت هدوئها و أنفاسها فقالت بصوت مرتفع كاد يسمعه الناس لولا الضجيج الذي يملأ الأرجاء:

– لا يجب أن أسكت و لا يجب أن أبقى مكتوفة اليدين ستكون نهايتي ان انسحبت اليوم، يجب أن أتدخل فربما الناس خائفين من أعيان القرية، فهم ناس طيبون سيقفون معي في شرح الأمور للسلطان و كشف الحقيقة، هي فرصتي الأخيرة إما أن يكتشف أمري و أقتل و إما أن أتمكن من إقناع السلطان و أنال ثقته و يأخذني معه للقصر، وقتها سأنتقم منه.

بدأت أصوات الأهازيج و الهتافات تنخفض تدرجيا و بدأ جهاد في العمل رفقة الصناعيين الذين جاؤوا مع السلطان و معهم القرويين الذين كانوا يساعدون حسناء هبوا للعمل و مد يد المساعدة، و تم إشعال النار فقفزت حسناء بشكل غرب و مخيف ثم اقتربت من النار و بدأت تصيح صيحات غريبة و تقوم بحركات غريبة و تقول كلاما غريبا و تكرّر كلمتي النار و الماء، ركض بعض الحراس للامساك بها فصاح فيهم السلطان و أمرهم بأن يتركوها حتى يرى ما ستفعل، فالتفتت إليه حسناء و نظرت في عينيه، فكاد يغمى عليه من شدة خوفه و قال:

– ما هذا؟ امرأة بوجه بقرة....ماذا أرى؟!!

فتدخل أحد أعيان القرية و قال:

– مولاي السلطان، انها جنية قيل أنها من روح بقرة أكلها الذئب في الغابة.....لا تقربها يا مولاي.

سحبت حسناء من بين ثيابها بعض العقاقير و وضعت بعضها في فمها و نثرت بعضها على النار ثم بدأت تنفث النار من فمها و تقوم بنفس الحركات و الصيحات المفزعة فتجمد الجميع في أماكنهم بما فيهم السلطان و حاشيته و حراسه و عم صمت رهيب في المكان استغلته حسناء لتصعد فوق كومة من المواد المخصصة للبناء، و قالت:

– أيها الطيبون سألقي عليكم خطابا كما ألقى مولانا السلطان و حاشيته فلتصغوا لي جيدا، و خطابي أساسا موجه لمولانا السلطان لأن ما سأقوله تعرفونه. مولانا السلطان، أنت في بداية خطابك قارنت نفسك بالسلطان السابق و ركزت على مساوئه و وعدت الناس بأنك ستمارس السلطة بشكل أفضل و أقل عنفا، لكنك فيما بعد قلت كلاما يثبت أن لا شيء تغير لأنك هددت بضرب الأيادي و الرقاب، و قلت بأنك ستضرب أيادي و رقاب كل من يخون الوطن و يحاول النيل منه، و خطاب التخوين و التهديد هذا يؤكد أنك ستكون في قادم الأيام ظالما و متسلطا لأنك سمحت لنفسك بتصنيف الناس و إدانتهم و الحكم عليهم و تنفيذ الحكم فيهم و بالتالي سمحت لنفسك بأن تكون الخصم و الحكم في وطن لكل فرد فيه نصيب و حق، و على كل فرد عمل يقوم به لفائدته، و أنا اذ أتوسم فيك خيرا و أحاول أن اصدق وعودك فإني أقول لك لا تسمع كلام هؤلاء المحيطين بك حتى لا يكون مصيرك نفس مصير السلطان السابق، لأنهم يكذبون عليك تماما كما كذبوا على السلطان السابق و ضللوه و صفقوا لأخطائه

و هلّلوا لجرائمه، فأعيان القرية الذين تستغلهم كعيون و جواسيس على هؤلاء الناس الطيبين ، كانوا يرسلون لك أخبارا زائفة و يوهمونك بمؤامرات تحاك ضدك من قبل هؤلاء القرويين، و هاهم اليوم يستقبلونك و ينثرون الورود في طريقك ليقولوا لك أنهم ساهموا في بناء هذه البحيرة الرائعة في حين أنهم كانوا أول من وقف ضدها و روجوا الإشاعات حولها و خوفوا الناس من أخطارها، هم لا يريدون للبحيرة أن تنجح لأنهم كانوا يستغلون مياه النهر وحدهم و يتركون للناس ما تبقى من ماء متراكم في المستنقع وسط الغابة. الناس لم يكونوا قادرين على الدفاع عن أنفسهم أمامك و لم يتجرأ أي واحد على إعلامك بالحقيقة على الملأ لأنهم يخافون من بطش أعيان القرية الذين يسيطرون على كل شيء ، يسيطرون على المزارع و التجارة و الماء، و يساومون الناس في أمنهم و قوتهم. مولانا السلطان اسأل ان شئت الناس ان كان كلامي صحيح، فأنا على ثقة أنهم يملكون ما يكفي من الشجاعة لقول الحقيقة.

وقف السلطان مزمجرا واضعا يده على قبضة سلاحه و الغضب يتطاير من عينيه و قال:

– كلام خطير ما تقوله هذه المرأة الجنية، أيها الناس لا تخافوا سأحميكم فقط قولوا الحقيقة.

ترك جهاد كل شيء من يده و دخل وسط الصفوف يصيح: "صحيح صحيح " فبدأ الناس يهتفون معه. جلس السلطان في مكانه دون أن يقول أي كلمة و ظل متجمدا في مكانه أما أعيان القرية فقد بقوا واقفين صامتين يحاولون أن يحافظوا على هيبتهم و وقارهم بعدما حصل لهم في حضرة السلطان و أمام انتفاضة القرويين ضدهم. شعرت

حسناء ببعض الارتياح كما شعرت أن السلطان الجديد ،رغم حقدها عليه و رغبتها في الانتقام منه، متفهم و عنده قدرة على استيعاب الرأي المخالف فقامت ببعض الحركات الغريبة لتجلب اهتمام الناس ثم نفثت بعض النيران فصمت الجميع لتخطب فيهم قائلة:

– أيها الكادحون شكرا على شجاعتكم، لا شيء في الكون يمكن أن يقف أمام إرادتكم، فواصلوا كما عرفتكم متضامنين متآزرين يدا واحدة و لا يمكن لأي شخص مهما كان نفوذه أو سلطته أو ثروته أن يغلبكم. أما أنت يا مولانا السلطان فما رأيك؟ هل عرفت الآن من هم الخونة؟ ماذا لو ضربت أياد و رقاب و أنت مخطئ؟ هل ستنام جيدا طوال حياتك؟ هـ ستشعر بالراحة و الأمان؟ تقويم سلوك الناس لا يكون بالسيف إنما بالكلمة و الحوار و النقاش و الأخذ بآراء الناس مهما صغر شأنهم، و إعطائهم زمام المبادرة، هؤلاء الناس الفقراء فكروا فأبدعوا، اجتهدوا و عملوا فأنجزوا هذه البحيرة التي أمامك، أنصحك يا مولانا السلطان بأن تسمع أصوات الناس و أن تقترب منهم و أن تكون فعلا خادما لهم كما ذكرت في خطابك و أنا لا أدعوك للحكم على أعيان القرية أو التشفي فيهم، أريدك فقط أن تقصيهم و أن لا تأخذ منهم الأخبار و أن لا تثق فيهم و ان كان لهم فكرة أو رأي فليطرحوه على الملأ مع باقي الناس، و الآن سترى بعينك كيف سيحتفي بك أبناء هذه القرية ، ليس بالتصفيق إنما بالعمل و الإنجاز. هيا لنبدأ العمل.

تواصل الصمت و الهدوء على وقع كلمات حسناء الساحرة صمت كاد يرتقي لمرتبة الخشوع، لو ظلت حسناء تتكلم الدهر كله لن يملوا من كلامها، حتى السلطان و

حاشيته فقد تملكتهم الدهشة و أسرهم الخطاب. نزلت حسناء و أعلنت بداية الأشغال، حيث كانت كل لوازم البناء جاهزة و المواد الضرورية أيضا جاهزة، و البحيرة أيضا جاهزة اذ تم تجهيزها من قبل حسناء و معاونيها و بقيت فقط المرحلة الأخيرة و هي مرحلة لا تتطلب وقتا طويلا لكنها صعبة و دقيقة و تتطلب جهدا كبيرا و تنظيما محكما و هذا ما أكدت عليه لما كانت تتحدث مع معاونيها. تواصل العمل في حضرة السلطان الذي كان جالسا في مكانه و بدت على ملامحه علامات الارتياح و الانبهار بما يقدمه الناس من عمل متقن، فقد كان الجميع يتحركون كخلية النحل دون أوامر و دون سياط على ظهورهم، و كان جهاد ينظم العمل بإتقان و الابتسامة تعلو محياه. حسناء أيضا كانت تشرف على الأعمال و تساهم في شحذ عزائم الناس و تساعدهم ان وجدوا صعوبة في بعض الأعمال، مالت الشمس إلى الغروب و تم غلق البحيرة في ظرف وجيز و أمرتهم حسناء بأن يجربوا التحكم في البحيرة قبل حلول الظلام، فتجمع الناس قرب السلطان منتظرين التجربة، كانت اللحظات حاسمة و كان السلطان أيضا متحمسا و قد وقف و وضع يديه خلف ظهره و بدأ يتحرك بسرعة في المساحة الصغيرة أمام كرسيه، بدأت التجربة و تم فتح قنوات البحيرة كلّ واحدة على حدة فتدفقت المياه دون أي خطر ثم قاموا بغلقها مرة أخرى فلم يحدث أي إشكال، فصاح الناس مهللين و جلس السلطان مطمئنا، أمّا حسناء فانتظرت هدوء الأجواء حتى تتكلم بصوت عال و تهنئ القرويين بانجازهم الكبير ثم طلبت من السلطان أن يعين شخصا يثق فيه الناس ليكون مشرفا على البحيرة و متحكما فيها حتى يوزع الماء على الناس بالعدل خلال مواسم الجفاف، فوافق و أمر بأن يتقدم الأشخاص الذين يرون في

أنفسهم الكفاءة و يقفوا بجانبه، فصعد أربعة رجال إلى جانبه، فاقترحت عليه حسناء أن يطلب رأي الناس في كل واحد منهم ثم يقرر بعد ذلك فاستجاب لطلبها. أشار أغلب الناس الحاضرين إلى رجل واحد من بين الأربعة و قد عرف بجديته فأمره السلطان بأن يكون مشرفا على البحيرة ثم قال:

– أيتها الجنية لماذا اقترحت عليا هذه الطريقة في الاختيار و لم تعيني أحد معاونيك و ثقاتك مشرفا على هذه البحيرة.

أجابته حسناء:

– مولانا السلطان إنّ جهاد صديق لي و من المقربين مني و أدرك كفائتة و مهارته، لكن لا يمكنني أن أستغل الثقة التي منحني إياها هؤلاء الناس لأفرض عليهم رأيي و أعين المقربين مني في المناصب و المسؤوليات، فهنيئا لهذا الرجل الذي اختاره الناس باقتناع و منذ الآن سيتكفل أهل القرية بتوفير كل ما يستحقه في عمله و يوفرون له و لأسرته العيش الكريم.

شكر الرجل السلطان و شكر حسناء و شكر الناس على ثقتهم فيه كما عبر عن سعادته بنجاح المشروع ، لكنه عبر عن قلقه من أمر كان يشغله منذ مدة لكنه لم يجد الفرصة لإعلام جهاد عنه، و المشكل في البحيرة هو أنها قد يحدث فيها عطب و يصعب فتحها و بالتالي تراكم المياه فيها مما قد يسبب انهيارها و حدوث كارثة، فطلبت منه حسناء أن يقترح فكرة لتفادي هذا الخطر و يتم مناقشتها بحضور السلطان و جميع الناس، فاقترح بأن يتم حفر الحاجز من الجانبين من الأعلى و بالتالي تسرب الماء

كلما وصل ارتفاعه إلى ذلك الحد. تمت الموافقة على الفكرة و أعجب بها السلطان كما أعجب بها أغلب الحاضرين في تلك الأثناء كان أعيان القرية صامتين و يراقبون ما يحدث باشمئزاز و حزن رغم محاولاتهم إيهام الناس بأنهم فرحين، و ما زاد في حزنهم هو تشارك الناس في الآراء و التشاور فقد كانوا في السابق يفرضون آرائهم و لا أحد يتجرأ على مناقشتهم، تكلّم أحدهم قائلا:

– سيحلّ الظلام فلنؤجل هذا العمل إلى يوم الغد و لنترك مولانا السلطان يرتاح.

أجابته حسناء بشدة و حزم قائلة:

– لن يؤجل هذا العمل، و لن يحل الظلام، و سيشرق القمر بعد وقت وجيز هيا لنبدأ.

بهت الجميع من قولها بما فيهم السلطان الذي تقهقر نحو كرسيه و كأن شخصا دفعه و أجلسه عنوة و بقي يحدق في حسناء معجبا بمعرفتها و علمها و قدرتها على استباق الأمور، أمر الناس بأن يواصلوا عملهم و قال بأنه لن يغادر المكان حتى انتهاء الأشغال، فتواصل العمل في تلك الليلة بنفس الحماس و النشاط و الدقة، و تكفل الرجل الذي تم اختياره كمشرف على البحيرة بتسيير الأشغال أما حسناء و جهاد فاندمجا وسط العمال بنفس النشاط و الحيوية يحملون الأثقال و يقومون بكل الأعمال، و بينما كانت حسناء ترفع حجرا لتضعه في مكانه لمحت جهاد محدقا فيها، و ينظر إليها نظرات لم تعهدها منه من قبل حيث كان خجولا، أسقطت الحجر و أصابها شيء من الارتباك و في نفس اللحظة تذكرت فراس فهو آخر شخص وهبها هذه النظرات

فتنهدت و تمنت لو أنه معها و شاركها هذا النجاح، اقتربت من جهاد و همست له قائلة:

– أرجوك، تخيفني نظراتك هذه و تربكني ، من أين أتيت بكل هذه الجرأة.

صمت قليلا ثم أجابها:

– إنه الحب يا سيدتي.

ابتعدت عنه مسرعة حتى لا يشعر الناس بما يحدث، كانت حسناء تخاف من أن تقع فعلا في حب جهاد، فهو أجمل و أطيب من فراس و أكثر جرأة منه و صبرا و جدية، لكن فراس هو حياتها هو سنوات عمرها الجميلة ، هو لحظات الحب الرائعة، هو الذي قطعت على نفسها عهدا أن تكون وفية له، هو الذي رفضت الموت بشرف مع والدها فقط لتحيى من أجله، هي تقوم بكل هذا أملا في أن يعود فراس و تعيش معه حياتا جديدة. لاحظ السلطان شرود حسناء كما لاحظ بعض التعب على الناس فأمرهم بأن يتوقفوا ليستريحوا قليلا و قال لهم بأن أحد أعيان القرية قد تكفل بجلب الطعام للجميع بعدما أمره بذلك، فرح الناس و تجمعوا في مكان قريب من البحيرة حتى حضر الطعام فأخذ كل واحد نصيبه أما حسناء فقد اختبأت في مكان قريب و جلب لها جهاد نصيبها خلسة فهي لا تأكل أمام الناس و بعدما فرغت من طعامها نزلت إلى بيت جهاد لتجلب إحدى البقرات التي دربتها جيدا على عدة حركات، و لما رجعت إلى ضفاف البحيرة وجدت السلطان مبتهجا و الناس محتفلين فدخلت ببقرتها وسط الناس في مكان يمكن السلطان من رؤيتها، ثم قدمت عرضا رائعا فيه الكثير من الحركات

المدهشة و زادت حركات البقرة و انصياعها لأوامر حسناء في انبهار الجميع و إعجاب السلطان الذي يقف بين الفينة و الأخرى للتصفيق و التعبير عن سعادته و فرحه. استغلت حسناء الظرف و اقتربت من السلطان و قالت له:

– هيا يا مولانا السلطان احتفل معنا، لا تخف من هؤلاء القرويين الطيبين، اقترب منهم و انصهر في داخلهم و المس أياديهم و تبلل بعرقهم و استنشق روائحهم، ستشعر بينهم بالأمان أكثر مما تشعر به في كرسيك الفخم و في قصورك المحصنة، هيا يا مولانا السلطان انزل أرجوك سوف لن يؤذيك أي واحد منهم، و اترك حراسك يرتاحون فقد أظناهم العمل، هيا أيها الحراس ارتاحوا قليلا فمولانا السلطان آمن بيننا.

ابتسم السلطان و قد كان لكلمات حسناء وقع السحر عليه فهو منذ وصل إلى القصر لم يعهد أن يكلمه شخص بكلام جريء دون تملق و تزلف، و أول مرة يسمع كلاما مقنعا و تلقائيا، و دون أي اعتراض نزل فرحا مهللا و تسرب وسط الناس الذين بهت بعضهم من هول ما رأى، و آخرون يتلمسون ملابس السلطان الفاخرة، و بعد وقت وجيز و دون أن يرجع الى كرسيه أمرهم بأن يعودوا لعملهم و بقي هو بينهم فطلب منه أحدهم بأن يحمل حجرا بيده ليضعه في مكان بارز حتى يكتبوا اسمه عليه، ففرح بذلك كثيرا، و بوجوده زاد نشاط الناس و تحمسهم للعمل و طبعا بنفس النظام و الدقة و في أجواء كلّها فرح و ابتسامة، إلى أن أفل القمر و بدأ ضوء الفجر يتسرب للمكان ، و تدريجيا انتشر الضوء و بدأ الناس يروا وجوه بعضهم البعض، و تفاجئ السلطان و هو يرى الناس يتحركون حفاة بملابس رثة غير مكترثين بما تطأه أقدامهم من أشواك و حجارة فعاد إلى مجلسه و عاد الحراس إلى أماكنهم و تواصل العمل إلى أن أشرقت

الشمس و زرعت أشعتها على مياه البحيرة التي بدت و كأنه تم نثر اللآلئ على سطحها و كلما هب نسيم و حرك مياهها الهادئة تزداد لمعانا و ألقا، و انعكست أشعة الشمس من سطح البحيرة على وجوه الناس فبدت وجوههم ناصعة رغم التعب الذي نال منهم، أما السلطان فقد سحره المكان فنسي الأشغال و راح يجول بنظره بين الغابة و البحيرة، أما جهاد و حسناء فظلّا محافظين على نشاطهما و توجه جهاد إلى السلطان و قال:

– مولانا السلطان العمل أشرف على النهاية، سنكمل هذه المرحلة اليوم قبل أن تشتد حرارة الظهيرة.

أجابه السلطان بمرح قائلا:

– فعلا عمل رائع، و جو رائع و مكان ساحر، لم أتخيل في حياتي كلها أن أعيش هذه اللحظات الجميلة ، هيا يا أعيان القرية تحركوا و ساهموا فيما نقوم به، آمركم بأن تقدموا لهؤلاء الناس وليمة لن ينسوها أبدا و سيساعدكم الطباخين و الخدم الذين جاؤوا معي.

فرح أعيان القرية بعدما كانوا مغتاظين و مقصيين من العمل مع الناس، فما كان منهم الا أن نزلوا الى القرية مسرعين و كأنهم يتسابقون و بعد وقت وجيز عادوا محملين بالفواكه و البقول و جلبوا معهم بقرة ، و شرعوا بمساعدة خدم السلطان في تحضير الوليمة. حضرت الوليمة و أذن السلطان للجميع أن يجلسوا تحت ظل الأشجار و اتخذ هو أيضا مكانا له بينهم على الأرض، و في أجواء يملؤها الفرح و السرور تناولوا طعامهم، كان القرويين فرحين لأنهم أول مرة يأكلون طعاما فاخرا و شهيا، و كان

السلطان فرحا لأنه أول مرة يتناول طعاما في مثل هذه الأجواء دون شكليات و دون زينة و بهرج، و بعد الانتهاء من الأكل طلب من الخدم و الحراس أن يجهزوا له مكانا يرتاح فيه و اتفق مع الناس على العودة في المساء للعمل كالعادة ليلا حتى ظهيرة اليوم الموالي، و هكذا تواصل العمل لعدة أيام و كانت أوقات الراحة تتخللها ولائم و بعض العروض التي تقدمها حسناء و بقرتها و كذلك بعض الألعاب المثيرة التي يقدمها بعض شباب القرية، و ذات صباح أعلن جهاد عن نهاية الأشغال فعم الفرح و عمت الهتافات بحياة السلطان الذي كان حاضرا طوال مدة العمل، أما حسناء فقد حضرت أيضا في ذلك اليوم المشهود حيث كانت تغيب أحيانا لعلاج المرضى و الاعتناء بوالدة جهاد.
نزل السلطان من كرسيه و اندمج وسط الناس المحتفلين فأمسكه جهاد من مرفقه و قاده نحو الحجر الذي خطّ عليه اسمه و طلب منه أن يرفع الغطاء عن الحجر و يعلن عن بناء البحيرة، ثم طلبت حسناء من الناس بأن يصمتوا و حسّستهم بأهمية اللحظة فصمت الجميع، ليرفع السلطان الغطاء عن الحجر و يلقي خطابه قائلا:

– أيها الناس الطيبون ، أنا سعيد جدا باللحظات التي عشتها بينكم و التحمت بكم و شاركتكم انجازكم العظيم هذا، أشكركم كثيرا لأنكم كتبتم اسمي على حجر هذه البحيرة، التي ستخلد أسمائنا طوال بقائها صامدة أمام السيول و العواصف، و نتمنى أن تبقى صامدة فقد كلفت عليها الشخص الذي اخترتموه أنتم لأمانته و كفائتة و نزاهته، فهو سيحافظ عليها و يعتني بها و يسهر على توزيع المياه بينكم بالعدل خلال مواسم الجفاف، المطلوب منكم فقط احترامه و مد يد المساعدة له كلما احتاج ذلك، و عليكم أيضا أن تسهروا على أمنه و أمن أسرته و غذائهم و لباسهم و مسكنهم، هذه

البحيرة ملك لكم و عليكم أن تحافظوا عليها و لا تلقوا فيها الأوساخ و الحجارة و جثث الحيوانات النافقة، و عليكم أن لا تسرفوا في استغلال المياه خلال مواسم الجفاف، فالماء نادر و ثمين، و ازرعوا الأرض بما لذ و طاب من الفواكه و البقول و النباتات، المطلوب منكم فقط العمل بجد و توفير و تنويع المنتجات و أعدكم بأن أرسل إليكم كبار التجار ليأخذوا منكم المنتجات بأسعار مجزية و سأقوم بتأمين الطريق المؤدية إلى القرية و أنظفه من قطاع الطرق و اللصوص، و سأخفض الإتاوة كلما كان الإنتاج جيدا و وفيرا، سأترك لكم في القرية ثلة من أكفأ الحراس فقط ابنوا لهم مقرا و سيسهرون على سلامتكم و أمن بيوتكم و مزارعكم، و سيسهرون أيضا على سلامة البحيرة، سأرسل لكم أيضا من المدينة قاض لتحتكموا إليه ، سأرسل إليكم أمهر الحرفيين ليدربوا أبنائكم على الصناعة، أعدكم بأن تصبح قريتكم هذه منارة من منارات البلاد يطيب فيها العيش ، و سأتكفل بنفسي برعاية المحتاجين من شيوخ و أيتام و كل من لا يقدر على العمل و تدبير رزقه في هذه القرية. الآن بعدما قمنا معا بهذا العمل الجبار و احتفلنا به يحق لنا أن نرتاح قليلا، و سأرتاح في بيت أحد أعيان القرية لبضعة أيام حتى أتقبل شكواكم و أعرف احتياجاتكم، ثم سأغادر بعد ذلك و سيذهب معي جهاد الذي سأعينه لما أرجع للقصر وزيرا و مستشارا خاصا لي و سأكلفه ببناء بحيرات أخرى في كل المناطق التي تحتاج الماء، عليه أن يبحث عمن سيبقى في بيته و يهتم ببقراته و حقله لأن والدته أيضا ستكون معه في القصر، كذلك الجنية مكانها في القصر، ستكون حارسة القصر و مستشارة خاصة لي، و سأكلفها برعاية المرضى في المدينة و بمتابعة كل ما يهم الصحة و النظافة في القصر و في المدينة و عليها أن

تجهز عدتها للسفر. عندي كلام كثير أريد أن أقوله لكم و وعود كثيرة أريد أن أعدكم بها لكن الوقت لم يكن ليكفي فأنتم أغرقتموني بكرمكم و طيبتكم و عفويتكم، أشكركم كثيرا و لقائي بكم سيبقى ذكرى جميلة في حياتي كلها شكرا لكم، و تفضلوا لنغادر المكان كي نرتاح .

تعالت الصيحات و الأهازيج و تحلق الناس حول السلطان محاولين لمسه و تقبيله و شكره، فتقدم الحراس و أخرجوه من وسط الناس و أركبوه في العربة و بسرعة تحركوا في اتجاه القرية فتبعهم الناس هاتفين بحياة السلطان إلى أن وصلوا إلى البيت الذي سيقيم فيه، أما جهاد و حسناء فعادا إلى بيت جهاد و قد كانت حسناء شاردة الذهن تفكر فيما يمكن القيام به في قصر السلطان فهي تعرف كل أركانه، و تعرف كل مداخله و مخارجه، أما جهاد فقد كان فرحا و مبتهجا و بشر والدته بأنها ستعيش معه في قصر السلطان، و بعدما لاحظ شرود حسناء سألها عن السبب فأجابته بهدوء:

– سامحني يا جهاد، كنت أفكر فيما سنفعله في الأيام القادمة فالمسؤوليات ستكون كبيرة، و سيحملنا هذا السلطان حملا ثقيلا لا طاقة لنا به، هو يريد أن يستفيد من خبرتنا لينجح في بسط نفوذه على البلاد، لكن في كل الحالات نحن سنخدم بلادنا و سنخدم الناس و نساهم في تطوير عيشهم و إنقاذهم من الجوع و العطش و المرض، عليك أن تذهب إلى القرية في أقرب وقت لتبحث عن شخص محل ثقة ليبقى في البيت و يعتني بالحقل و البقرات.

أجابها جهاد:

– أجل يا حسناء سأفعل.

انتفضت حسناء و هرعت نحو الباب تبحث عن والدة جهاد ثم رجعت له و خاطبته بلهجة حازمة و قالت:

– لا تذكر اسمي ثانية، كن حذرا فأي خطأ من هذا النوع قد يكلفنا أعمارنا خاصة في القصر.

شكر جهاد حسناء و خرج متجها نحو القرية أما هي فانهمكت في جمع مستلزماتها و عقاقيرها و كل ما ستحتاجه في حياتها الجديدة، و أخذت جزءا من كنزها و خبأته في ثيابها، و بينما هي مشغولة دخلت عليها والدة جهاد و قالت لها:

– أيتها الجنية ، لقد أدخلت البهجة و الفرحة على حياتنا التي كانت مظلمة و داكنة، و لا أدري كيف أشكرك و أرد جميلك، أنا كنت أرغب في أن أكمل سنوات عمري هنا على هذه الأرض بين بقراتي، لا أحب القصور و لست قادرة حتى على تخيل شكلها و أبوابها و أفرشتها.

أجابتها حسناء:

– ستكونين معنا بخير في القصر، ولدك جهاد سيصبح له شأنا كبيرا في القصر و أنا متأكدة أنه سيكون من المقربين من السلطان لأنه رجل شهم و خدوم و يحب عمله، حياة القصور جميلة و رائعة ستنعمين بفراش دافئ في الشتاء و بغرفة منعشة في الصيف و تأكلين ألذ الفواكه و المأكولات، ستنعمين بالحمامات الساخنة و تتنزهين في

البستان حيث الخضرة و الأزهار و الرياحين، ستكونين بفضل جهاد محل احترام الجميع في القصر.

ابتسمت لكلامها ثم ساعدتها في جمع الأمتعة و تنظيمها ثم دعتها لأن تتناول العشاء معها هي و جهاد، الذي عاد في المساء متعبا و تناول معهما العشاء، فتحدثوا كثيرا و ضحكوا كثيرا، حتى آخر الليل لتغادر حسناء و تدخل إلى مخدعها، و هناك هاجت عليها الأشجان و الذكريات، حيث انصبت على قلبها الهموم و الآلام دفعة واحدة ، رغم ما عاشته من فرح و سعادة بالانتصار الذي حققته، حيث كلما تدفق الفرح على قلبها إلا و عادت صورة فراس بكل تفاصيلها أمام عينيها، و تمنت لو أنه عاش معها هذه اللحظات الممتعة، لكن ما زاد في توتيرها هو شعورها بشيء ما يجذبها إلى جهاد فهو لم يكن مرهف الإحساس كفراس الذي كان قادرا على البوح لها بحبه و التغزل بها، ربما جهاد كان خجولا لكنه مثال للرجل الوفي الشهم وصاحب المبادئ، و هو صبور و قادر على التضحية من أجل الآخرين، بينما كانت تحاول إخماد نيران الذكريات بالبحث عن النوم فوجئت بجهاد واقف بجانبها و يرمقها بنظرات جريئة، هي نفسها النظرات التي أربكتها من قبل، في هذه المرة تمالكت نفسها و سألته عن سبب وجوده بقربها و عدم خلوده للنوم، فانتابه بعض الخجل فحاول أن يكلمها كلاما عاما و يشكرها و يسألها إن كانت الأجواء و العشاء قد أعجبها، ثم صمته قليلا يبدوا أن في فمه كلام يصعب عليه التفوه به، فوقفت حسناء و التفتت إلى البقرات دون أن تجيبه، و في غفلة منهما سمعته يطلب منها بصوت خافت و بكلمات سريعة أن تنزع القناع كي يرى وجهها الجميل، فاهتز بدنها و شعرت بالخوف و الرهبة فهرعت نحو البقرات

و كأنها تريد أن تحتمي بهم، و راحت تمسح على ظهورهم و أعناقهم و تقول لهم بأنها ستشتاق لهم، فاقترب منها جهاد و أجابها قائلا:

– سأشتاق لهم أنا أيضا كما سأشتاق لك، يبدوا أنك بدأت تبتعدين عني، أشعر بذلك، فأنت الآن أمامي و كل تصرفاتك و ملامحك التي أرى شطرها فقط توحي بأنك تبتعدين، و سيزيد بعدك هناك في القصر، فسيأخذك شغلك مع السلطان، و للأسف كل هذا سيحدث بعدما تعلقت بك ، بعدما صرت الهواء الذي أتنفسه، و بعدما باتت حياتي صعبة و مؤلمة في غيابك، أتركي قناعك فأنا أراك و لو لبست كل أقنعة الدنيا، لأني أرى صوتك و كلماتك و أرى قلبك الذي ينبض حبا و صدقا و عطاء و أرى عقلك الذي يتقد ذكاء و فطنة و علما، أنا أراك حتى و ان غبت عني، أراك في كل الوجوه الصادقة و القلوب الطيبة الحنونة أنا أراك دائما.

خرّت حسناء جالسة بجانب إحدى البقرات و ظلت تداعب رقبتها في صمت و هي تسمع كلام جهاد محاولة أن تفكر في إجابة جاهزة قبل أن يسري كلامه في قلبها و وجدانها، لكنها عجزت عن الرد حيث تسرب كلام جهاد كالماء في عروقها و أفقدها توازنها، فرفعت يدها كالغريق بحثا عن يد جهاد و لما أمسكت يده تعلقت به ووقفت من مكانها ثم لثمت يده و هربت نحو مخدعها و تظاهرت بالنوم فغادر جهاد المكان و عيناه غارقتان في الدموع، مرّت تلك الليلة عليها أطول من سنين عمرها كان شطرها الأول فرح و سرور و شطرها الآخر ألم و شجون، و في صباح اليوم الموالي أفاقت حسناء و جهاد و والدته متأخرين على صوت القروي الذي جاء ليتفق مع جهاد و يعاين الحقل و البيت و الزريبة و الأبقار و واصل الجميع تحضيراتهم للسفر.

حان موعد الرحيل إلى القصر، كانت الأجواء احتفالية في القرية و تعالت الهتافات المنادية بحياة السلطان و تجمهر الناس لتوديعه بالورود و الرياحين، أما حسناء و جهاد فقد كانا منشغلين بتهدئة والدة جهاد التي كانت حزينة و منفعلة و تبكي و ترفض أن تغادر و تقول أنها لا تريد أن تموت خارج بيتها فجرّها جهاد جرّا و كأنه يقتلعها من الأرض ثم أركبها في العربة التي أرسلها لهم السلطان، ثم اتجهوا إلى القرية حيث رحب بهم السلطان و أمر بأن تكون عربتهم في مقدمة القافلة خلف عربته، كما وعدهم بوجبة لذيذة عند الاستراحة في منتصف الطريق، انطلق الحراس يبعدون الناس كي يفسحوا المجال للقافلة، و قد كانت تصرفاتهم مع الناس لينة و سلسلة مقارنة بسلوك الغطرسة و العنف الذي مارسوه لما جاء السلطان إلى القرية، حيث يبدوا أنه أمرهم بأن يعاملوا الناس بليونة، غادرت القافلة القرية ببطء و صعوبة بعد توديعها بحرارة من قبل القرويين الذين هتفوا مطالبين السلطان بالعودة مرة أخرى، كانت القافلة محفوفة بالحراس من كل جانب لا يتركون لا شاردة و لا واردة، و يفتشون جوانب الطريق و كل حجر أو حفرة أو أكمة يصعدون كل القمم و التلال المشرفة على الطريق، حتى يتفادوا أي رماة أو قطاع الطرق حيث لا مجال للخطأ عندهم، و جهاد كان يستمتع بالرحلة و بالمناظر الخلابة و يحدث والدته عن الأماكن و عن المراعي و عن كل ما تلمحه عينيها و تتساءل عنه كطفل صغير، أما حسناء فأعادت لها الرحلة ذكريات رحلاتها مع والدها و قد لاحظت أن منظومة الحراسة هي نفسها و لازالت تعمل بنفس الكفاءة و طبعا ذلك يعود إلى كون السلطان الجديد كان رئيس الحرس أثناء حكم والدها، الفرق الوحيد هو أن الحراس غيروا سلوكهم مع الناس، و ربما كان هذا السلطان سابقا يعامل

الناس بقسوة كي يزيد في نقمتهم على والدها، أو ربما والدها هو أيضا كان يأمره بذلك فهو لم يكن قديسا، فتذكرت كيف أمسك الحراس، في إحدى الرحلات مع والدها راع كان يبحث عن أغنامه و اتهموه بأنه يريد قتل السلطان وعرقلة القافلة، فأمر والدها بنفسه بقطع رأسه كي يبقى عبرة لكل من يحاول النيل من الوطن، و بينما كانت كل هذه الذكريات و المتناقضات تدور في رأسها انعرجت القافلة في مسلك جبلي وعر، فنظرت إلى أسفل الجبل فرأت الوادي لتتذكر الأيام الصعبة التي عاشتها بعد هروبها من القصر، فزاد حزنها و ألمها و بكت و باغتها النعاس فنامت.

وصلت القافلة إلى منتصف الطريق فتوقفت للاستراحة في مكان جميل في غابة وارفة الظلال فيها فسحة كبيرة تمكن الحراس من تأمين المكان، و حضّروا مكانا للسلطان ليستريح فيه ، ثم تناول الجميع طعامهم في أجواء رائعة يسودها الوئام و التآزر، و جلست حسناء مع جهاد و والدته التي كانت تسأل عن اسم المكان و عن المسافة و عن المدة التي تفصلهم عن القصر، فأجابها جهاد بأنه لم يبقى الكثير و بأن المكان قد كان وكرا لقطاع الطرق و قد أشرف السلطان بنفسه على تنظيفه و القضاء على المنحرفين. و بينما هم يتناقشون صاح المنادي معلنا نهاية الاستراحة، فانطلقت القافلة في اتجاه المدينة بنفس السرعة و بنفس التنظيم الدقيق و بنفس منظومة الحراسة و التأمين، تجاوزت القافلة المسالك الجبلية بسلام و مالت الشمس للغروب فأضفت على الأفق لونا أحمرا بديعا و اكتست بعض الغيوم الصغيرة المعلقة حولها بذات اللون الأحمر مع بعض السواد الذي زادها رونقا و جمالا مما أجبر السلطان على إيقاف القافلة للحظات حتى يستمتع بهيبة و جمال الطبيعة. أطلت القافلة على مشارف

المدينة و لازالت الشمس لم تغرب بصفة نهائية فبدت المدينة واضحة المعالم هادئة و ساكنة فشعرت حسناء بشيء ما يجذبها إلى المدينة فرغبت لو أن لها القدرة على القفز قفزة عملاقة إلى هناك. اقتربت القافلة من الجسر فأمر السلطان الجميع بالترجل فنزلت حسناء من العربة و بحثت عن القصر الذي لم تقدر على رؤيته من الوهلة الأولى و كأنه يتوارى عنها ، فلمحته غارق وسط أشجار كثيفة تطل بعض رؤوسه و تختفي، ثم جالت بنظرها حول أطراف المدينة فرأت مساكن الفلاحين و العمال فتذكرت فراس و تذكرت جولاتها معه في تلك الأماكن البائسة، ثم نظرت إلى جانبي الجسر لتتذكر والدها و أسرتها و خروجها معهم في أمسيات الصيف و الربيع للاستمتاع و النزهة، ثم نظرت إلى أسفل الجسر فتذكرت ليلة سقوط أبيها و هروبها و سباحتها في أسفل الجسر، انتابتها كل الذكريات دفعة واحدة عبر كلّ المناظر التي لامست عينيها، و صارت تمشي هائمة و بخطى متعثرة و كأنها لا تسمع و لا ترى شيء مما اضطر أحد الحراس لدعوتها للعودة إلى العربة لكنها رفضت و واصلت سيرها، لم تكن تشعر بشيء غير الذكريات التي تطرق رأسها كالحجارة، و دون أن تشعر بالزمن و لا بالمسافة و لا بالتعب وجدت نفسها وسط القافلة المتوقفة في قلب الجسر و تسمع جلبة كبيرة بين المرافقين للسلطان، بحثت عن جهاد فرأته ماسكا بوالدته و يحاول مد رأسه و إطالة عنقه لرؤية ما يحدث، و الحيرة بادية على ملامحه، فواصلت سيرها إلى مقدمة القافلة رغم تحذير الحراس لها، لتجد السلطان غاضبا مزمجرا و متوترا يصيح في الحراس صيحات يملؤها الخوف أكثر من الحزم، و جاءه أحد الحراس و كان مذعورا و قال له:

– مولانا السلطان إنهم جمع كبير، و غاضبين كادوا يقتلونني بالحجارة.

دفعه السلطان بعنف حتى أرداه أرضا و قال له:

– ابتعد أيها التافه الجبان، يجب سحق كل هؤلاء المنحرفين، كيف يغلقون الجسر أمام قافلة السلطان؟ ان لزم الأمر يجب حرقهم إنهم أعداء الوطن، اجمعوا لي كل الحراس هنا أمامي.

لمّا لاحظت حسناء انفعال السلطان و رغبته في تصعيد الأمور تدخّلت و قالت:

– مولانا السلطان لا تنسى أنك كلفتني مستشارة لك، فاسمح لي أن أقدم لك رأيي و مشورتي، أولا من قال أن كل هؤلاء الناس الغاضبين منحرفين، و كيف حكمت عليهم أنهم أعداء للوطن؟ هل أنت وحدك من يحدد من هم أعداء الوطن؟ و ماذا يساوي الوطن دون هؤلاء؟ أرى أن تصرفاتك الآن مناقضة تماما لخطاباتك الجميلة التي ألقيتها أمام أهل القرية.

أجابها السلطان بشيء من الهدوء:

– لكنهم يغلقون الطريق أمام موكب السلطان و ان تسامحت معهم سيغلقونه مرة أخرى أمام التجار و المزارعين، و عليّ أن أفرض سلطتي و أتركهم عبرة لمن يعتبر، فالدولة تقاد بالقسوة أحيانا، ثم ماذا تريديني أن أفعل لحل هذه المشكلة؟

أجابته حسناء:

– يجب أن تواجههم، مولانا السلطان يبدوا أن ذاكرتك قصيرة، ألم تكن منذ أيام بين القرويين تلهوا و تمرح و تأكل و تحمل الصخور بيديك، هؤلاء أيضا طيبون مثل القرويين و ليسوا أشرارا و لا منحرفين إنما هم أناس غاضبون عليك، كما كان غيرهم غاضبون على السلطان الذي قبلك، و سيغضب آخرون على السلطان الذي قد يأتي في المستقبل.

احمر وجه السلطان و نتأت عيناه فنظر إليها و قال:

– لما كنت قائدا لحرس السلطان السابق، كان يأمرني بأن اقمع كل من يحتج عليه أو يعبر عن غضبه و كنت أقوم بمهمتي باقتدار، ثمّ ماذا تقصدين بالسلطان الذي قد يأتي في المستقبل؟

ابتسمت حسناء و أجابته:

– في المستقبل، أقصد كلّنا راحلون و لن يخلّد أحدا و ستبقى فقط ذكرى لأن الذكرى أطول من أعمارنا، لذا يا مولانا عليك أن تترك ذكرى طيبة لدى الناس، و تنجز لهم ما يريدونه حسب ما تسمح به إمكانياتك، و لتنجح تعود أن تسمع الناس و تقترب منهم و تهتم بمشاغلهم، و تذكر دائما أنه لا يمكنك إرضاء الجميع و لا يمكنك نيل إعجاب كل الناس، فللناس أنفس و أذواق، فقد لا يحبك بعضهم، أما الآن و هنا فوق هذا الجسر الجميل الذي بناه السلطان السابق على أكتاف الفقراء الذين أكلت جلودهم السياط و أحنت ظهورهم الحجارة، عليك أن تجعل منه جسر محبة و جسر حوار و تفاهم، بدل أن يكون حاجزا يحول دون وصولنا إلى المدينة، أنصحك بأن تعيد الحراس

إلى الوراء و تترك فقط عدد صغير جدا من الحراس دون أسلحة و ليحتفظوا فقط بدروعهم لحماية أنفسهم من وابل الحجارة، و اركب العربة و سأكون معك، و لما تقترب اخرج عليهم و أصغ لهتافاتهم ثم حاول أن تحدثهم و تجيب على تساؤلاتهم، و لا ترد على استفزازاتهم و شتائمهم، و ان عجزت عن الكلام أو وجدت صعوبة في الإجابة سأساعدك، و أنا واثقة أنك لن تحتاجني لأنك قادر على إقناعهم و تهدئتهم، فقط تذكر دائما أن لا تتفوه بأي عبارة فيها تهديد، و ان اشتدّ غضبهم و صعب التصدي لهم من قبل الحراس، سأتدخل بنفسي و أوقفهم بأسلوبي الخاص.

اطمئن السلطان لكلامها و شكرها و ركب العربة و أركبها معه ثم تقدموا إلى مدخل الجسر ليجدوا أنفسهم في مواجهة الناس الغاضبين حيث تعالت صيحات الاستهجان، و تعالت أصوات الشتائم و الكلام البذيء، ثم أخذوا يرددون ، "أيها القائد الخائن، أنت من قتل السلطان"....."أنت من جلب الأجانب إلى أرضنا".....".أنت تريد تجويعنا و تشريدنا"..."ارحل عنا، ارحل ارحل". أشارت له حسناء و اقترحت عليه بأن يخرج عليهم، و ما ان أطل من العربة حتى نزل عليه وابل من الحجارة قاومه الحراس بدروعهم، ثم توقفت الحجارة و عادت الهتافات أشد و أقوى ، حيث يقولون:"أيها الخائن، أنت بعت أرضنا للأجانب، أنت تركت جيوش "الوسا" يرتعون بيننا، أين السلطان، أين دفنته؟". ثم صاح أحدهم بصوت واضح و قال:

– أين الماء، أين الطعام، أين الدواء، المدينة تملؤها الأوبئة و الجرذان و الأوساخ، ستقتلك الأوبئة بعدما تقضي علينا، ماذا يفعل محاربي "الوسا" الذين جلبتهم إلينا من

وراء البحار، لقد دمروا بيوتنا و خربوا ممتلكاتنا، هل ستسحقنا كما كنت تفعل عندما كنت قائدا لحرس السلطان السابق؟ ارحل يا خائن، يا جبان...

تواصلت الهتافات و الشتائم و فجأة قفز أحد الحراس على السلطان و انقلب به على الأرض برشاقة و بعد لحظات تجمع الحراس حول السلطان، ثم عمّ صمت رهيب في المكان فنادت حسناء على السلطان و قالت له بأن يستغل فترة الصمت ليلقي خطابه دون أن يبدي غضبه على محاولة القتل التي نجا منها، و بعد لحظات حدثت جلبة في مكان قريب و مشرف على الجسر يبدوا أن الرماة الذين حاولوا قتل السلطان قد هربوا، و أمام ذهول الجميع بدأ السلطان يخطب قائلا:

– أيها الطيبون، أيها الكادحون، أعرف أن قلوبكم لا تحمل اي ضغينة و أي شرّ إنما أنتم غاضبون مني و هذا حقكم فأنا متفهم لظروفكم الصعبة و ما قمت به انما هو من أجلكم، السلطان السابق لم أقتله، لقد اختفى هو و أسرته و لا أحد يعرف مكانهم إلى الآن، و ما كنت أقوم به سابقا انما هو تنفيذ لأوامره، كنت أقوم بعملي على مضض و كنت أتألم لأجل الناس الذين يتم سجنهم و اضطهادهم لقد كنت أرى بعيني كيف تصرف أموال البلاد في الملذات و القصور فقررت أن أقوم بالتغيير لأجلكم، أنا الآن بينكم ليس معي أجانب و تركت الحراس خلفي لأني أثق فيكم، و حتى الذين حاولوا اغتيالي الآن ليسوا منكم ، أنا لم أستقو عليكم بالأجانب إنما أصدقاؤنا من دولة "الوسا" العظيمة ضحوا بحياتهم من أجل مساعدتنا على تطوير بلادنا و تغييرها، و بفضلهم تغلبنا على السلطان السابق و أوقفنا مخططاته التي كان يريد من ورائها مزيد

قمع الناس و تفقيرهم من أجل مصالحه الشخصية . محاربي "الوسا" يساعدوننا الآن فقط في أمن البلاد و حماية المسالك التجارية و المزارع و الأسواق و أماكن العمل.

هدأ الناس و بدأ الارتياح يدب في وجوههم، لكن بقيت تصدر بعض الكلمات المتناثرة بين الصفوف، و بعض الشتائم المتفرقة من بعض الأركان، إلى أن تقدم رجل عجوز من قافلة السلطان و قال:

– يا بنيّ الكلام الذي قلته الآن قاله السلطان السابق عندما حجز والده السلطان الأعظم و نفى إخوته و استولى على السلطة، و قد وعدنا هو الآخر بالتغيير لكن لا شيء تغير فقط أعمارنا تغيرت، أنت كنت رئيس حرس السلطان كيف لا تعرف مكانه هو و أسرته؟ ثم أريد أن أسألك أين ولدي فراس؟ أعيدوني إلى السجن، اسجنوني.

ثم أجهش الرجل بالبكاء و جلس أمام عربة السلطان، فعاد التوتر تدريجيا و بين صفوف الناس و تعالى الضجيج، و السلطان صامت عاجز عن الردّ، فنادته حسناء و أمرته بأن لا يصمت و حذرته بأن صمته قد يشعل غضبهم مرة أخرى، لأنه لا يملك شيئا يقاومهم به غير الكلام و طلبت منه أن يمدح فراس و أن يعدهم برعاية والده و يدعوه للصعود للعربة. استعاد السلطان أنفاسه، و أشار بيده للناس حتى يصغوا له ثم قال:

– أيها الشيخ الجليل، أنت أب بالنسبة لي، و أنت أب لكل هؤلاء الناس، لا أحد يمكنه أن يملأ مكان ابنك فراس ذلك الشاب الشهم الرائع، لكن اسمح لي بأن أقوم بهذا الدور إلى أن يعود هو من السفر، هيا اصعد إلى عربتي و سنأخذك إلى القصر معززا مكرما و لن تدخل السجن مرة أخرى، و أنتم أيها الناس الطيبون، أعدكم بأن

تصرفات السلطان السابق و ممارساته لن تعود، و سيسود في بلدنا العدل و القانون و احترام الناس لبعضها البعض، أعدكم بأن أساهم في تطوير عيشكم، و أن أوفر لكم الخدمات و الأمن، و أن نبني معا بلدنا و نحسن المدن، و نبني الجسور و البحيرات، و نوفر موارد رزق لكل الناس، و أن نرعى الفقراء و الشيوخ و الأطفال اليتامى، و سنعلم الأطفال منذ الصغر فنون الطب و الطبخ و الصناعات، سنسعى لتأمين كل المسالك و المزارع و مواقع العمل، سنواصل استرجاع الأراضي و الممتلكات المنهوبة من قبل المقربين من السلطان السابق و نرجع أموالها إلى خزانة البلاد، سأفتح في القصر مكانا يزوره الناس للعلاج و يتعلّمون. أما بالنسبة لأصدقائنا محاربي "الوسا" هم فعلا ساعدونا و يستحقون الشكر و الثناء، لكن هناك منهم من قام بانتهاكات و قد فتحنا تحقيقا في الموضوع و سيأتي قاض من دولة "الوسا" ليحاكمهم، كما أعدكم أيضا بمعاقبة حرس السلطان إن قام بعضهم بتجاوزات، أعرف أنه فيكم من غضب أو استغرب احتكامنا لقاض أجنبي، و لهذا سأجيبكم، فبلاد "الوسا" وصلت درجة من الرقي تجعل القضاء عندهم مستقل، و هذا ما نطمح إليه في بلادنا و سنعمل على تحقيقه.

بدأ الهدوء يعود فاقتربت حسناء من السلطان و همست له و طلبت منه أن يعدهم بأنه سيعود مرة أخرى و يودعهم، ففعل ما قالت له ثم مد يده لوالد فراس و أصعده بنفسه إلى العربة أمام دهشة و انبهار الجميع من تصرفات السلطان التي لم يتوقعوها، حلّ الظلام و تم إضاءة القافلة التي تحركت في اتجاه القصر بعدما انسحب أغلب الناس و تم فتح الجسر، و باقتراح من حسناء أمر السلطان الحراس بأن يسيروا خلف

القافلة حتى يمروا وسط ما تبقى من الناس دون حراسة مشددة حتى يثبت لهم ثقته فيهم و يكسب هو أيضا ثقتهم. اقتربت القافلة من القصر و شعر السلطان بالارتياح و أرخى جسده على الكرسي، و سحب منديلا ليمسح به العرق المتصبب على وجهه و جبينه ثم التفت إلى حسناء و قال لها:

– أنت فعلا جنية، لا يوجد بشر عادي تخطر بباله مثل هذه الأفكار، لم أكن أتصور أنني سأتجاوز كل هؤلاء الغاضبين الهمجيين بمثل هذه الليونة و السهولة.

أجابته حسناء:

– هؤلاء ليسوا همجيين، بل هم أناس صادقين سترى بأم عينك الناس الهمجيين الذين سيستقبلونك قرب القصر بالهتافات و بالمدح و الزهور و الاحتفالات الزائفة، هؤلاء المتملقين احذرهم يا مولاي، و أنصحك بأن تأمر الحراس بأن يكونوا أشداء معهم، لأن مثل هؤلاء المتملقين سيرون ليونتك و تسامحك ضعفا لأنهم يعشقون الهيبة الزائفة و يحبون أن يستفيدوا دون أن يبذلوا أي جهد أو عمل، أما أولئك المحتجين الذين وجدناهم قرب الجسر هم أصحاب حق و يريدون فقط منك كلمة صادقة و معاملة حسنة، و كلما كنت لينا معهم كلما قدروك، فمعاملتهم بقسوة لا يكترثون بها لأنه ليس لديهم ما يخسرونه، و كرامتهم هي أثمن شيء يملكونه.

لم تكد حسناء تكمل كلامها حتى رجع أحد الحراس ليخبر السلطان بوجود حشد كبير قرب القصر يحضرون استقبالا كبيرا و يفرشون الأرض بالزهور و بالأقمشة الفاخرة، بهت السلطان و أصابه الذهول و ظلّ يحدق في حسناء بنظرات كلها خوف و رهبة،

ثم شكرها و طلب منها أن تكون دائما إلى جانبه. وصلت القافلة إلى مشارف القصر، ارتعدت فرائص حسناء و خفق قلبها، و غلبها البكاء فكتمت أنفاسها حتى لا يسمعوا زفراتها، و عاودتها نوبة الذكريات و ظلت شاردة، و حتى السلطان الذي كان يلتفت إليها بين الفينة و الأخرى تفادى أن يكلمها و هي في تلك الحالة، ربما أرعبه منظرها بالقناع و ظن أنها تتحدث مع كائنات خارقة مثلها. تناثرت الورود و أكاليل الياسمين على العربة و تعالت الصيحات و الهتافات بحياة السلطان، كان الحراس يدفعون الناس و يدوسونهم لكن التدافع يزداد ، فصعد الحراس إلى عربة المئونة و بدؤوا يلقون المأكولات على الناس فتحولت أنظارهم و تدافعوا بحثا عن رغيف يرميه الحراس، و بهذه الطريقة تم تسهيل فتح الطريق، حيث كان المشهد مؤلما و بعض الناس تعرضوا للضرب و قد يكون مات منهم البعض بسبب التدافع. أفاقت حسناء من شرودها على صرير الباب الكبير الذي تعرفه جيدا فنصحت السلطان بأن يشكر الناس على استقبالهم و احتفائهم به قبل الدخول إلى القصر.

دخل الجميع للقصر و حسناء كانت بجانب السلطان، الخدم و الحراس داخل القصر كان بعضهم يرتعبون كلما رأوها بسبب القناع، عرفت بعضهم لكن أغلبهم تم تغييرهم، و لاحظت أن الأمور تسير في القصر بشكل منظم أكثر مما عهدته سابقا، صفق السلطان فأقبلت عليه امرأة متوسطة العمر يبدوا عليها الجدية و الوقار، و يبدوا أنها مدبرة القصر، فقال لها:

– يا كبيرة الخدم، هل وصلتك رسالة فيها أوامري؟

أجابته:

– أجل يا مولاي لقد حضرت جناحا لمستشارتك الخاصة و الجناح يفتح على بوابة البستان، و جمعنا لها الأعشاب و العقاقير و قرب جناحها قاعة كبيرة تستوعب عدد كبير من الناس، أما مستشارك الثاني فقد حضرنا له جناحا هو و والدته.

شكر السلطان المدبرة و أمرها بأن تحضر غرفة لائقة لوالد فراس، و أمرها بأن ترشد الضيوف الجدد و تعلمهم كل نواميس القصر، و أمرها بأن تحضر مأدبة، انصرفت المدبرة لتنفذ الأوامر، ارتاحت حسناء في غرفتها الجديدة التي تعرفها جيدا حيث كانت قاعة استقبال كبيرة تستغلها والدتها في السهرات و الأمسيات.

عند حضور المأدبة جلس الجميع حول مائدة كبيرة، تناولوا طعامهم عدى حسناء التي جمعت الأكل في صرة و ظلت جالسة معهم، و جلب انتباهها الضيف الأجنبي الجالس قرب السلطان و هو أيضا كان ينظر إليها بريبة و خوف، و تدخل جهاد ليسأل السلطان عنه فأجابه قائلا:

– صديقي جهاد، انه قائد محاربي "الوسا" في بلادنا و حتى البلدان المجاورة، انه رجل طيب و رائع و هم يساعدوننا على حفظ الأمن في بلادنا.

رحب به جهاد و رحب هو بالجميع، و اختتمت المأدبة في أجواء رائعة كلّها ضحك و ابتسامات و مجاملات، ثم تفرقوا كل إلى جناحه عدى السلطان الذي رافق هو و المدبرة حسناء إلى باب غرفتها ليودعها و يطلب منها أن تحضر في مجلسه في الغد.

دخلت حسناء إلى غرفتها، و حاولت النوم لكن دون جدوى، فهي لأول مرة تقيم في القصر كزائرة بعدما كانت تعيش فيه أميرة و هي تعرف كل أركانه و حيطانه و نوافذه و

أبوابه الظاهرة و أبوابه السرية، حتى الجناح الذي وضعوها فيه تعرفه جيدا و لها معه ذكريات، القاعة بجانبها كان يستغلها الخدم للراحة، و يبدوا أن السلطان قد خصصها للعلاج فهي تنبعث منها رائحة العقاقير و الأدوية، و يبدوا أن السلطان قد حدثوه كثيرا عن خوارقها و مهاراتها، نزلت من مخدعها و خرجت تتجول في أروقة القصر فوجدته فارغا هادئا فقط الحراس يتحركون بشكل منتظم، رجعت إلى غرفتها ثم وقفت أمام المرآة و رفعت القناع عن وجهها فوجدته تغير كثيرا و شحب ربما من كثرة التعب و الإرهاق أو من شدة الحزن، كما بدت لها آثار القناع على وجهها، انتابها الرعب و تملكتها الدهشة من هول ما حلّ بوجهها و جسمها بعد أكثر من عام من الغياب عن القصر، حيث عادت لذاكرتها أيام لعبها مع إخوتها في البستان، و كيف كانت تقف أمام نفس هذه المرآة لتتزين بأفخر الحلي و أجمل الثياب، فشعرت بجسدها يرتجف رغم أن الطقس لم يكن باردا، و بدأت الأصوات تتعالى في أذنها، أصوات ضحكات إخوتها و والدتها، ثم تذكرت اللحظات الأخيرة قبل هروبها من القصر و تذكرت كؤوس السم التي أجبرهم والدها على تجرعها، فأطلقت العنان لدموعها كي تنساب بحرية على وجنتيها، حيث لم تكن تنساب بحرية أثناء لبسها للقناع، بعد البكاء مسحت عينيها بكمّها فاستعادت المرآة صفائها، و رأت فيها صورة شابة تختبئ في جسدها المتناسق رغم نحوله، و رأت شعرها الغثيث المجعد بسبب أشعة الشمس و ما علق به من أتربة و أشواك، فاستعادت ثقتها بنفسها و رأت في جسدها جمال و أنوثة و رقة كادت أن تندثر بسبب ما عاشته من معانات، لكن مع ذلك أدركت أن المدة الأخيرة من حياتها أجمل من شطر عمرها الذي ضاع في أشياء تافهة داخل أسوار هذا

القصر، و الشيء الوحيد الذي كان ينغص عليها متعتها هو غياب حبيبها فراس الذي اشتاقت إليه كثيرا، مرّ الليل على حسناء أطول من عمرها و هي شاخصة أمام المرآة إلى أن سمعت جلبة في القصر هي تعرفها جيدا و تتذكرها، فهي جلبة الخدم و الطباخين الذين أفاقوا لبداية أعمالهم باكرا، فوضعت على وجهها بعض الأدوية' ثم دخلت إلى قاعة العلاج بجانب غرفتها لتجدها مجهزة بمقاعد يبدو أنها ستكون للدروس أيضا، فرتبتها جيدا ثم رجعت إلى غرفتها ووضعت القناع و ثبتته جيدا و خلدت للنوم لتستفيق في اليوم الموالي على صوت المدبرة التي كانت مهذبة معها حيث قالت لها:

– سيدتي، مولانا السلطان أوصانا بأن لا ندخل غرفتك، و لكنك اليوم تأخرت كثيرا في النوم فالشمس في كبد السماء، و مولانا السلطان انتظرك منذ الصباح، هذا فطورك، اسمحي لي بالمغادرة ان كنت لا تحتاجين أي خدمة، و لا تنسي أن تذهبي إلى مجلس مولانا السلطان فهو في انتظارك و قد ألغى كل لقاءاته اليومية فهو اليوم يريد مقابلتك فقط أنت و أصدقائك الذين جاؤوا معك من الجبل.

شكرتها حسناء و سمحت لها بالخروج ثم تناولت الفطور حيث لاحظت أن الأكل قد تغير طعمه عما كان سابقا ربما السلطان الجديد قد غير الطباخين أيضا، أو ربما لم يكن يعجبه الطعام في عهد السلطان السابق لكنه كان يتناوله فقط للمجاملة، لم تترك حسناء شيئا في الطبق ثم لبست ردائها و ملابسها الغريبة ثم خرجت و دون أن تستعين بأحد شقت أروقة القصر بسهولة إلى أن دخلت على السلطان فوجدته متربعا على عرش أبيها فأصابها الهلع أول مرة، و شعرت برغبة كبيرة في الانقضاض عليه و كتم

أنفاسه إلى الأبد، انتقاما منه على ما فعله بأسرتها، لكنها تمالكت نفسها و تنفست جيدا ثم ألقت عليه التحية الصباحية و جالت بنظرها في المجلس لترى جهاد في جهة و في الجهة المقابلة القائد الأجنبي قائد محاربي "الوسا" و الذي يبدو أنه يلازم السلطان في كل اجتماعاته. أذن لها السلطان بالجلوس فجلست و نظرت إلى جهاد الذي ابتسم لها ابتسامة صافية فيها الكثير من الحب و السرور، كما ابتسم لها ذلك الأجنبي رغم نظراته الخائفة، و لمزيد إرباكه قامت حسناء ببعض الحركات الغريبة و قالت بصوت منخفض كلاما غريبا، صمت الجميع و ظلوا يسترقون النظر لبعضهم البعض لبرهة من الزمن إلى أن صفق السلطان فجاء خادم ليفرق صحون الفواكه على الحاضرين، تناول السلطان أولا حبة و أخذ يأكلها بنهم و يتلذذ بها، و راح يمدح طعمها ثم قال:

– هذه الفواكه من بستان القصر، لما تأتيكم الفرصة و تتجولون فيه ستتمتعون حتما بجماله و لذة فواكهه و تستنشقون طيب زهوره، إنه بستان رائع و كذلك البساتين و الحدائق المحيطة بالقصر كلها رائعة و هذا بفضل الينابيع و الجداول القريبة من النهر، أظنّ أن صديقنا جهاد سيجعل من كل مكان سيزوره في البلاد أرضا خصبة تملؤها البساتين و الحقول، و سيجعل المياه تتدفق في كل الفصول.

ابتسم جهاد و أجابه بالموافقة و وعده بأن يتقن عمله في بناء بحيرات متقنة و وعده بأن مشكلة المياه ستحل في السنوات القادمة، فتدخلت حسناء و اقترحت أن ترشح كل قرية شخص محلّ ثقة ليتعلم العمل مع جهاد ثم يعودوا إلى قراهم للشروع في البناء و بالتالي ربح الكثير من الوقت، فاعترض السلطان على اقتراحها و برر ذلك بأنه

يثق فقط في جهاد و أن هذه الفكرة سيطبقها في المستقبل. في تلك الأثناء كان قائد محاربي "الوسا" يصغي بانتباه شديد للحوار الدائر بين السلطان و معاونيه الجدد، محاولا أن يستنتج أكثر ما يمكن من المعلومات، ثم تدخل قائلا:

– أرى أنكم ستهدرون مالا كثيرا و جهدا كبيرا في هذه البحيرات ثم من يضمن لكم أن القرويين سيقومون بنشاطات زراعية هامة إن أنتم وفرتم لهم هذه البحيرات، فالأرض جافة و لا يمكنها أن تنتج بوفرة، أنصحكم بأن تجلبوا جميع احتياجاتكم من بلاد "الوسا" نحن سنشحن لكم السلع مجانا فقط ادفعوا ثمنها، التجار في بلادنا يجوبون كل بقاع الأرض.

لم تستطع حسناء السيطرة على نفسها فأجابته بانفعال:

– من أجل هذا اذا ساعدتمونا؟ من أجل هذا أتيتم هنا بأسلحتكم و عتادكم؟ و السلطان يريد أن يقنع الناس أنكم أصدقاء و انكم جئتمونا فقط من أجل الصداقة و من أجل حماية الناس من بطش السلطان السابق، في حين أنكم تبيعون لنا أغلب المواد و الأسلحة و العربات بأثمان باهظة، و تحملون من عندنا عدة مواد تستعملونها في صناعتكم مجانا، و تسيطرون على طرقاتنا و موانينا، هل تريدوننا أن نبقى دائما جياع في انتظار مساعداتكم؟ نحن نريد أن نبني أنفسنا و نخدم أرضنا كلفنا ذلك ما كلفنا، أنا الآن في حضرة مولانا السلطان و قد صدحت بما جال في خاطري و ليعذرني إن رأى في كلامي تجاوزا لمقامه، و ليسمح لي بالمغادرة.

بهت الجميع و السلطان تملكه الرعب، أما الأجنبي ابتسم ابتسامة صفراء فيها الكثير من الدهاء، أما جهاد فقد علت محياه ابتسامة عريضة و كأنه انتشى بالنصر الذي حققته حسناء التي بدأت تقوم بحركات غريبة لتبث الرعب في قلب ذلك الأجنبي الذي بدأت حبات العرق تنبت في وجهه كالفقاقيع، ثم ذهبت إلى غرفتها و انزوت في مخدعها و ظلت تفكر، حيث اكتشفت أن الأمور لا تسير بالبساطة التي تخيلتها، صحيح أن والدها أيضا كان خاضعا لسلطة "الوسا" لكن آنذاك لم يكن الناس يعرفون شيئا، لذلك دولة "الوسا" طورت في أسلوبها و طرقها لإحكام السيطرة على البلاد بأقل التكاليف، حيث يبدوا مبعوثهم صعب المراس و ملاصقا للسلطان. لم يمر وقت طويل على دخولها الغرفة حتى لحق بها جهاد و قبلها فوق القناع لمّا تأكد من خلو المكان و قال لها:

– لقد كنت رائعة ، مولانا السلطان كان حائرا و منزعجا لكن أظن أنه قد فهم الدرس، أما ذلك الأجنبي فلم يتفوه بأي كلمة بعد مغادرتك إلى نهاية المجلس، أنا سأجهز نفسي للسفر إلى قرية في وسط البلاد لنبني فيها بحيرة، سأشتاق لك كثيرا اعتني بوالدتي فأنت التي أعدتي في قلبها الحياة و السعادة.

أجابته:

– شكرا لك أنت أيضا يا جهاد أنت إنسان رائع، أنت و والدتك أعدتما لي حب الحياة و أعطيتما لحياتي طعما و لونا، شكرا لكما و كن مطمئنا عليها، سأعتني بها كطفل صغير، أنت فقط كن حذرا فنجاحك سيجلب لك حتما الأعداء و المناوئين، راقب جيدا العمل، لا تترك شيئا للصدفة و كن حذرا، و احرس مواقع العمل ليلا نهارا.

لم أطمئن لهذا الأجنبي من المؤكد سيستأجر أفرادا من أبناء بلدنا لإفشال مشاريعنا، لأنهم يريدوننا دائما جياعا و مرتهنين لمساعداتهم و لبضائعهم الفائضة عن حاجياتهم. صديقي جهاد، كل قصور الدنيا تملؤها الدسائس و الخيانات، لكن قصر السلطان الآن فيه أكثر من ذلك حيث بات مسكونا بالأجانب و الجواسيس علنا و في وضح النهار، أنا هربت إلى غرفتي و متأكدة أن السلطان سيلحقني هنا بمفرده وسيحذرني من مغبة الحديث بنفس الأسلوب مرة أخرى مع الأجنبي، لكنه لا يعلم ما سأفعله بذلك الأجنبي سأفكر في خطة جيدة لجعله يعيش بيننا في حالة شك و رعب و سأكشف مخططاته.

لم تكد حسناء تكمل كلامها مع جهاد حتى سمعت المدبرة تعلمهم بقدوم السلطان فأمرته بالانصراف و فتحت الباب للسلطان الذي جاء بمفرده كما توقعت و بدت على وجهه علامات الغضب رغم محاولته التظاهر بالهدوء، أذن لها بالجلوس ثم جلس على كرسي بجانبها و كأنه لا يريد أن ينظر إليها و عاتبها قائلا:

– أيتها الجنية، يبدوا أنك منذ اليوم الأول تجاوزت حدود اللياقة مع ضيوف و أصدقاء السلطان، ما كان عليك أن تخاطبي ضيفي بتلك اللهجة و هو الذي جاء ليساعدنا، فلولا وجود محاربي "الوسا" في المدينة و في المسالك الرئيسية لعمت الفوضى في البلاد.

أجابته حسناء بعد لحظات صمت و تفكير فقالت:

– أعتذر منك مرة أخرى مولانا السلطان، لكن أريد أن أبرر ما قمت به أنني تصرفت وفق الصلاحيات التي منحتني اياها حيث عينتني مستشارتك الخاصة ، و إن كان قيامي بعملي بالطريقة التي يمليها عليا ضميري يحرجك فأرجوا أن تعفيني و هذا لن يغير شيئا من حبي و تقديري و احترامي لك و لمقامك.

وقف السلطان مرتبكا ثم جال في الغرفة و فتح النافذة نظر إلى البستان، دخل إلى الغرفة المجاورة، و ظل وقتا طويلا يتحرك داخل الغرفة في كل الاتجاهات، يلمس كل شيء يجده أمامه من أواني و ستائر و تماثيل و أطعمة، ثم وقف أمام المرآة و أخذ يرتب ثيابه و يداعب شواربه و لما رأى حسناء من خلال المرآة تراقبه، التفت إليها في هدوء و خاطبها بشكل مختصر و بلهجة جافة و كأنه لم يعد يرغب في الحديث معها و أمرها بأن تبدأ في اليوم الموالي في استقبال الناس عبر النافذة لعلاجهم لمدة ثلاثة أيام ثم تفتح القاعة للتدريس أيضا لمدة ثلاثة أيام، فأجابته بارتياح:

– شكرا لك مولانا السلطان، أعرف جيدا ما هو مطلوب مني و سأكون عند حسن ظنك بي، كل ما سأقوم به هو لفائدة بلادنا، و لفائدة الإنسان في بلادنا، لكن ما أخشاه هو أن يتدخل الأجانب في شؤوننا و يفرضون علينا إرادتهم، ما يقدمونه من مساعدة فليعتبروه دينا و نسدده بمجهودنا، لماذا هم دائما يريدون مساعدتنا و لا يريدوننا أن أن نعول على أنفسنا و على مواردنا و على سواعد أبنائنا، مولانا السلطان أظن أنهم سيعملون على إفشال أعمالنا و إحباط الناس، و صراحة لم أكن مطمئنة لنظرات ذلك الأجنبي قائد محاربي "الوسا" و حتى ابتسامته الصفراء تزعجني.

ترك السلطان المرآة و التفت اليها مباشرة و قال لها:

– لا أريد العودة ثانية للموضوع، أنت قدمت اعتذاراتك و أنا قبلتها، و أنت لازلت و ستظلين تتمتعين بكل السلطات و الصلاحيات و الثقة التي منحتك اياها، و ها أنت قد لفتت انتباهي لما يقوم به الأجانب و أنا سمعت رأيك، و سأقوم بما أراه مناسبا لفائدة بلدي و أبناء بلدي، أنت فقط ساعديني و أتقني العمل الذي طلبته منك و أنا على يقين أنك ستقومين به على أكمل وجه، و بجدية و تفان.

غادر السلطان الغرفة و بقيت حسناء قرب النافذة تنظر إلى البستان حيث الزهور و النباتات التي كانت تعتني بها سابقا، قد ذبلت و اتسخت بالأتربة و أوراق الأشجار، و فجأة لمحت جهاد و والدته يتنزهان فاختفت خلف الستائر وواصلت النظر إليهما إلى أن اقتربا من غرفتها، فجالت بنظرها في أرجاء البستان لترى شخصا يراقب جهاد من إحدى الشرفات، فأطلت خلسة لتأمر جهاد أن يعود هو و والدته إلى نفس المكان الذي كانا فيه، ثم خرجت مسرعة و بما أنها تعرف القصر جيدا و تعرف أروقته و سلالمه اتبعت مسلكا مختصرا يفضي إلى الشرفة حيث كان الجاسوس يراقب جهاد، قفزت بجانبه ليتملكه الرعب، ثم قامت ببعض الحركات الغريبة أمامه وهو مندهش و مرعوب فأمسكت عنقه بكلتا يديها حتى سقط أرضا و أمرته بأن يقفز في البستان فقفز و لحقت به، لتجده يتألم فأدخلته إلى غرفتها و ربطته بردائها و أرغمته على شرب عقار فشربه مما تسبب له في الإغماء، كان الجاسوس من محاربي "الوسا" و ربما تم تكليفه بمراقبة جهاد، الذي ظل يتابع ما يحدث باندهاش كبير فأمرته حسناء بأن يصطحب والدته إلى غرفته و لا يخرج إلا للضرورة، ثم صفقت فجاءتها المدبرة مسرعة فأمرتها بأن تخبر الجميع و تخبر السلطان بأنه تم القبض على جاسوس و يجب أن

يصدر فيه حكمه، فخرجت المدبرة في حالة هلع و خوف و هي تصيح في الأروقة و تطلب النجدة، و في لحظات سمعت جلبة كبيرة قرب باب الغرفة فأشعلت النار و نثرت عليها بعض العقاقير، ثم فتحت الباب و بدأت تدور حول ذلك الرجل المقيد أمام ذهول الحاضرين إلى أن اقتحم قائد محاربي "الوسا" الغرفة و هو منفعل و في حالة غضب شديد حيث دفع كل من كان في طريقه بعنف إلى أن أطل على حسناء من وسط رؤوس و أعناق الخدم و الحراس و قال:

– من تجرأ و أمسك جنودي الذين يحرسون هذا القصر و هذا البلد بأكمله؟ القصر بات مسكونا بقطاع الطرق و المنحرفين و المشعوذين.

التفتت إليه حسناء و نفثت النار، فتقهقر إلى الخلف من شدة الخوف و في نفس الوقت هرب كل الحاضرين إلى الرواق فالتصق ظهره بالحائط، و واصلت حسناء نفث النيران و كانت حيرة الناس تزداد في كل لحظة حيث ظنوا أن المحارب قد مات في حين أن حسناء كانت تقدر جيدا الوقت المتبقي حتى يستفيق من غيبوبته، فقالت للقائد الأجنبي:

– أيها الأجنبي، هذه الجثة الهامدة المرمية أمامي هي لأحد جنودك الذي أرسلته لي ليراقبني و يتجسس علي، أنا نومته الآن و عندما يستفيق من نومه سيخبرك بما حل به.

ثم واصلت الدوران إلى ان فتح المحارب عينيه، فرأى قائده مذعورا ملتصقا بالحائط، و الخدم يطلون عليه من الرواق، حاول أن يتكلم لكنه عجز من شدة الخوف، استغلت حسناء خوفه لتقول أنها سحبته من غرفته بإصبعها وهي مستلقية على فراشها و قيدته

بعد تنويمه، فصمت المحارب و أومأ برأسه لقائده، فحسناء كانت متأكدة أنه لن يكذبها فهو لا يمكن أن يقول لسيده أن امرأة غلبته. بهذه الطريقة تمكنت حسناء من إرباك قائد محاربي "الوسا" فهي تعي جيدا أنه ليس من السهل أن يقتنع بخوارقها و حركاتها، إذ لا بد أن تقوم بعمل يصدمه، رجعت المدبرة إلى الغرفة وهي في حالة هلع و ذهول ثم قالت لهم بصوت مرتعش أن السلطان يريد أن يغادر الجميع غرفة الجنية و أن لا يقترب أي أحد من تلك الغرفة مرة أخرى و يريد أن يستقبل قائد محاربي "الوسا" هو و محاربه في مجلسه. و بسرعة ذهبت حسناء إلى غرفة جهاد و قالت له:

– يجب أن تكون حذرا إنهم يراقبونك فقائد محاربي "الوسا" سيقوم بكل شيء لإفساد ما نقوم به، و ها أنت قد رأيت كيف عين جاسوسا ليراقبك، لا تثق في أحد حتى أبناء بلدنا فيهم من يعمل لفائدة محاربي "الوسا" لأنهم يغرونهم بالمال و بالمناصب. غدا سأستقبل الناس الذين سيأتون للعلاج و سأجد من بينهم من يستطيع مساعدتك، فنحن نحتاج شخصا يذهب قبلك إلى القرية التي ستعمل فيها ليستطلع الأجواء هناك و حتما سيجد من يحرضون ضدك و ضد مشروع البحيرة. بالنسبة لقائد محاربي "الوسا" قد أعطيته اليوم درسا لن ينساه و سيظل يرهبني و يخاف مني لأنني سأزيد في إرهابه و تخويفه حتى النوم لن يهنأ به، و سأكشف كل مخططاته.

رجعت حسناء إلى غرفتها و خرجت منها إلى البستان لتتنزه و تحاول تنظيفه من بعض الأتربة و لم يتصل بها أي شخص إلى صباح اليوم الموالي حيث أفاقت باكرا و لما جلبت لها المدبرة الفطور أمرتها بأن تحضر لها والد فراس ليكون أول إنسان تعالجه في القصر، ثم فتحت النافذة و أسدلت الستائر حتى لا يراها الناس بسهولة و تتحدث

معهم فقط عبر فتحة صغيرة، و بينما هي منهمكة في التحضير دخل عليها والد فراس فأمرته بأن يستلقي و خلعت ثيابه لتجد جسده مليئا بالقروح و ظهره يؤلمه تماما كما كانت والدة جهاد قبل أن تعالجها، فنظفت جروحه و نثرت على جلده بعض الأدوية و أخذت تسأله عن فراس و حال أسرته فأجابها أنه لا يعرف شيئا عن فراس، أما زوجته فهي تعيش هي و ابنها الصغير على التسول، أما ابنته فهي قريبة منه و لا يستطيع رؤيتها حيث أخذها حرس السلطان في تلك الليلة التي اختفى فيها السلطان، فوجئت حسناء بكلامه و تذكرت هجوم حرس السلطان في تلك الليلة على بيت فراس و رغبتهم في أخذ أخت فراس معهم، صفقت فجاءتها المدبرة فأعطتها أوصاف شقيقة فراس و اسمها و أمرتها بأن تجلبها لوالدها حتى يشفى، أومأت المدبرة برأسها و غادرت لتعود بعد وقت وجيز وتقول لها بأن السلطان يريدها في مجلسه فذهبت إليه لتجده منفعلا و يتحرك أمام كرسيه واضعا يديه خلف ظهره ثم توجه إليها و قال:

– أيتها الجنية، بدأت أغضب. كل يوم مشكلة؟ ما هذا؟

أجابته حسناء بهدوء و قالت:

– مولانا السلطان، عمل بلا مشاكل ليس عمل. أنت تعودت على الهدوء و على الأجواء الصافية، الوحيد الذي لا يواجه المشاكل هو الذي لا يعمل بجد أما نحن فقد اتفقنا على العمل بجد، بالنسبة للفتاة التي طلبت رؤيتها فقد كان ذلك بطلب من والدها المريض و أنا أعالج المرضى و من مهامي أن ألبي طلباتهم في سبيل شفائهم.

أجابها بنفس الانفعال و قال:

– ليست كل الطلبات قابلة للتحقيق، فهذه الفتاة سأتزوجها .

ردت عليه حسناء و قالت:

– هذا من حقك يا مولانا، لكن ليس من حقك أن تحتجزها كرهينة و تمنع عنها رؤية الناس، فهي أولا بشر مثلنا و والدها الطاعن في السن الذي فقد ولده و تشردت زوجته من حقه أن يراها، فاسمح لها برؤيته و أعطها حريتها و عندما تكبر تزوجها برضاها و رضا والدها فهي الآن لازالت صغيرة.

هدأ السلطان و جلس في مكانه ثم قال:

– أيتها الجنية، باتت لك قدرة عجيبة على امتصاص غضبي، بكلامك الموزون و بأفكارك المستنيرة، لقد امتعض منك كثيرا قائد محاربي "الوسا" و قد حاولت تهدئته و اعتذرت له ، أرجوا أن لا تكرري معه مثل هذا العمل و حتى ان حصلت تجاوزات من بعض جنوده فأخبريني أنا أولا و سأقوم بما يجب القيام به، تفضلي الآن إلى غرفتك و واصلي علاج المرضى.

رجعت حسناء لغرفتها و بعد وقت وجيز دخلت المدبرة و معها الفتاة، ارتمت الفتاة في أحضان والدها و انهمرت الدموع و اختلطت الزفرات و تواصل العناق لوقت طويل، لم تحتمل حسناء رهبة المشهد أمامها، فحولت نظرها نحو النافذة حتى لا تتأجج مشاعر الشوق و الحنين في صدرها، ظلت تنظر إلى النافذة و أذنها تلتقط بين الفينة و الأخرى بعض الزفرات و القبلات و كثيرا من النحيب، تسارعت خفقات قلبها و شعرت برغبة في مشاركتهما هذا العناق الحار و هذا الكم الكبير من العواطف و

الأحاسيس التي كادت تفقدها بسبب ما عاشته من ألم و معاناة و بسبب فقدانها لحبيب عزيز عليها حيث عادت صورته أمامها مكتملة من خلال ملامح هذا الرجل و ابنته الذين يحملان الكثير من ملامح فراس، و في نفس اللحظة شعرت برغبة في أن تكون لها أسرة صغيرة تتعذب معها و تبتسم في أحضانها، أسرة لا ترغب لا في الموت و لا في الانتحار بعد فقدان عرش أو مال أو جاه، أسرة ليس لديها ما تخسره، بعدما أربكتها كلّ هذه المشاعر تمالكت حسناء نفسها و استعادت توازنها، ثم جلست تراقب الرجل و ابنته حيث يبدوان و كأنهما تحولا إلى جسد واحد، أو كائنا ضخما برأسين، فعناقهما قد لا ينتهي إلا بتدخلها، فصاحت بصوت حازم و نهرت الفتاة و قالت لها بأن الوقت المسموح لها برؤية أبيها خلاله قد انتهى و عليها المغادرة، و ما ان سمع الرجل صوت حسناء حتى بدأ يفصل ابنته عن جسده و يخلص أطرافها من عنقه و خاصرته و كأنه يجتث عروق نبتة صغيرة متشبثة في جذع شجرة، ثم نظر لحسناء نظرة حائرة مليئة بالأسئلة، أما الفتاة فأجهشت بالبكاء و أصابها الرعب و صارت ترتعش بعدما رأت القناع على وجه حسناء، ثم غادرت الغرفة بخطى متعثرة، فتوجهت حسناء للرجل و قالت:

– أظن أنك ارتحت قليلا لرؤية ابنتك، لا تخف عليها، هي تحمل وجها طفوليا جميلا و سيبقى وجهها طفوليا إلى الأبد، سيكون لها شأن كبير في هذا القصر، ما أطلبه منك هو أن تتبع نصائحي و ترتاح جيدا و لا تفكر في شيء غير جسدك و صحتك و دوائك، و أعدك بأن تراها كلما أتيت للعلاج عندي.

ابتسم ثم وقف و رتب ثيابه ثم قال:

– أشكرك كثيرا، لكني سمعت بأن السلطان يرغب في الزواج بابنتي، هي لازالت صغيرة تلعب بالطين و الدمى.

أجابته حسناء:

– هكذا هم السلاطين، لا يهمهم إلا سعادتهم، حتى و ان كان ذلك على حساب سعادة الآخرين، هو يريدها لأنها صغيرة و لأنها ستكبر أمام عينيه و بالتالي هو متأكد أنه لم يلمسها أحد قبله، أيها العجوز أنا أقدر مشاعرك و ظروفك لكن عليك أن تقبل الواقع كما هو، و تقوم فقط بما طلبته منك، و إلا سأغضب منك و أظن أنك سمعت عن غضبي، و عن النيران التي أنفثها.

أخذ الرجل صرة الدواء ثم غادر المكان متثاقلا، و بدأت حسناء في استقبال المرضى، أطلت خلسة عبر النافذة فرأت عدد كبير من المرضى فيهم من هو في حالة سيئة، و هناك من هو منحني الظهر و بعضهم يمشي على أربعة و أيضا بعضهم يزحف و هناك أيضا من يحك جلده على الشجرة، رأت الحراس يحاولن تنظيمهم و يضربونهم أحيانا، جالت بنظرها في شرفات القصر فلم ترى المحاربين الأجانب حيث يبدوا أن قائدهم أوصاهم بأن يقللوا من تحركاتهم، فنادت أحد الحراس و أمرته بأن ينظموا المرضى حسب الحالات، إدخال الذين يزحفون أولا و بعدهم الذين يمشون على أربعة و بعدهم محنيي الظهر، و المرضى العاديين في الأخير، أما الذين يحكون جلودهم فيجب عزلهم في ركن البستان حتى يغادر الجميع ثم تقوم بالخروج إليهم و مداواتهم وحدهم.

بدأت حسناء عملها بشكل متقن و منتظم و كان الناس يرتاحون لكلامها و يفرحون كثيرا بالأدوية التي تقدمها لهم ، مرّ عليها اليوم الأول مضني لكنه ممتع، و فيه الكثير من المشاعر الإنسانية السامية فقد فرحت كثيرا لأنها جعلت من قصر أبيها مكانا للشفاء و مكانا لاستقبال عامة الناس بعدما كان مكانا للبذخ الزائف و الغطرسة و التكبر، و بينما كانت ترتب الغرفة سمعت المدبرة تناديها من خلف الباب و تقول لها بأن السلطان سيدخل عليها فطلبت منه أن ينتظر حتى لا يتأذى برائحة الأدوية، ثم رتبت الأدوية و نظفت الغرفة جيدا و أذنت لهما بالدخول فهنأها السلطان و شجعها و طلب منها أن تلجأ إليه كلما واجهت مشكلة و أن تحدد كل يوم احتياجاتها من الأعشاب و العقاقير و الأدوية حتى يوفرها لها.

مرّت الأيام الثلاث الأولى على حسناء في القصر متعبة لكنها رائعة و ممتعة و الأهم أنها نجحت في مهمتها و لم تصعب عليها أي حالة من حالات المرضى لتجد نفسها في اليوم الرابع تستقبل الشبان الذين اختارهم السلطان لتعلمهم العلوم و الطب و الفنون، رحبت بهم ثم قالت لهم:

– أنتم اختاركم مولانا السلطان من أجل أن تساعدوه في بناء بلدكم و تطويرها و تحسين ظروف عيش أهلها، و بالتالي عليكم أن تكونوا عند حسن ظنه بكم، المطلوب منكم الآن هو حسن الإصغاء و حب التعلم، ستتعلمون في هذه القاعة ثلاثة أيام، ثم تساعدونني خلال الأيام التي أستقبل فيها المرضى، راقبوا جيدا ما أقوله للمريض و الأسئلة التي أطرحها و بهذه الطريقة ستتعلمون أكثر و ستكتسبون الخبرة و الكفاءة، كونوا حريصين على نظافة المكان و على نظافة أجسادكم فمولانا السلطان أسدى

أوامره بأن يفتحوا لكم حمام القصر كلّ مساء و هذا بطلب مني، أنتم الآن لا ترون ملامحي بسبب القناع، و هذا لا يهم فقط انتبهوا دائما لما أقوله و حركات يدي، و حتى حركات أصابعي، بالنسبة للراحة ستتمتعون بأيام راحة تنزلون فيها إن شئتم إلى المدينة للترفيه عن أنفسكم شرط أن لا تطلقوا العنان لشهواتكم و طيشكم هناك لأنكم أصبحتم تمثلون مولانا السلطان و كل تصرف سيء منكم سيسيء لمولانا السلطان، ستقضون هنا مدة طويلة و لن أترككم تذهبون إلا إذا تأكدت من أنكم تعلمتم جيدا، وقتها تكون مهمتكم قد بدأت و مهمتي قد معكم انتهت، وقتها كل واحد فيكم سيعالج الناس في حيه أو قريته و يعلم الأطفال العلوم و الطب و الفنون و الطبخ و كل شيء يمكن أن يفيد البلاد، و الآن هيا لنبدأ عملنا، سألقي عليكم الدرس و أنتم منذ الآن اسمكم تلاميذ.

لم تكد حسناء تكمل كلامها حتى سمعت خلفها التصفيق فالتفتت لتجد قائد محاربي "الوسا" الذي قال:

– رائع، جيد ما تقومين به أيتها المرأة الغريبة، هم يقولون عنك جنية، لكنك تبدين امرأة قوية و جميلة لولا جلد البقرة الذي تضعينه على وجهك، كيف وصلتكم هذه العلوم؟ بلاد "الوسا" هي الوحيدة التي تملك هذه العلوم.

اشتد غضب حسناء و هي تدرك أن هذا الأجنبي الخبيث سيظل دائما يشك في أمرها لأنه لا تنطلي عليه مثل هذه الحركات، لكنها لازالت تعول على جبنه و خوفه فهو لازال مرعوبا منها، فقامت ببعض القفزات و أخذت تدور حوله ثم خوفته من القاعة و هددته بأنه سيصاب بمرض من الأمراض التي عالجتها في القاعة، ثم ضربته على رقبته

ضربة موجعة فخرج زاحفا. حسناء تعرف سبب غضبه و رغبته في إحباطها فهو قد جاء مع محاربيه من بلد "الوسا" العظيمة ليمنعوا كل مجهود يرمي إلى تطوير البلاد و جعلها مستقلة عنهم في غذائها و دوائها و علومها.

دخل عليها جهاد ليخبرها أنه سيخرج في مهمته الأولى لبناء بحيرة و أوصاها أن تعتني بوالدته، و أوصته بأن يكون حذرا، و قالت له بأنها ستجد من بين المرضى شخصا محل ثقة ليكون همزة وصل بينهما حيث ينقل له أخبار القصر و أكدت له أن قائد محاربي "الوسا" سيحاول إفشالهما بكل ما يملك من نفوذ و عملاء.

غادر جهاد القصر و بقيت حسناء غارقة في عملها، و أحيانا تساعد السلطان في حل مشاكله المتراكمة حيث يستشيرها عندما تحدث حالات غضب في مكان ما أو مدينة ما، فتقترح عليه طرق و أساليب ذكية لإسكات الناس دون قمع و دون عنف، كما يستشيرها فيما يخص التجارة و تنظيم الأسواق و حتى في تدبير الشؤون اليومية للقصر، و بعد مدة من العمل المضني بدأت حسناء تجني ثمار عملها فقد شفي العديد من الناس، و الأهم من ذلك أن كل أخبار المدينة تأتيها بصفة يومية إلى القصر، و تتعرف على مشاغل الناس اليومية و تسمع بما يحدث في المدينة من تجاوزات و انحرافات و فساد، و كانت في كل مرة تستغل ما تملك من معلومات لإخبار السلطان و تقترح عليه الحلول فتزيد ثقته فيها و يزيد انبهاره بقدراتها الخارقة، اما قائد محاربي "الوسا" فقد هادنها طوال تلك المدة، لكنها مع ذلك كانت تكشف مخططاته لإرباك البلاد و جعلها في حالة فوضى، حيث وصلتها معلومات بأن محاربي "الوسا" يستأجرون المنحرفين و قطاع الطرق لإثارة الفوضى في المدن و قطع الطرق، كما اكتشفت بعض

دسائسه في القصر حيث كان يتدخل في مراسلات السلطان مع معاونيه و مع البلدان الأخرى و هذا ما زاد في ذهوله و خوفه منها فهي ملمة بكل شيء في القصر و تعرف أدق التفاصيل. هكذا نسيت حسناء رغبتها في الانتقام من السلطان لأنها أصبحت تركز كل اهتماماتها على مقاومة قائد محاربي "الوسا" و على عملها.

بعد مدة من العمل على علاج الناس اكتشفت أن عدد المرضى الذين يحكون ظهورهم و جلودهم بدأ يزيد كلّ يوم و اكتشفت أنهم من نفس الحي في أطراف المدينة و أنه هناك معسكر لمحاربي "الوسا" قريب من ذلك الحي، ذات مساء أكملت عملها ثم صفقت فجاءتها المدبرة لتطلب منها أن تخبر السلطان بأن يأتي إلى غرفتها في صباح اليوم الموالي في وقت استفاقة الخدم و الطباخين و أن يتخفى عن الأجانب الذين يراقبونه، و نامت في تلك الليلة نوما متقطعا لهول ما رأته من مرض لتستفيق متثاقلة على صوت السلطان الذي وقف بجانب سريرها و سألها عن سبب طلبها مقابلته في وقت مبكر، فانزعجت كثيرا حيث لم تكن ذاكرتها تحتفظ بأي شيء، فطلبت شربة ماء، و لما قدمت لها المدبرة الماء سكبته على رأسها و على قناعها فاستعادت تركيزها و صحا عقلها فرحبت بالسلطان الذي ظل يسألها و الحيرة بادية على وجهه، فأذنت له و للمدبرة بالجلوس ثم قالت:

– مولانا السلطان لقد طلبتك فعلا لأمر خطير، أنت رأيت أولئك المرضى الذين يحكون جلودهم على الأشجار، علاجهم صعب و في مرحلة متقدمة يصبح شفاؤهم مستحيل، منذ اليوم سآمر الحراس بأن يمنعوا من يعاني من هذا المرض من الدخول. مولانا السلطان، الأخطر من هذا هو أن كل هؤلاء المرضى من حي واحد في أطراف

المدينة، و الحي فيه معسكر لمحاربي "الوسا"، الحل هو أن نخرج لزيارة هذا الحي و سيساعدني التلاميذ في معاينة أسباب تفشي هذا المرض و نتائجه، أعطني مهلة لأجهز ما سأحتاجه و طبعا أنت ستكون معنا و سنقوم أنا و المدبرة بكل الاحتياطات لوقايتك. مولانا السلطان، هذه الزيارة ستكون فرصتك لتثبت للناس أنك في خدمتهم و أنك تشعر بآلامهم و تهتم بشؤونهم.

بدت على السلطان علامات الحيرة و القلق لكنه وافق حسناء على فكرتها و وعدها أنه ان ثبت أن سبب هذه الأمراض هو معسكر الأجانب القريب من الحي فسيفرض عليهم مغادرة ذلك الحي و عدم الاقتراب من المدن و القرى.

لم تستغرق حسناء وقتا طويلا في تحضير ما يلزمها و تحضير تلامذتها، و السلطان أيضا جهز نفسه في مدة وجيزة و عندما حان موعد الزيارة خرج السلطان كعادته في موكب مهيب و كانت حسناء إلى جانبه في عربته و متخفية عن الأنظار، و على مشارف القصر وجدوا الهتافات و الأهازيج حيث كانت نفس الوجوه التي تهتف بحياة السلطان و تمجده، بعد المرور عبر مسالك صعبة داخل المدينة وصل الموكب إلى الحي الموبوء، كان المشهد فيه كلّ شيء إلاّ الحياة، الكلاب تتراقص في كل مكان، و الغربان تملأ الفضاء، جثث المواشي في كل مكان و الروائح الكريهة زادت المكان عفونة، الصمت كان هو السائد لدرجة الشعور بأن الموت ترك كل بقاع الأرض و استوطن في هذا الحي، حيث لا صوت يعلوا فوق صوت طنين الذباب و الحشرات المقرفة. نزلت حسناء مسرعة و أوقفت الموكب ثم وضعت حجرا على الأرض و أمرت بأن لا يتجاوز أحدا الحجر، نزل السلطان و بقي يتحرك في كل الاتجاهات قرب عربته،

أما حسناء فدخلت الحي و معها عدد قليل من التلاميذ و الحراس، فوجدوا أغلب الناس يحكون جلودهم على التراب و الجدران و أحيانا على بعض جذوع الأشجار التي بالكاد تقف في هذا الحي و الصغار يكتفون بالبكاء، فنادوا الناس و طلبوا منهم أن يخرجوا إلى ساحة الحي لمقابلة السلطان، كما اقتحم الحراس البيوت لإخراج الأطفال و اخراج الناس الذين لم يصبهم المرض، في وقت وجيز اجتمع السكان في ساحة الحي فقامت حسناء بمساعدة التلاميذ بتنظيف المكان الذي سيقف فيه السلطان جيدا و أحرقت كل ما فيه من نفايات و ملابس بالية، ثم قاموا بفرز الناس، حيث وضعوا الذين لم يصبهم المرض في مقدمة الصفوف، ثم أذنت للسلطان بالدخول فدخل إلى الساحة دون أهازيج و لا هتافات بحياته، و لا هتافات تنادي بموته، إنما هو الموت و المرض قد أنهك سكان الحي فلم يعد لهم صوتا سواء رافضا أو مؤيدا له، و قبل أن ينزل السلطان من عربته قفزت حسناء بخفة في داخلها و ذكرته بما يجب أن يقوله للناس. نزل السلطان ثم نظر للمشهد فدمعت عيناه ثم تمالك نفسه و حاول أن يتكلم لكن انتابه شعور بالاحباط و اليأس فهو أول مرة يقف أمام ناس لا يريدون سماعه و لا يهمهم كلامه، لكن يجب عليه أن يتكلم و يقدم لهم بصيص أمل في الحياة، بعدما ذاقوا الموت و الألم و هم تحت سلطته، فهذا الوضع لا يمكن أن ينسبه لذنوب السلطان السابق بل يجب أن يصلح ما أفسدت يداه، نظر إلى الناس بعد برهة من الزمن و قال لهم:

– أيها الناس الطيبون، لقد صدمت اليوم بمعاناتكم، و ما صدمني أكثر هو هروب جنودي من هذا الحي دون علمي، و هروب ممثلي السلطة الذين استأمنتهم عليكم،

كانوا دائما يقولون لي أن كل شيء على أحسن ما يرام، أنا أعرفهم جيدا و سأحاسبهم، لقد سمعت بكم بفضل بيت العلاج الذي فتحته في القصر و قد جاءني بعض المرضى من جيرانكم و أقاربكم ، و قد تمكن التلاميذ و المعالجين من معرفة وضعكم و لما أخبروني جئت فورا لأكون معكم و أشعر بألمكم، و لا يهم ان تنشقت معكم نفس الهواء و مرضت نفس مرضكم، سيكون شرف عظيم لي و لبلدي إن مت و أنا السلطان من أجل أبناء بلدي، لن أطيل عليكم الخطاب لأنه في وضعكم هذا لا مجال للخطابات العصماء، إنما ضيق الوقت يفرض علينا العمل ثم العمل، سنأخذ الناس الذين لم يصبهم المرض إلى مكان بعيد عن الحي و نوفر لهم المأوى حتى تمر الأزمة و سأشرف بنفسي على رعايتهم، أما المرضى فسيعودون إلى بيوتهم و لا يختلطوا بالناس و سيأتيهم الدواء و الأكل حيث هم، سيتم تنظيف الحي و حرق كل ما فيه من نفايات و أوساخ، و سنوفر لكم الماء، هذا بصفة عامة و هناك تفاصيل أخرى يعرفها من سينفذ أوامري، أما معسكر محاربي "الوسا" المجاور لحيكم فسيتم إبعاده عنكم و سيتم حرق كل ما سيتركونه، و أعدكم بأني لن أغيب عن هذا الحي مرة أخرى و سأزوركم باستمرار إلى أن ننجح في القضاء على هذا الوباء القاتل، اعتذر منكم لقد قصرت في حقكم، و الآن لنبدأ العمل.

طلبت حسناء من السلطان أن يبقى في مكانه في الساحة و طلبت من الخدم أن يحضروا له مجلسا وسط الساحة حتى يتابع العمل عن كثب، ثم واصلت مع تلاميذها تنظيف الحي و قد ساعدهم بعض السكان الأصحاء، كانت تتخفى في غالب الأحيان في بين الجدران و البيوت المهجورة و تسدي تعليماتها للتلاميذ الذين كانوا يسيرون

العمل بإتقان و دقة، إلى أن مرّ النهار، و مع حلول الظلام أمرت حسناء بإيقاف العمل ثم توجهت إلى مجلس السلطان الذي كان متأثرا و غاضبا، فقالت له:

– مولانا السلطان العمل يصعب في الظلام، و قد نتعرض للعدوى، لقد نظفنا كل البيوت و الساحات و الممرات الضيقة بالماء و بعض الأدوية، لقد أغلقنا المجاري المؤدية للنهر الكبير و غدا سيتم حفر أحواض كبيرة و يتم ردم الماء الملوث فيها و سيتم حرق كل الأوساخ، يجب وضع حراس في كل مداخل هذا الحي حتى يتم منع الدخول و الخروج، و بالنسبة للتموين و الأدوية سأتكفل بمساعدة تلاميذي بذلك.

أجابها السلطان و قال:

– أيتها الجنية، أشعر أنني لا اسمع شيئا، و لم أسمع ما كنت تقولينه، أنا على يقين أنك ستنجحين في عملك فلا تحدثيني عن التفاصيل فقط أطلبي ما تحتاجينه، ما بات يشغلني الآن و أظنه سيؤرقني كثيرا، هو القادة الذين عينتهم لرعاية شؤون الناس في هذه الأحياء أين ذهبوا؟ أين هي الأموال التي منحتها إياهم كي ينظفوا هذه الأحياء، و يبلطوا ممراتها و يبنوا أسوارها و متاجرها ؟ اذا كان الحال هكذا على مشارف قصري فكيف الحال في المناطق البعيدة؟ الناس فعلا غاضبون و من حقهم أن يغضبوا لقد قصرت في حقهم. بقدر ما فرحت و تحمست لأن أكون سلطانا لهذا البلد بقدر ما شعرت الآن بالندم و الإحباط و أنا أرى نفسي مسؤول عن هذا الوجع و الأنين، أصغوا جيدا إلى نحيب الناس و أصواتهم انظروا إلى غبار الموت الذي يزكم الأنوف و يغشى الأعين، هل تشتمّون معي رائحة الموت؟ سوف لن تمنعه لا الأسوار العالية و لا الحراس

و لا الأبواب الصلبة، سيتسرب كالماء و لن نقدر على صده. كيف سأحكم بلدا موبوءا، إن انتشر الوباء في كامل البلد؟

صمت السلطان و ساد السكون، و تناثر الغبار في الساحة و احمرّ الأفق و عم جوّ من الكآبة و الحزن على المكان، أما حسناء و المدبرة فقد أصابهما الذهول من كلام السلطان فهو أول مرة يصيبه الإحباط بعدما اعتلى عرش البلاد، لقد كان كلامه مشحون بالإنسانية و المشاعر و الأحاسيس، تبادر إلى ذهن حسناء أن هذا الحدث سيغير فكر السلطان، و بالتالي ستتمكن من إقناعه بما ترنوا إليه من أسلوب حكم جديد مختلف عما كانت تحكم به البلاد سابقا أثناء حكم والدها، فهذا السلطان رغم أنه كان من أهم و أبرز الأيادي المساهمة في تسلط والدها حيث كان قائد حرس السلطان الذين عرفوا بالظلم و بتعذيب الناس، و رغم أنه أيضا انقلب و تآمر على والدها بمساعدة الأجانب، فكرت في أنه يمكنها أن تجعل منه إنسانا و أن تخرج منه كل ما يختلج في صدره من مشاعر و أحاسيس ليكون سلطانا يشعر بآلام الناس و أحزانهم و ينذر نفسه خادما لهم و يقوم بوظيفته على الوجه الأكمل و يساهم في تحسين ظروف عيش الناس. ظلت حسناء تفكر صامتة و تواصل الصمت المخيف لوقت طويل إلى أن تنهد السلطان و طلب أن يعلقوا على كلامه، لم تتجرأ المدبرة على إجابته فتكلمت حسناء و قالت:

– مولانا السلطان، ما رأيته اليوم في هذا الحي هو قطرة من بحر من الفساد المستشري في البلاد و أرى أنك في خطاباتك كنت تنسب الاستبداد للسلطان السابق وحده في حين أن ما يحدث هو نتيجة شبكة من المصالح تتقاطع فيها مصالح المسؤولين الذين

يديرون شأن هذه الأحياء و غيرها من المناطق مع مصالح قادة حرس السلطان الصغار و المتوسطين و حتى الحراس العاديين، ومصالح كبار و صغار التجار، و اعتلائك للعرش لن يكون كافيا لتفكيك هذه الشبكة، و إنما عملك على الميدان و زياراتك لمناطق مختلفة مثل هذا الحي سوف تجعلهم يعملون بجد و يحاولون الإصلاح. ما يحدث في هذه المناطق و أنت لا تعرفه، هو أن الذين تكلفهم برعاية مصالح الناس يستولون على الأموال التي ترسلها إليهم ليبنون بها قصورا لهم، و يفتكون أراضي الناس و أرزاقهم و يفرضون الإتاوات على الفقراء و يوفرون الحماية فقط لكبار التجار و الأثرياء، مولانا السلطان سجونك تغص بالمظلومين الذين يتم الزج بهم بدعوى أنهم يخونون الوطن، مولانا السلطان أقترح عليك أولا محاسبة كل من قصر في مهمته و كان سببا في هذه المأساة في ساحة عامة و أمام الناس، ثانيا أقترح أن تكلف أحد ثقاتك بأن يجوب المدن و القرى و يطلب منهم أن يختاروا شخصا منهم يكون محل ثقتهم تدعوه للقصر و تكلفه بمهمته، و بهذه الطريقة يكون لديك ممثل في كل قرية و مدينة و في نفس الوقت ينال رضا أغلبهم و طبعا تتوعدهم بالمحاسبة ان هم أخلوا بواجباتهم.

أعجب السلطان بكلام حسناء و وعدها بأن ينفذ ما طلبته منه، ثم شكرها و أخبرها بأن قائد محاربي "الوسا" غاضب بسبب طرد معسكره من الحي، فقالت له حسناء بأنها ستعرف كيف ترد عليه، و غادر الجميع الحي الموبوء و لما وصلوا إلى بوابة القصر أوقفت حسناء الموكب و طلبت من الحراس أن يجلبوا الماء الساخن ، و لما جلبوا الماء الساخن وضعت فيه بعض الأدوية و فرضت على الجميع أن يستحمّوا بما

فيهم السلطان الذي استحمّ خلف ستائر كان يمسكها الحراس، و تخفت هي داخل العربة لتستحمّ أما الحراس و التلاميذ فقد انتظروا دخول السلطان إلى القصر ليستحمّوا و قد كان مشهدا احتفاليا مثيرا لم يشهد القصر مثله من قبل. بعد استراحة قصيرة دخل السلطان إلى مجلسه و لحقت به حسناء فوجدت قائد محاربي "الوسا" في انتظاره و قد كان غاضبا و منفعلا و يتحرك في كل الاتجاهات، نظر إليها باشمئزاز و دون أن ينظر إلى السلطان قال:

– أيها السلطان، كيف لسلطان مثلك تدعمه إمبراطورية "الوسا" العظيمة و تضع تحت سلطته أعتى جنودها أن يتصرف بهذا الشكل الهمجي؟ كيف تزور الأماكن الموبوءة و تستحم أمام العامة؟ ثم لماذا أزحت معسكرنا من ذلك المكان الاستراتيجي؟ أنت تعرف لماذا وضعنا معسكرنا هناك، لأن تلك الأحياء تفرخ المنحرفين و قطاع الطرق. ثم لماذا تنساق وراء هذه المشعوذة التي تحمل وجه بقرة؟ تتخذها مستشارة في حين أننا نقدم لك كل ما نملك من خبرة و معرفة في إدارة شؤون البلدان.

صمت السلطان ثم جلس على كرسيه و قال:

– أيها القائد، لقد استمتعت اليوم بحمام ساخن في العراء، و اتصلت بالناس و تقاسمت معهم آلامهم، ليتك كنت معنا، أما جنودك فهم في صحة جيدة و سينتقلون إلى مكان آمن فيه الظلال الوارفة و الأشجار الباسقة و الماء و الهواء النقي، أما الأحياء فهي لم تعد تفرخ غير المرض و الوباء و ان واصلنا حصارها و قمعها خوفا من تفريخ المنحرفين فستموت و لن نجد أحياء نحكمها، أما بالنسبة لمستشارتي فأنا أسمح لها بأن تجيبك بنفسها.

فقالت حسناء:

– أيها الأجنبي الذي تعتبرني مشعوذة، هل يمكنك أن تفسر لي كيف بقي جنودك في صحة جيدة في حين أنه لا يفصلهم عن الحي الموبوء شيئا سوى بضع خطوات؟ هل يمكنك أن تفسر لي ماذا يضعون في الفضلات و النفايات التي يلقونها على مشارف الحي و هم يعرفون أن أطفال الحي و بعض الفقراء ينبشون تلك النفايات كل يوم؟ سأجيبك عن شطر السؤال، هم في صحة جيدة لأنهم يملكون الدواء الذي يقيهم من الإصابة بالمرض و أنا بطريقتي الخاصة سأصنع دواء أفضل من الذي يستعمله جنودك، أما الشطر الثاني من السؤال فستجيب عنه الأيام، لأن هذا الوباء لم يأت صدفة إلى الحي، فالأوبئة لا تأتي سيرا على الأقدام.

أكملت حسناء كلامها أمام ذهول القائد الأجنبي و شرود السلطان الذي كان مشوش الذهن و غير واع بما يدور حوله من كلام، لم يقدر قائد محاربي "الوسا" على إخفاء امتعاضه و ابتلع ريقه أكثر من مرة محاولا الرد على حسناء لكنه عجز فتركته و انصرفت و هي متأكدة أن السلطان لن يجيبه لأنه مرهق و يرغب في الخلود للنوم.

دخلت حسناء إلى غرفتها ثم استلقت و أخذت نفسا عميقا و رغم ما عاشته طوال اليوم من تعب فقد شعرت بفرح غامر، لقد شعرت أنها فعلا أميرة في قصر أبيها، أميرة بما قدمته من خدمات لبلدها و ليس كما كانت أميرة بلباسها الفاخر و بالخدم الذين يلبون كل طلباتها. ككل مرة تغمرها فيها الفرحة يتسرب الحزن لحسناء فجأة فرغم شعورها بالرضا و السكينة بفضل نجاحها في خدمة الناس و في إحباط أخطر مخططات محاربي "الوسا"، شعرت بالانزعاج من القناع الذي بات ثقيلا على وجهها و شعرت

برغبة جامحة في أن تعيش كامرأة عادية بين الناس لتعاودها ذكرى فراس التي بقيت ساكنة في قلبها و عقلها و وجدانها، فتمنت لو تزوجا و كونا أسرة صغيرة يسودها الحب و البساطة في إحدى القرى حيث السكينة و الهدوء، حيث الحياة البسيطة التي بقدر ما تكون مضنية، بقدر ما تزداد جمالا و روعة، حلم بسيط ستنتظر فراس من أجل أن تحققه و تزيح عنها القناع و تعود امرأة عادية تطبخ و تكنس و تعتني بالحقل و المواشي، أكملت حلمها بعيون مفتوحة ثم نامت ليصبح هذا الحلم زادها الذي تحمله كل ليلة في نومها.

بعد أيام قليلة بدأ الوباء ينحصر في ذلك الحي المعزول و السكان الذين تم عزلهم فيهم من شفي و فيهم من بقي يعالج و فيهم من مات، أما الذين تم إخراجهم من الحي فقد نجا أغلبهم و تم إيوائهم في مكان آمن في انتظار عودتهم لديارهم عندما يتأكدوا من القضاء نهائيا على الوباء، و قد كانوا محل متابعة مباشرة من السلطان الذي ذاع صيته بعد حادثة الوباء، و قد عرف كسلطان متواضع يحب الناس و يساعدهم و يشاركهم آلامهم، أما حسناء فقد واصلت عملها بنفس الجدية و نفس الإتقان، و بينما هي تستقبل المرضى كعادتها جاءها رجل كانت قد كلفته بمساعدة جهاد، فسألته عن الأخبار فقال لها بأن العمل يسير بشكل جيد، لكن هناك أشخاص يحرضون الناس ضد جهاد و يدفعون لهم المال كي يعطلوا سير الأشغال، كما أخبرها أن جهاد يريد المزيد من المواد و المعادن الخاصة ببناء البحيرة، فشكرته و سلمته قطعا من الذهب له و لجهاد، ثم أوصته بأن يقول له أن يحافظ على هدوئه في مواجهة الناس الذين يتم

تحريضهم، و قبل أن تأذن له بالمغادرة أعطته بعض الأدوية، و رجعت لتواصل عملها حتى المساء.

بعدما أكملت عملها في ذلك اليوم ذهبت إلى مجلس السلطان فوجدته غاضبا مزمجرا فحاولت تهدئته و معرفة سبب غضبه فقال لها:

– ذلك الأجنبي قائد محاربي "الوسا" قد أخذ مني الأختام التي كنت أستعملها في مراسلاتي لطلب المساعدة أو لشراء البضائع من البلدان الصديقة، كل هذا بسببك أنت أيتها الجنية، فهو يريد أن أطردك من القصر و قد ساومني و ابتزني، أنا أعرف جيدا كل ما قمت به من أجل البلاد، و أعرف النجاحات التي تحققت بفضلك، و هي نجاحات باتت تزعج هذا الأجنبي الذي جاء هنا ليعرقل كل جهودنا للتعويل على أنفسنا و تحقيق استقلالنا في الصناعة و الزراعة و الدواء، لذلك أراد أن يتخلص منك و من المؤكد هو يحاول التخلص من جهاد، لكن أنا كسلطان على بلد فقير و ضعيف ينخره الفساد لا يمكنني أن أتجرأ على دولة "الوسا" و أعصي أوامرها، أو أن أهين مبعوثيها فهذا الرجل قادر بمراسلة واحدة أن يمنع عنا كل المساعدات و التجارة و ربما قادر أن يشن علينا حربا، فالمسألة لا تتعلق فقط بمجرد ختم.

بعدما سمعت كلامه و اقتنعت به اقتربت حسناء من السلطان و همست له بأن ينادي قائد محاربي "الوسا" و يهينها أمامه و يطردها، قبل باقتراحها رغم حيرته و ارتباكه، و لمّا جاءه الأجنبي الذي كان هلعا و خائفا رحب به و اعتذر منه و طلب منه أن يهدأ و أذن له بالجلوس، فنظر الأجنبي حوله و تفادى النظر إلى حسناء ثم جلس و قال:

– مولانا، هل فكرت فيما طلبته منك، هذه المشعوذة يجب أن تغادر القصر كي تعود علاقتنا طبيعية و نواصل مساعدتكم في بناء دولة قوية و متماسكة و مستقرة.

أجابه السلطان:

– أجل أيها القائد بلّغ إمبراطور بلاد "الوسا" أن ولائي لهم لن يتغير، و أني في خدمتهم و ممتن لكل ما قدموه لبلدي و أني أحترمك أنت كمبعوث لهم، و سأطرد هذه الجنية من القصر فأنا كنت أظن أنها ستساعدني، لكن لا يمكنني أن أخسر بسببها علاقتي بأصدقائي و أصدقاء بلدي.

ثم التفت لحسناء و أهانها و طردها و أمر الحراس بأن يلقوها في الشارع لتتسكع هناك و تقاوم الأوبئة و الحشرات، و قبل أن تغادر القصر جمعت حسناء تلامذتها و أوصتهم بأن يواصلوا عملهم بنفس الجدية و يعالجوا الناس حسب معرفتهم ريثما تعود هي للقصر مرة أخرى، و عرض عليها أحد التلاميذ بأن تسكن رفقة والديه.

غادرت حسناء القصر و أوصلها التلميذ إلى بيتهم، و قد كان بيت صغيرا في أطراف المدينة يعيش فيه فقط والديه، و قد اختارت حسناء أنت تعيش في بيت المؤن الذي نظفته جيدا و رتبت كلّ ما فيه من أكياس و أغذية، و أوصتهم بأن لا يخبروا أحدا عن وجودها. ظلّت حسناء تفكر فيما سيحدث للسلطان بعد مغادرتها فالأجنبي سوف يساعده و يلبي طلباته، لكنه من المؤكد سيشعر بنخوة الانتصار و سيعود لممارساته السابقة، هو وجنوده و عملائه من أبناء البلد و الحل يكمن في قطع هذه الطمأنينة و

إخافته مرة أخرى و بطريقة أعنف، لأنه ان استعاد سيطرته على السلطان سيجبره على مزيد من التبعية.

عاشت حسناء لعدة أيام متخفية في منزل تلميذها دون أن يتفطن لها أحد و قد كانت أخبار القصر تأتيها أحيانا بواسطة التلميذ الذي يتعلل بزيارة والديه، و قد كانت الأخبار التي أتتها في الأيام الأولى جيدة حيث كان التلاميذ يقومون بالعمل و يتعلمون وحدهم، لكن في المدة الأخيرة قلّ تردد التلميذ عليها و صار يرتبك كلما سألته عن أمر ما، و ذات مساء أجبرته على الكلام بصراحة و وصف ما يحدث دون خوف أو تردد، فقال لها:

– الأمور لا تسير على ما يرام، الأجانب يتدخلون في دروسنا و قد أجبرونا على الشغل في المطبخ و في البستان، و في أيام استقبال المرضى كان قائدهم يأتي ليراقبنا و يتثبت من الأدوية و كان معه كاتب يسجل كل ما نقوم به و يسجل الأدوية، و مولانا السلطان لم يتدخل بل كان يوافقهم في كل ما يفعلونه و صاروا يتحركون بحرية في القصر.

فهمت حسناء أن قائد محاربي "الوسا" صار يتحكم بزمام الأمور في القصر، فأمرت التلميذ بأن يعود إلى القصر و أن يبلغ سلامها لباقي التلاميذ و أن يواصلوا عملهم دون مشاكل كما أوصته بأن لا يرجع إلى البيت إلاّ عندما تأمره بذلك، ثم انهمكت في تحضير ما تحتاجه من أدوية و عقاقير، لأنها باتت كلّ يوم تفكر كيف ترعب قائد محاربي "الوسا" و تكون قادرة على تهديده، و بينما هي غارقة في التفكير ذات صباح دخلت عليها والدة التلميذ لتقدم لها الطعام، و هي عادة ما تكون مرتبكة كلما دخلت

عليها بسبب القناع و تخرج بسرعة لكن حسناء طلبت منها الجلوس و طمأنتها على ولدها الذي سوف يصبح رجلا صالحا و يعالج الناس و يعلم الأطفال، فأعربت المرأة عن ارتياحها لكنها اشتكت لحسناء حال زوجها الذي صارت أجرته محدودة لأنه يشتغل عند تاجر يعاني من أزمات و مشاكل، فسألتها حسناء عن سبب المشاكل لترتبك المرأة و بعد إلحاح أجابتها بأن التاجر من المتهمين بالخيانة بعد اعتلاء السلطان الجديد للعرش، و قد اتهموه بتهريب أتباع السلطان السابق مع قافلته التجارية التي تصادف موعد رحلتها مع يوم سقوط السلطان السابق، أذنت لها حسناء بالمغادرة بعدما وعدتها بأن تساعدها على حل مشكلتها.

بعد سماع كلام والدة التلميذ فكرت حسناء في طريقة للوصول إلى هذا التاجر، و بعد أيام من التخطيط نظمت لقاء مع التاجر بمساعدة والد التلميذ و كان ذلك في الليل و بصفة سرية، و أول ما رآها التاجر قال:

– أنت الجنية التي تم طردها من القصر؟ سمعت عنك الكثير، و لا تخيفني حركاتك فأنا تاجر و ما رأيته من أهوال في رحلاتي قد قتل عندي حاسة الخوف، كما رأيت السلطان لا يؤتمن له جانب فهو كسابقيه يصنف الناس إلى خونة و أوفياء حسب ولائهم له، ماذا تريدين مني؟ هل مازلت تعملين لفائدته؟ لن أتفاوض مع ذلك السلطان و لو أعدمني.

أجابته حسناء و قالت:

– أنا لازلت أعمل لفائدة أبناء بلدي، و ان احتاجني مولانا السلطان سأكون جاهزة، و لا يهمني خلافك معه، فقط أريد أن أذكرك أن السلطان قد بدأ يغير في أسلوب حكمه و يبتعد عن سياسة التخوين، و صار يصغي جيدا لكل من يخالفه الرأي أو يعارض سياسته، فقط المطلوب ممن هم في خلاف معه أن يتحلوا برحابة الصدر و بالتسامح، أما ما جئت من أجله هو واجب إنساني، و أريدك أن تساعدني على القيام به، سمعت أنك تعاملت مع القافلة التجارية التي غادرت البلاد ليلة سقوط السلطان السابق، و أنت تعاني من مشاكل لأنك هربت فراس حبيب ابنة السلطان السابق، و أنت تعرف أن والده مريض و يعيش في القصر و هو حزين و يعاني و يريد أن يسمع أي خبر يطمئنه عنه، أو يلمس أي شيء يذكره به.

تململ التاجر و التفت حوله ثم قال:

– رغم أن كلامك لم يقنعني فاني سأساعدك من أجل والده المريض، فراس اشتغل عندي و أعرفه معرفة سطحية، كان شابا لطيفا و هادئا، أنا لم أهربه و التهمة التي ألصقوها بي هي تهمة من جملة التهم، و هي لا تقل خطورة عن تهمة التخوين، فأسهل شيء في بلادنا هو أن يزجوا بك في السجن بتهمة كره الوطن التي بسببها الآلاف في سجون سلطانكم. كان لي صديق تاجر أجنبي توقفت قافلته صدفة على مشارف المدينة في ذلك اليوم الذي شهدت فيه البلاد غزوة محاربي "الوسا" الذين يتعامل معهم سلطانك، و لما عمّت الفوضى لم يقدر على دخول المدينة اضطر للعودة إلى الميناء، فلحقت به لأستلم بضاعتي لأجد فراس معهم و ينوي السفر، و دون أن أسأله أو أنتدخل في شأنه سلمني رسالة و طلب مني أن أسلمها لأي فرد من أهله.

ما إن سمعت حسناء كلمة الرسالة حتى تجمدت في مكانها و شعرت بجفاف في حلقها و بالعرق يسيل من كل جسمها، حافظت على صمتها و هدوئها و أجّلت دموعها و زفراتها و شهقاتها إلى وقت لاحق، حتى تستطيع التحدث دون غصة، ثم قالت له:

– أشكرك و أقدر فيك شعورك الإنساني، و سأوصل الرسالة إلى والد فراس، لكن أظن أنه هناك الكثير من سوء التفاهم و سوء الفهم الذي بسببه يضيع الكثير من الجهد و الوقت و الحب هدرا، مولانا السلطان ينتظر منكم أن تساعدوه على بناء البلد و تحسين عيش أهلها، و أنت تاجر كبير و ان تواضعت قليلا يمكن تذليل الخلاف بينك و بين السلطان، و يمكنني مساعدتك ان أردت.

صمت التاجر و أومأ برأسه لحسناء التي كانت مرتبكة بحكم انشغالها بالرسالة، و لم تكن قادرة على إقناعه، فانتظرته حتى جلب لها الرسالة و قدمت له قطعة من الذهب و أوصته بأن لا يفشي سرّ اللقاء الذي دار بينهما، ثم انصرفت و معها والد التلميذ حيث رجعت معه إلى بيتهم، و لمّا وصلت لم تتحدث و لم تأكل دخلت غرفتها و أطفأت الضوء ثمّ تلمّست خصرها بحثا عن الرسالة و لمّا وجدتها سحبتها و أمسكتها بيديها ثمّ رفعتها أمامها في العتمة و كأنها ترفع مشعلا لتنير به المكان، فخيّل لها أنّ ضفائر الثوم و البصل المعلقة في سقف الغرفة قد تحولت إلى باقات ورد و رياحين، و خيّل لها أنّ الثقب المتناثرة في سقف الغرفة نجوما متلألئة تزيد المكان ألقا و جمالا، ثمّ التفتت إلى فجوة النافذة و تخيلت فراس يتسرب منها مع ضوء القمر و يتضخم أمامها و يكبر و يحكي لها عمّا كتبه في الرسالة، ضمّت الرسالة إلى صدرها و قبلتها

ثم احتضنتها بحنوّ و كأنها تحضن مولودا جديدا ثمّ أطفأت الضوء على حلمها الجميل و خلدت للنوم.

بعد ليلة مليئة بالمغامرات و الأشواق و الأحلام و النوم الهادئ أفاقت حسناء على صوت والدة التلميذ التي يبدوا أنها ترددت عليها أكثر من مرة لتوقظها، نظرت حولها ثم قامت و أطلت من النافذة لترى الشمس في كبد السماء. تناولت ما وجدت من طعام ثمّ تمددت على فراشها و تناولت الرسالة لتفتحها فشعرت برعشة في يدها و انتابها الخوف من المفاجآت التي قد تحملها الرسالة، أقامت ظهرها و ضمت ركبتيها إلى صدرها و ظلّت جالسة لبرهة من الزمن تفكر في شأن فراس و أهله و والده، فهي قد قطعت عهدا على نفسها أن تبقى وفية له مدى الحياة، فكيف تخونه و تفتح رسالة قد أرسلها لأهله، هي ليست أهله مهما كانت رابطة الحب بينهما، و علاقتها به لا يمكن أن تسمح لها بالاطلاع على الرسالة، فخبأتها و قرّرت وفاءا لفراس أن تسلمها مباشرة لوالده عند عودتها للقصر، ثمّ استلقت مرّة أخرى و وضعت يديها خلف رأسها و تذكرت القصر و ما يدور فيه من مؤامرات و الأخبار السيئة التي جاء بها تلميذها، فباتت زيارتها للقصر ضرورة ملحّة، و هي قد أحضرت ما تحتاجه من عقاقير و أدوية لإخافة قائد محاربي "الوسا" فجهزت نفسها و انتظرت حلول الظلام لتغادر بيت التلميذ و تتسلل نحو أسوار القصر من ناحية النهر و هي تعرف القصر جيدا و أسواره و طريقة حراسته و الثغرات التي يمكن استغلالها، و بعد مدة من المراقبة و الرصد تمكنت من التسلّل إلى القصر ثم تسللت عبر النافذة إلى غرفتها لتأخذ ما تحتاجه لإشعال النار، ثمّ تسللت عبر الشرفة إلى غرفة قائد محاربي "الوسا" لتجده نائما، فأشعلت النار ثم

أثارت دخانا كثيفا و بدأت تصيح صيحات مفزعة بصوت خافت و حاد، ليستفيق مرعوبا و يجد الغرفة يملؤها دخان كثيف و لم يستطع رؤيتها فحاول أن يستغيث فمدت يدها من وسط الدخان و كتمت نفسه و أمرته بأن يصمت و يسمعها جيدا و إلا كتمت أنفاسه نهائيا، ثم رفعت يدها فقال لها بصوت مرتعش:

– أطلبوا ما شئتم سألبي طلباتكم،أتركوني أعيش، لا أريد أن أموت، لي أطفال ينتظرونني منذ سنين.

زادت حسناء في كثافة الدخان و نثر العقاقير التي تحدث أصوات و فرقعات خفيفة ثم واصلت تحركاتها برشاقة في كل أركان الغرفة و كلّ مرة تغير نبرة صوتها فظنّ القائد أنّ أشباحا قد هاجمته فغطى نفسه بالكامل و تكوم على فراشه فاقتربت منه حسناء و همست له قائلة:

– نطلب منك أن تترك الجنية ترجع للقصر و تواصل عملها، و أن توقف عملائك الذين يعطلون جهاد في أعمال البحيرة و تأمرهم بأن لا يحرضوا الناس ضده، و تترك السلطان و شأنه و أن تعدل سلوكك تجاهه.

أكملت كلماتها ثم زادت في تأجيج النار و كثافة الدخان حتى يزداد رعبا، ثم تسللت عبر الشرفة دون أن يشعر بذلك وغادرت القصر، و رجعت إلى بيت التلميذ في أواخر الليل بعد ليلة مضنية و صعبة ثم خلدت للنوم إلى ظهيرة اليوم الموالي.

رجعت حسناء للقصر بعدما أرسل السلطان في طلبها، و استعادت مكانتها و عادت لممارسة نشاطها بشكل طبيعي حيث وجدت التلاميذ محافظين على مكان التدريس

ونظافة مكان العلاج لكنهم قد فقدوا بعض مهاراتهم بسبب غيابها عنهم، فضاعفت جهدها لتعلمهم، أما قائد محاربي "الوسا" فقد تغير سلوكه، و لم يعد يتدخل في شؤونها، و حتى السلطان فلم يعد يشتكي منه و لم يعد يضغط على حسناء بل صار دائما يشجعها و يوفر لها ما تطلبه. مرّت عدة أيام هادئة دون مشاكل و حسناء منهمكة في عملها بجدية حتى جاءتها الأخبار عن جهاد حيث صار العمل يسير بشكل جيد و الجميع متعاون معه كما سمعت أيضا أخبارا سعيدة عن الحي الموبوء حيث عادت له الحياة و رجع أغلب الناس إلى ديارهم و انحصر المرض في بعض البيوت المعزولة التي يتلقى أهلها علاجا خاصا.

كانت حسناء كلّ يوم تزداد سعادة بما تنجزه من أجل بلدها و أبناء بلدها و كان السلطان في كل مرة يعبر لها عن سعادته بما تنجزه، و انتابها شعور غريب امتزجت فيه الحيرة و الدهشة بالسعادة فهي التي تنكرت و غطت وجهها بجلد بقرة لإنقاذ نفسها من الموت، و بغاية الدخول للقصر و الانتقام من السلطان، يبدوا أن الانسجام بدأ ينبني بينهما و يزيح الرغبة في التشفي و الانتقام، حيث وجدت لديه أذنا صاغية و رغبة في تغيير أحوال البلد نحو الأفضل، فأصبح القصر مزارا لعموم الناس و مكانا لتعليم الناس و علاجهم بعدما كان قلعة معزولة و محروسة بالحديد و النار، فهذا السلطان صار يزور الأحياء و يسير الأسواق و يأكل الطعام مع الناس بعدما كانوا يداسون و يساقون كالأبقار كلما خرج موكب السلطان. رغم سعادتها بقيت حسناء دائما متوجسة من أمرين، أولا قائد محاربي "الوسا" الخبيث و الجبان الذي ان سمعوا به في بلده لا يقوم بمهمته في تخريب البلاد و تطويع السلطان فحتما سيغيرونه، و

الأمر الثاني هو أمر الحاكمين الصغار في مختلف مناطق البلاد البعيدة على القصر الذين يعيثون فسادا في البلاد و يتعاونون مع حرس السلطان في قمع الناس و ترهيبهم و نهبهم، و قد لاحظت امتعاضهم من السلطان عندما يعامل الناس برفق و لين، و بالتالي عليها التفكير في حل، فبالنسبة لقائد محاربي "الوسا" الحلّ يكمن في ربح الوقت و انجاز ما يمكن انجازه قبل أن تتغير الظروف، أما بالنسبة للحكام فتذكرت أنها اقترحت على السلطان أن يعين على كل منطقة شخصا يثق فيه الناس و يختارونه، ففكرت في أن تذكر السلطان مرة أخرى بهذه الفكرة و تذكره أيضا بضرورة محاسبة المسؤولين على الحي الموبوء أمام الناس في ساحة عامة.

دخلت حسناء على السلطان ذات صباح و هو في لحظة صفاء، و بعدما سلمت عليه و شكرها كثيرا و بشرها بأن جهاد قد أنهى مرحلة هامة في بناء البحيرة، فقدمت له هي باقة من الأخبار عن التلاميذ و تحسن مستواهم و عن العلاج و الأدوية، و ذكرته باقتراحاتها فأجابها بالموافقة ثم أذن لها بالمغادرة. خرجت حسناء من مجلس السلطان فرحة مسرورة و رجعت إلى قاعة التدريس لتواصل عملها و تعلم التلاميذ طرق العلاج و صنع الأدوية و استمرّ عملها إلى أن المساء فتعب التلاميذ و شعرت هي بالإرهاق فاستلقت على فراشها و وضعت يديها خلف رأسها فتذكّرت الرسالة، حيث يبدوا أن انشغالها بالعمل قد أنساها شأن الرسالة التي كانت كلّ ليلة تقبلها و تحتضنها كطفل صغير و تنام.

قامت حسناء متثاقلة من فراشها و تناولت الرسالة بيديها و قبّلتها و مسحتها فهي رغم نظافة المكان دائما تنفض عنها الغبار، هي تعرف جيدا العلاقة الحميمة بين الغبار

و رسائل الغائبين، فكرت في بادئ الأمر أن تؤجل قراءتها إلى وقت لاحق لأنها باتت خائفة و مرعوبة مما قد يكون فيها من كلام، ثم تذكرت حال ذلك العجوز والد فراس، فربما يكون سعيدا بمعرفة ما كتبه ابنه قبل أن يسافر، و في كلّ الحالات هو من حقه أن يعرف ما كتبه له ابنه مهما كانت النتيجة، فطلبت حضور ذلك العجوز إلى غرفتها.

هيأت حسناء نفسها لقراءة الرسالة فرتبت الغرفة و عطرتها و زينتها بكل الألوان و قطفت باقات الزهور من البستان لتضعها في كل أركان الغرفة، زينت كلّ شيء عدا وجهها و جسمها فهي متنكرة، وضعت كرسي لها و أمامها كرسي آخر و ظلت تنتظر إلى أن سمعت نقرات خفيفة في الباب فتسارعت دقات قلبها و انتابها الارتباك و التوتر، فتحت الباب فوجدت والد فراس أمامها مدت له يدها و كأنها تمد يدها لحبيبها فراس و قادته برفق ثم أجلسته على كرسيه و جلست هي في الكرسي المقابل، و قد كان حائرا و ملامحه توحي بكثير من الأسئلة، و هي من شدة توتره لم تكن قادرة على تبديد حيرته و شكوكه، فسألته في البداية عن صحته و أحواله، ليجيبها إجابات مقتضبة ثم تجرأ و سألها عن سبب حضوره في غرفتها فقالت له:

– أيها العجوز الطيب، فعلا أنا لم أناديك هنا لمجرد السؤال عن أحوالك، إنما نادبتك هنا لأمر هام يخصك و أطلب منك أن يبقى لقائنا هذا سرّ، أعرف جيدا مكانة ولدك فراس في قلبك و أعرف أيضا أنه هو سبب ما تعانيه أنت و أسرتك نظرا لعلاقته بابنة السلطان السابق، لذلك يجب أن تنتبه للرسالة التي تركها لكم، و هي رسالة أرسلها قبل مغادرة البلاد مع أحد التجار و قد استلمتها منه بطرقي الخاصة، من المؤكد أنك اشتقت إليه.

توقفت حسناء عن الكلام الذي بدأ يخرج بصعوبة من حلقها ثم نظرت إليه فوجدته يقاوم الدموع التي تتدفق بغزارة من مقلتيه ثم طأطأ رأسه و ظلّ صامتا و كأنه يريد أن يستعجل سماع كل شيء و المغادرة، فوقفت و توجهت نحو النافذة و ظلت واقفة تنظر إلى البستان حتى استعادت أنفاسها ثم رجعت إلى كرسيها و تناولت الرسالة و ما ان سمع الرجل صرير الرسالة حتى اهتز بدنه فوقف و كأن خيطا خفيا قد سحبه من رأسه فوضعت يدها على كتفه و أجلسته بلطف و قالت:

– اجلس أيها الرجل الطيب كي أقرأ لك الرسالة، و أصغ إليّ جيدا لأني سأقرأ بصوت منخفض: "أبتي وأمي و إخوتي و عزيزتي حسناء إن كنت على قيد الحياة، لكم مني كلّ عبارات الحب و الوفاء، أعتذر منكم جميعا لما سببته لكم من متاعب و مشاكل، و أتمنى أن أكون قادرا على تعويضكم، أكتب لكم رسالتي هذه و أنا في الميناء أجهز نفسي لمغادرة البلاد و لا أدري متى أعود، لذلك أريد أولا أن أطمئنكم و أقول لكم أنني بخير و بصحة جيدة و آكل جيدا و ألبس جيدا و أنام جيدا و أعيش مع أشخاص طيبين. و اشتقت إليكم جميعا و اشتقت إلى حسناء التي أحبها كثيرا، لم أعرف من أين أبدأ هذه الرسالة فقد تاهت عني معالم البداية، هل أبدأ من هنا حيث أنا في الميناء، أم أبدأ من آخر لحظة تركت فيها حبيبتي الغالية حسناء، أم أكتب رسالة مبعثرة كأفكاري المبعثرة و نفسيتي المشتتة؟ أنا أخطّ لكم هذه الكلمات و التاجر الذي سأسلمه الرسالة ينتظرني، يا أبي هو ذلك التاجر القريب من حينا و هو الذي اشتغلت عنده سابقا لمدة قصيرة، و الذي طلبت مني أن لا أشتغل عنده بسبب مشاكله، هو جاء للميناء ليستلم بضاعته من صديقه التاجر الأجنبي و هو تاجر من بلاد "الوسا"

يجوب كل أرجاء الدنيا، و أنا الآن أعمل معه و سأسافر معه إلى بلاد "الوسا" لأتعلم التجارة هناك و ربما نزور بلدان أخرى قبل ذلك، لقد تعلمت العمل معهم و كنا معا أسرة واحدة و هو يعاملني كابن له و كذلك يعامل العمال و الحراس، أمّا مدينة الميناء فرغم أن حبيبتي حسناء قد حدثني عنها كثيرا، فاني اكتشفتها الآن إنها مدينة منظمة و طرقاتها نظيفة و متاجرها نظيفة و أسواقها منظمة و الميناء لا يهدأ لا ليلا و لا نهارا، هم هنا يشحنون كلّ شيء الحيوانات و الدواب و المواشي و الوحوش و حتى الزواحف و السحالي، و يشحنون البقول و الفواكه و العسل و ربما يشحنون البشر أيضا، أبي العزيز مدينة الميناء آمنة جدا و منظمة جدا فحرس السلطان يعملون بجدية كبيرة و يؤمنون الطرقات جيدا و لا توجد أي مظاهر للفوضى و الانحراف فالناس هنا تعمل فقط، و الفرق شاسع بين مدينة الميناء و مدينتنا اذ شعرت أننا لا ننتمي لنفس البلاد، أما القرى التي مررنا عليها قبل أن نصل إلى هنا فقد كانت قرى معزولة و يعاني أهلها الجوع و العطش و كان التاجر كلما مر بقرية يمد بعض المساعدات للمحتاجين و كما كان أيضا يحسن التصرف ازاء مصاعب الطريق حتى مع المنحرفين، و قد واجهنا صعوبات في المدة الأولى لمّا كانت مدينتنا تعيش حالة من الفوضى بعد غزوة محاربي "الوسا"، فقد هاجمنا بعض المنحرفين و تصدى لهم الحراس و هاجمنا حرس السلطان فأعطاهم التاجر بعض المال و انصرفوا، يومها ساعدني التجار و الحراس على الاختباء. يبقى أكثر يوم تأثرت فيه و انفعلت فيه هو يوم هاجمتنا مجموعة من محاربي "الوسا" وقتها لولا التاجر الذي كان هادئا و حكيما و هدأ من روعي لارتكبت جريمة، هم في الحقيقة لم يهاجموننا هم فقط جاؤوا لزيارة أحد التجار معنا في القافلة لأنه شقيق

أحدهم، و قد دعاهم التاجر للاستراحة معنا فناموا نوما عميقا، لقد لمست ثيابهم الجميلة و المهيبة و أسلحتهم الأنيقة و المزركشة، و كم شعرت بتفاهة الحياة، كيف يتفنن الإنسان في صناعة الأسلحة، كيف يتفنن الإنسان في صناعة الموت و تزيينه و تزويقه، بعد مغادرتهم فسر لي التاجر أمورا لم أكن أفهمها و فسر لي سبب وجود محاربي "الوسا" وقتها تغيرت فكرتي و صرت صديقا لهم جميعا و حتى التاجر الصغير الذي كان شقيقه من محاربي "الوسا" كانت علاقتي به طيبة، القافلة بقيت لأيام على مشارف مدينتنا تنتظر هدوء الأوضاع، و في الأخير قرر التاجر أن تغادر القافلة، و أوصى تجار المدينة بأن يلحقوه للميناء لتسليم و استلام بضاعتهم، و القافلة قد التحقت بها بعدما قضيت يوما صعبا و أنا أختبئ كل مرة في مكان ، و أتفادى بؤر الفوضى و التوتر، لقد رأيت محاربي "الوسا" كيف هجموا بوحشية على المدينة و على المزارع و الحقول المجاورة، و قد حاول بعض الناس التصدي لهم بما يملكون من عصي و معاول لكن موازين القوى لم تكن متكافئة فداسوا عليهم فمات بعضهم و بعضهم رجعوا إلى ديارهم مهزومين، أبي لقد كان ذلك اليوم مؤلم بالنسبة لي، لقد كان يوما مغبرّا رماديا، أما حرس السلطان فقد كانوا غائبين عن المدينة في ذلك اليوم و كأنهم كانوا متفقين على الغياب و فسح المجال للفوضى. أبي العزيز لقد صدمت كثيرا في تلك الليلة المشهودة لما رجعت للبيت و لم أجدكم، وقتها تأكدت أن حرس السلطان قد اختطفوكم، تألمت كثيرا و شعرت بالضياع في البداية فكرت في اللحاق بكم و إنقاذكم، لكن الخوف منعني لأنني لم أتعود في حياتي على المواجهة، هكذا كانت تقول لي حبيبتي حسناء، و هذا ذنبك يا أبي لأنك كنت دائما تضغط علي و

تخاف علي كثيرا و لا تتركني ألعب مع أترابي، كنت دائما تريدني أن أكون طفلا مثاليا بلا أخطاء، كنت تريدني نسخة منك، أبي العزيز لن أطيل في عتابك، لأنني أعلم أنك مهموم و حزين من أجلي لأنك تحبني كثيرا، لذلك أقول لك و أعيد و أكرر أنني بخير و سأكون بخير فقط اطمئن عليّ، و سنلتقي يا أبي، و سأعوضكم على كل ما لحقكم من أذى بسببي، و أنا أيضا مطمئن عليكم لأني أعرف أن قائد حرس السلطان الذي سطا على السلطة بالتآمر مع محاربي "الوسا" سوف يطلق سراحكم بعدما يسمع بخبر سفري بعيدا، أبي العزيز و أمي الغالية أختي الحبيبة و أخي الجميل الشقي، هذا كلّ ما استطعت أن أكتبه لكم ، أما باقي الرسالة فهي لحبيبتي حسناء التي علمتني الحب و الحياة، ان شئتم اقرؤوها و ان شئتم أتركوا كلماتها جامدة حتى تذيبها حبيبتي و تلعقها بلسانها كما تلعق قطرات العسل، و ان قرأها أحد غيركم فلا أظن أنه سيتذوق طعم حلاوتها"...

صمتت حسناء بعدما قرأت الجزء الأول من الرسالة و نظرت لوالد فراس لتجد ملامحه قد تغيرت و وجهه صار صافيا رقراقا كالماء، و حتى التجاعيد بدت و كأنها خطوط ذهبية قد زين بها جبهته، و فمه الصغير قد صار كالهلال، فنظر إليها و ابتسم فلمعت عيناه و حاول أن يجيبها أو يعلق على ما سمعه لكنه عجز، فاستغلت حسناء ذلك الموقف لتكلمه بشيء من الحزم حتى لا يرفض طلبها فقالت له:

– أيها العجوز، صحيح أن هذه الرسالة هي شأن يخصكم أنتم كأسرة، و من حقك أن تحتفظ بها، لكن الجزء الذي بقي لم أقرأه لك هو يخص حبيبة ابنك و هي ابنة السلطان السابق و ليس من اللائق أن تقرؤوها هذا من ناحية، و من ناحية أخرى هذه

الرسالة ليست رسالة عادية إنما هي وثيقة من والوثائق الهامة في البلاد و ان تسربت بعض المعلومات منها لعموم الناس فقد تتسبب في مشاكل كبرى لبلادنا و قد تقوض الأمن و الاستقرار الذي بدأ يسود البلاد تدريجيا منذ مدة قصيرة، لذلك فمن أجل سلامتك و من أجل استقرار البلاد سأحتفظ بالرسالة و لن أسلمها إلا لابنة السلطان السابق إن ظهرت أو لفراس عندما يعود، و كما قلت لك في البداية عليك أن لا نفشي ما حدث بيننا الآن.

صمت الرجل قليلا ثم ابتسم لحسناء و عبر لها عن فرحته و اطمئنانه على ابنه ثم شكرها و وعدها بأن لا يحدث أي أحد في هذا الموضوع حتى ابنته، ثم غادر الغرفة.

بعدما ودعت والد فراس أغلقت حسناء الغرفة على نفسها و أوصت بأن لا يدخل أحد عليها، ثم فتحت النافذة و خرجت إلى البستان و ظلت جالسة تحت شجرة إلى أن حلّ الظلام، تنفست جيدا في البستان و أرخت جسدها على الأرض حتى شعرت بالراحة و الاطمئنان و صفاء الذهن و حاولت أن لا تفكر في شيء جالت بنظرها على شرفات القصر فرأت أغلب الغرف مضاءة وكل غرفة فيها حركة خاصة و ربما وراء كل حركة قصّة و وراء كلّ ظل يتحرك على وجه الستار ألم و همّ و ربما فرح و سعادة، سهرت إلى وقت متأخر وهي تراقب الغرف أحيانا و السماء أحيانا أخرى إلى أن غلبها النعاس تحت تلك الشجرة لتوقظها في شطر الليل الأخير دورية حراس كانت تجوب بستان القصر، فرجعت إلى غرفتها و أطفأت الأضواء و تركت ضوءا خافتا ثم قربت منه الكرسي و ألقت عليه جسدها المنهك و تناولت الرسالة برفق مثل كل مرة تمسك فيها رسالة فراس و لمّا همّت بفتحها شعرت برهبة و توجس مما قد تحمله الرسالة من

مفاجآت رغم أنها قد عرفت السياق العام للرسالة بعد ما قرأت الجزء الأول منها، عدلت في جلستها و هيأت نفسها جيدا و أخذت نفسا عميقا و وضعت صفحة الرسالة مواجهة للضوء و بدأت تقرأ حروفها بصعوبة و كأنها قد بدأت لتوها تتعلم القراءة، تجاوزت الجزء الذي قرأته لوالد فراس فوجدت الحد الفاصل بين الجزأين يبدأ ب: "حبيبتي حسناء" فتنهدت و استحضرت صورة فراس واقفا أمامها و تخيلت أن ما هو مكتوب على الرسالة يقوله هو بصوته الرقيق الذي اشتاقت إليه كثيرا فبدأت تقرأ حيث كتب لها: " حبيبتي حسناء، لا أعرف إن كانت هذه الكلمات ستصلك أم لا و حتى إن لم تصلك فأنا متأكد أنها ستلامس قلبك و روحك و وجدانك،لذلك سأتحدث عن حبي و شوقي و خفقات قلبي حتى يعرف كل من سيقرأ هذه الرسالة قصة حبنا و يخلدها و يحكيها لأبنائه و أحفاده، عزيزتي الرائعة و الجميلة و المتألقة و الأنيقة و الطيبة و الحنون و الذكية و الماكرة و المتعلمة و المغرورة و المتواضعة و البسيطة و الهادئة و المتهورة، لقد أحببتك كثيرا و أحببت فيك كل شيء، أحببت كلماتك العذبة الرقيقة، أحببت ابتسامتك التي تنساب مع نسمات الصباح فتملأ الوجود فرحا و سرورا، أحببت خطواتك المتأنية و أنت تجوبين البساتين و الحدائق، معك أعيش في لحظة نصف عمري، فتغمريني بحنانك كطفل و تعاتبيني كشاب يافع متهور، و ترتمين في أحضاني فأشعر أني كهلا محاربا خاض مئات الحروب و المعارك، عزيزتي حسناء في تلك الليلة المشئومة اشتقت لك و أنت معي فكلماتك اليائسة كانت تنهال كالسهام على صدري و أشعر أنك تحدثينني من وسط هوة سحيقة و لا يصلني سوى صدى صوت غير مفهوم يضيع و يتلاشى بين الشعاب و الأودية. عزيزتي قبل كلّ شيء أتمنى

أن تكوني على قيد الحياة لأن ما سمعته من أخبار و إشاعات توحي بأنك قد اختفيت أنت و أسرتك و ربما تم تصفيتكم من قبل حرس السلطان، كما أن لحظات الوداع الأخيرة التي كانت بيننا قد جعلتني أفكر في هذا الأمر رغما عني، و هذا ما زاد حزني و ألمي و هذا أيضا ما زاد في رغبتي في مغادرة البلاد، عزيزتي حتى و ان كنت غائبة فسأظل أحبك، لأنني لن أشفى من حبك، حبك الذي تعلمت منه و به كيف أعيش، كيف أتنفس كيف أمشي و كيف أقف و كيف أتكلم، لمّا افترقنا شعرت بالضياع و بكيت كثيرا، و شعرت باليتم، في تلك اللحظات استعادت ذاكرتي كل الدروس التي لقنتني إياها منذ لقائنا الأول، في تلك اللحظات الأولى بعد فراقنا لو اختبرتني لوجدتني تلميذك النجيب المثابر بعدما كنت تلميذك المهمل الكسول، وقتها استحضرت درسك الأول و هو الصبر و التريث و التفكير، و درسك الثاني الحذر و البحث عن الحلول، أما الدرس الآخر الذي تعلمته فيما بعد هو حسن التعامل مع الناس و الحوار معهم و عدم التعصب لفكرة ما، و أنا الآن في مدينة الميناء فهمت كل دروسك حول السياسة و حكم البلاد و العلاقة بين البلدان و فهمت لماذا مدينة الميناء جميلة و مستقرة و فخمة و فيها كل مرافق العيش الكريم، لأن حكام البلاد و قادتها هم من أبناء هذه المدينة، اعذريني عزيزتي لأني فهمت دروسك بعد فوات الأوان، عزيزتي كما وعدتني بالوفاء، أعدك بالوفاء فأنا قد نذرت عمري لك و منحت قلبي لك، و كل ما سأجنيه من رحلتي إلى بلاد "الوسا" من مال سيكون لأبي و أسرتي، أما أنت فسأقطف لك باقة زهور من كل بقعة أزورها و أسلمها لك أو أضعها في آخر مكان تركتني فيه قرب جدول المياه إن لم أجدك، حبيبتي حسناء كم من مرة يجب أن أكتب أحبك على هذه الورقة

البالية؟ انها ورقة مسكينة لا يمكنها أن تحتمل ثقل حبنا، فدعيني أكتب اسمك على جذوع الأشجار و على رمال البحر و على ظهر السفن التي سأركبها لأول مرة في حياتي، عزيزتي سيكون حبك و كل دروسك و كلماتك زادا أحمله معي في كل رحلاتي، و كما تعرفين الرحلة تفتح شهية الحب و تزيد في الشوق و الحنين، و في الحقيقة اشتقت لك قبل أن نفترق، فأنا في تلك الليلة شعرت أنك ابتعدت عني كثيرا فلم تعطري سهرتنا بكلماتك الرقيقة بل رحت تحدثيني عن البلاد و الأحداث و الفوضى التي تعصف بالمدينة، تمنيت لو أن الزمن توقف قبل تلك الليلة و بقينا سابحين مع الفراشات و الطيور بين الأودية و الجداول، أو حلقنا خارج حدود الزمان، تمنيت لو أنك لم تكوني أميرة و لم أكن فقير، تمنيت لو أنني كنت قادرا على تحطيم كل أسوار قصركم و على تحطيم كل الأسوار التي كانت تحول بيننا، تمنيت لو أنني كنت فارسا مجنونا و هربنا على صهوة جواد أبيض بعيدا في أعمق المنحدرات و في أعلى القمم، تمنيت لو أننا نسير معا في مكان تكون فيه خطانا أسرع و أنفاسنا أعمق و أرواحنا أطهر، عزيزتي أظن أن القراءة قد أرهقتك كما أتعبتني هذه الأمنيات، فقط قاومي دموعك لا تتركيها تبلل هذه الورقة، فيكفيها ما تراكم عليها من غبار، عزيزتي حسناء لا تحزني من أجلي افرحي ابتسمي تزيني تجملي تعطري تألقي، سأغضب كثيرا إن وجدتك بعد عودتي فقدت ذرة من جمالك، فقط ساعدي أسرتي و أهلي ان كنت قادرة على ذلك و اسكني بيتنا، و حتى أهلك من حقهم أن يسكنوا بيتنا المتواضع طبعا إن لم يتعرضوا للملاحقة من قبل السلطان الجديد، و ان أردت أن لا يؤذيكم السلطان الجديد حاولي أن تتعرفي على أحد محاربي "الوسا" و بدوره سيعرفك على

أحد المحاربين الذي شقيقه تاجر صغير سافر معنا في القافلة سأكتب لك اسمه على ظهر الورقة و سأكتب لك أيضا اسم التاجر الذي يقود قافلتنا إنه رجل حكيم و قد قاوم تهوري و صوّب سلوكي ، هو حتما سيساعدكم. و في الختام لك مني سلام معطر بأريج الياسمين و شذى الزهور و الرياحين"

ابتسمت حسناء و شعرت بالارتياح و الطمأنينة و انقشعت عنها غيمة الخوف و الحزن التي كانت تلازمها منذ أول يوم أمسكت فيه تلك الرسالة، طوتها بعناية و حفظتها في كيس جميل و زينته جيدا ثم دخلت إلى قاعة التدريس و فتحت خزانة العطور بحثت عن عطر يليق بالرسالة فلم تجد، فقررت أن تصنع عطرا فقط لتلك الرسالة، فوضعت كل المواد و الأعشاب و المعدات أمامها و راحت تجرب و تركب إلى أن طلع الصباح و حان و قت دخول التلاميذ فمنعتهم و اعتذرت منهم، و لم تتوصل إلى العطر المناسب إلا عند الظهيرة فعطرت به الرسالة و الكيس الذي يحويها و خبأتها، ثم نادت تلاميذها و خصصت الدرس في ذلك اليوم السعيد لتعلم تلامذتها تركيب ذلك العطر ربما تريد له أن يكون أشهر عطر في البلاد.

عاشت حسناء لأيام على وقع رسالة فراس، شعرت بنفسها خفيفة و نومها خفيف، و أحلامها وردية، كل شيء يبدوا لها جميل، تلامذتها، السلطان، الناس الذين يأتون للعلاج، حتى الأجانب، كانت ترى جمال فراس في كل الوجوه، و تتحسس طيبة فراس من كل القلوب، و تأسرها كل الابتسامات كابتسامة فراس، كان الحب يبعث فيها كل يوم رغبة في النجاح و رغبة في الإنجاز و رغبة في خدمة الناس و إسعادهم، و ما زاد في سعادتها هو جوّ العمل الذي صار يسير في ظروف طيبة و دون مشاكل، و كان

السلطان كلما قابلها يبشرها بانبهاره بالتغيير الذي بدأ يحدث في البلاد و بتحسن علاقته بالناس، و يطمئنها على سلوك قائد محاربي "الوسا" الذي صار متعاونا و أن إمبراطور بلاد "الوسا" قد راسله و طلب منه أن يواصل عمله دون مشاكل. كادت حسناء أن تنسى جهاد، بعدما غمرتها الفرحة برسالة فراس، لولا أن أتاها خبر عنه حيث أخبرها كالعادة أحد الأشخاص الذي يأتي للقصر بغاية العلاج و قال لها بأن، جهاد بخير و الأشغال تسير بشكل جيد، فشعرت بالسعادة، لكن زيارة جهاد لذاكرتها كانت خاطفة، فانتظارها له بات من باب انتظارها لانتهاء الأشغال و صارت تتمنى فقط أن ينجح فيما يقوم به، فالرسالة قد أعادت لفراس حجمه الأصلي في قلبها و وجدانها و ذلك الركن الصغير في قلبها الذي جلس فيه جهاد، لم يعد يسع رجلين معا، فراس بالنسبة لحسناء هو كلّ أحلامها و أمنياتها و كلّ شيء جميل تنتظره و تعيش من أجله، و جهاد هو الصديق الذي ملأ فراغا صغيرا في لحظات ضعفها و يأسها، و حتى السلطان الذي بحثت عنه رغبة في الانتقام فقد حجز مكانا صغيرا في قلبها بعدما صارت تشفق عليه و ترغب في مساعدته من أجل أهل بلدها، و من أجل خدمة الناس و تطوير عيشهم، و هاهي اليوم تحقق النجاحات بالتعاون معه، لكن هذا النجاح ليس مطلقا فمن المؤكد أن البلاد لا زال أمامها الكثير من الجهد و الوقت و الصدق لتنمو و لتتخلص من ارثها المثقل بالفساد و المحسوبية و القمع و الاستبداد، و من المؤكّد أن هناك مناطق في البلاد فيها الفساد و السرقة و كذلك حرس السلطان مازال أمامهم وقت كبير لإصلاحهم حتى لا يطغى الفاسدين منهم على الصادقين و الخدومين، من

يحكمون المناطق البعيدة عن القصر يجب تغييرهم لكن تدريجيا و هذا ما وعدها به السلطان.

ذات صباح من أيام العلاج أرسل السلطان في طلبها إلى مجلسه، و بعد معاينة الناس الذين جاؤوا للعلاج بسرعة كلّفت بعض تلاميذها الذين أصبحوا ذووا كفاءة و علم بعلاج الناس و تأجيل من يستعص عليهم أمرهم إلى حال عودتها، ثم خرجت فوجدت السلطان يفرك كفيه أمام مجلسه و ما إن رآها حتى أمسكها من مرفقها و دخل بها إلى المجلس و قال:

– أيتها الجنية لقد نفذت ما طلبته مني، اليوم يأتي أناس من عدة مناطق من البلاد و قد جمعهم قائد أثق فيه كثيرا، حيث زار القرى و المدن الصغيرة و الكبيرة و اختار أشخاصا محل ثقة الناس هناك، و حتى الذي تكون عليه اعتراضات يكون عدد المعترضين قليل، هم من جميع الفئات و الأعمار فيهم الفقير و الغني و التاجر و الصانع و الرعاة، أحببت في البداية أن أفرض عليه جلب نصف عددهم من النساء، لكن فيما بعد فكرت في أن النساء إن افتكوا مكانهم عن جدارة فمرحبا بهم، و ليس من حقي أن افرض عددهم وحدي، أيتها الجنية أريدك أن تكوني معي في استقبالهم.

أجابته حسناء بارتياح و قالت:

– مولانا السلطان أنت تعرفني لا أعصي لك أمرا، لكن أفضل أن أختبئ في المقصورة و أسمع كل شيء ثم يمكنك المجيء لأساعدك على الإجابة على طلباتهم و

استفساراتهم، أنت فقط أصغ لهم جيدا و أتركهم يتحدثون بحرية و يعبرون عما يختلج صدورهم و يفرغون همومهم في هذا المجلس ثم قدم لهم الإجابات المقنعة.

تنهد السلطان و ترك مرفق حسناء ثم استدار أمامها و جال بنظره في أركان قناعها و كامل جسدها و ثم أعاد النظر في القناع و كأنه يريد أن يزيحه و يزيح معه وجهها و يرى ما يدور في رأسها من أفكار، ثم وضع يديه خلف ظهره و مشى في اتجاه كرسيّه حيث جلس باطمئنان و أثث الكرسي بكامل جسده و ملابسه الفاخرة فلم يعد يبرز من ذلك الكرسي المغمور سوى عمودين أماميين وضع عليهما يديه المرصعتين بالحلي، ثم أشار إلى حسناء بالانصراف فدخلت المقصورة ليصفق هو بعد ذلك، فأتت المدبرة فأمرها بأن تسمح للضيوف بدخول المجلس بعدما تقدم لهم طعاما قليلا حلو المذاق، و بقي ينتظرهم.

بدأ الناس يدخلون مجلس السلطان، منبهرين و خائفين، فيهم من يتعثر من شدة الخوف و فيهم من يلعق أصابعه من شدة إعجابه بالطعام الذي أكله و فيهم من يتلمظ، و فيهم من يبالغ في تحية السلطان و الجثو أمامه لوقت طويل، قامت المدبرة بتنظيمهم بمساعدة الخدم و الحراس، و من لم تجد له كرسي وفرت له فراشا على الأرض.أتمت المدبرة عملها فطلب منها السلطان أن تغادر هي و الحراس، ثم قال:

– مرحبا بكم في قصري فأنتم أولا و قبل كل شيء ضيوفي، أنتم تم اختياركم بدقة لتكونوا في قصري هذا الذي هو قصركم، و تحديدا في مجلسي هذا لنتحدث و نتناقش، و قد عرفنا أن كل واحد منكم يثق فيه أغلب الناس في مدينته و في قريته و أعرف أن بعضكم جاء من مناطق وعرة و من الجبال، و بعضكم جاء من مناطق جافة

تندر فيها المياه و موارد الرزق، أعرف أن بعضكم جاء من مدن بنيتها متهرئة و طرقاتها غير مهيأة و لا توجد فيها أماكن عمل، و أعرف أن الأحياء التي توجد في أطراف المدن تعاني الفقر و تفشي الانحراف، و من خلال كلامي هذا أظن أنكم عرفتم أن هناك أمور أخرى لا أعرفها و مشاكل لم أسمع بها، و بالتالي من واجبكم أن تنيروا أمامي السبيل و تفتحوا عيني على ما لم أكن أراه، أريد أن أسمع منكم و يكفيني ما سمعته عنكم، فقط تحدثوا بصدق و بحرية و دون خوف.

أكمل السلطان حديثه فسرت بين الصفوف جلبة خفيفة و بدأ الناس ينظرون إلى بعضهم البعض، ثم ساد صمت رهيب قطعه صوت متقطع لرجل طاعن في السن، حيث قال:

– لم أكن في حياتي كلها أحلم بدخول هذا القصر، كنت أتردد على هذه المدينة في شبابي و كنت أمرّ أحيانا على مشارف هذا القصر الذي يبدوا كقلعة سحرية محصنة و الحراس تحيط به من كل جانب فينتابني الرعب، مدينتنا تبعد عن هذه المدينة حوالي يوم من السير لكن الفرق بينهما سنوات لا بل قرون، حيث لا توجد عندنا تجارة و لا صناعة و لا طرقات، و المدينة يعيث فيها المنحرفون فسادا، المدينة يعيش فيها فقط الحاكم الذي أرسلته إلينا هو و أبنائه و كل أسرته و كل من والاه يتمتعون بما يحصلون عليه من نهب أرزاق الفقراء، و ما يأتيهم من القصر من أموال قد تكون مرسلة لبناء المدينة و تطويرها، أما حراسكم فلا يفعلون شيئا غير ضرب الناس و إهانتهم و التنقل بين المزارع و الحقول لأخذ الإتاوات و ينجوا منهم فقط قطاع الطرق و المنحرفين و بعض مالكي الأراضي الكبرى الذين يدفعون رشوة مباشرة للحاكم، و حراسكم يستغلون

المنحرفين لإرهاب الناس ان حاولوا التمرد و التعبير عن غضبهم، سيدي في المدة الأخيرة سكن على مشارف مدينتنا مجموعة من المحاربين يبدوا أنهم أجانب هم في الحقيقة لم يتدخلوا في شؤوننا فقط يعيشون في معسكرهم عيشة رغيدة حيث تأتيهم المأكولات الفاخرة من خارج المدينة و لباسهم فخم و أسلحتهم و عرباتهم فخمة، يقترب منهم أحيانا بعض المتطفلين أو بعض الذين ينبشون ما يلقونه من بقايا الأكل و اللباس البالي في مصب المهملات. سيدي، إنّ السلطان السابق لم نكن نعرفه لكنه كان يرعبنا و هذا الرعب ظل ساكنا فينا رغم ما سمعناه عنك من حلم و طيبة. سيدي، هذا ما استطاعت ذاكرتي المثقوبة أن تلتقطه من مآسي منطقتي، لذلك سأترك الفرصة للآخرين كي يعبروا و يتحدثوا، فالحال من بعضه سواء.

لم يجبه السلطان و بقي يحدج وجوه الحاضرين الذين بدأت غشاوة الخوف تنزاح عن وجوههم، فبدؤوا يثرثرون و يتداولون على الكلام و السلطان يتابع كلامهم بانتباه و ذهول، إلى أن شعر بالتعب و لم يعد يستوعب ما يقولونه، فأمرهم بأن يصمتوا ثم صفق فجاءه بعض الحراس و معهم المدبرة فطلب منهم أن يأخذوا كل الناس إلى حديقة القصر ليتناولوا الطعام، و ما ان خرجوا حتى أطلت عليه حسناء و قالت له:

– مولانا السلطان يبدوا عليك التعب، تنفس قليلا ثم تمدد على الأرض و سترى مفعول هذه الحركة، أكيد سترتاح.

انصاع السلطان لأوامرها و تمدد على الأرض و بقي معلقا نظره بالسقف و يسحب أنفاسا عميقة ثم يطلق زفيرا مدويا في أرجاء القاعة و كأنه يصعد قمة شاهقة، فخرجت حسناء من خلوتها و اقتربت منه و قالت:

– مولانا السلطان، ما قاله هؤلاء كنت أتوقعه منهم، هناك بعض المبالغة فلأمور ليست بهذه الدرجة من السوء و العدمية، و الإصلاح ممكن، أقترح عليك أن تلقي عليهم خطابا مطمئنا و أن تحملهم المسؤولية، و تفسر لهم مهامهم في المدن و القرى التي سيمثلونك فيها، فهم هنا في قصرك يمثلون قراهم و مدنهم، و هناك يمثلونك أنت، و بالتالي يجب أن يكونوا صورة منك هناك و يتصرفون مع الناس كما تتصرف أنت، و أنا الآن تبادرت إلى ذهني فكرة لكن ليس الآن وقت تنفيذها بل في المستقبل، اذ أقترح عليك أن تختار بنفس الطريقة أناس آخرين من نفس المناطق و نبني لهم مجلسا في المدينة خارج القصر يجتمعون فيه و يتحاورون ثم يقترحون عليك ما يتوصلون له من قرارات، أما الآن فيجب أن ترسل هؤلاء الناس لينفذوا أفكارك و مشاريعك في مدنهم و قراهم، و توفر لهم الأموال بالعدل و ما أقصده بالعدل ليس التساوي إنما أن تمنح المناطق الأكثر فقرا و تهميشا أموالا أكثر من المناطق المحظوظة التي نالت نصيبها سابقا، أما الحراس فلا يمكنك طردهم أو معاقبتهم كلهم فقط عليك محاسبة قادتهم ثم تبديلهم بين القرى و المدن و لمّا يجدون أنفسهم في أماكن جديدة و في منظومة جديدة و يفقدون علاقاتهم و ارتباطاتهم السابقة، حتما سيغيرون سلوكهم و يكونون مجبرين على احترام الناس. مولانا السلطان خطتنا هذه سوف لن تجعل من بلادنا بلادا فاضلة بلا مشاكل و دون فساد، لكنها ستحدّ من الفساد و ستسهل عليك المراقبة و المحاسبة، و هي خطة ستعطي للناس أملا في العدل و الإنصاف و بالتالي ستتحسن علاقاتهم و سيحبون بعضهم و سيحترمون بعضهم. مولانا السلطان أنصحك أيضا بأن تقوم بتنصيبهم بنفسك في مناصبهم و هذا ما سيزيد ثقتهم في

أنفسهم و ثقة الناس فيهم، اسمح لي الآن لأعود لعملي، و أنت خذ قسطا من الراحة و في الغد اختم لقائك بهم و تصرف معهم مثلما أوصيتك.

رجعت حسناء لتواصل عملها و تركت السلطان في مجلسه فرحا مطمئنا، و في المساء جاءتها المدبرة لتخبرها أن السلطان كان منهكا و لم يقم بأي عمل أما الضيوف فقد كانوا فرحين بالمأدبة و قد وفرت لهم السكن في غرف بعض الحراس، فشكرتها حسناء و قالت لها بأن فيهم من زارها و تمتع بالعلاج و بعض الأدوية، و في اليوم الموالي اجتمعوا بالسلطان الذي تصرف معهم كما أوصته حسناء و قدم لهم خطابا مطمئنا و الكثير من الوعود و حملهم مسؤولياتهم.

بمرور الأيام انهمك السلطان في تنصيب الحكام الجدد، و ساعده في ذلك بعض قادة الحرس الذين اختارتهم حسناء، لكن السلطان تعمد ترك موكب تنصيب المسؤول عن الحي الموبوء في الأخير و استغربت حسناء ذلك فالحي قريب من القصر، لكن هذه الحيرة انزاحت عنها بمجرد دعوتها من قبل السلطان لترافقه في موكب التنصيب في الحي الذي كان موبوءا فوافقت و كانت سعيدة بذلك لكن اشترطت عليه أن تكون متخفية و أن يذهب معهم قائد محاربي "الوسا" ليعتذر من الناس نيابة عن جنوده. وافق السلطان على شروطها و وافق أيضا قائد محاربي "الوسا" و تنقلوا في موكب احتفالي محملين بالمساعدات و الهدايا فاستقبلهم الناس استقبالا جيدا و تحدث إليهم السلطان بتلقائية و زار بعض البيوت. نظرت حسناء من خلف الستار فلاحظت أن الحي تحسن كثيرا و صار نظيفا و عاد أغلب الناس إلى أعمالهم و تجارتهم و شعرت بفرحة غامرة، و شعرت بنخوة الانتصار، أما القائد الأجنبي فقد قدم اعتذاراته للناس و

قدم لهم أيضا بعض الهدايا و كانت حسناء تراقبه عن كثب و هي متوجسة من أن ما يقوم به إنما هو مجرد تمثيل و تظاهر، لكنه دخل عليها في العربة و كأنه يريد أن يعتذر منها هي أيضا و قال لها إنّ تغير سلوكه هو بناء على رغبة من إمبراطور بلاد "الوسا" الذي راسله و طلب منه أن لا يسبب مشاكل في البلاد و أن لا يتدخل في شؤون الحكم، قبلت حسناء اعتذاره ببرود و شكرته ثم طلبت منه أن يرجع إلى عربته. بعد يوم احتفالي رجعوا إلى القصر و كان السلطان فرحا و يوزع الابتسامات على الجميع، و عند الوصول أمر بتنظيم حفل صغير لساكني القصر، ثم دخل على حسناء و شكرها مرة أخرى و بشرها بالأخبار السارة القادمة من عند جهاد، و سألها عن وضع التلاميذ فقالت له بأنهم اكتسبوا خبرة كبيرة و علوما نافعة و قالت له بأنها تريده أن ينظم لهم حفلا يحضره أهاليهم عندما ينهون دراستهم و ذلك بعد أن تختبرهم هي، فأبدى كعادته إعجابه باقتراحها و موافقتها عليه.

عاشت حسناء سعادة كبيرة بعدما قدمته لفائدة أبناء بلدها من انجازات و نجاحات و بعد مدة من العمل و الجهد و المثابرة تمكنت من تعليم دفعة من التلاميذ و اختبرتهم فوجدتهم يتمتعون بكفاءة عالية عدا عدد قليل منهم فوعدتهم بأن يتداركوا ما فاتهم و ما عجزوا عن فهمه، و بعدما احتفى بهم السلطان و كرمهم و كرم أهلهم كلّفهم بأن يفتحوا، كلّ واحد في حيه أو قريته، بيتا لعلاج الناس و بيتا لتعليم الأطفال مختلف العلوم و المعارف التي تعلموها في القصر و تعهد بأن يوفر لهم كلّ ما يحتاجونه في عملهم، و هكذا أنهت حسناء مرحلة أولى لتبدأ مرحلة ثانية مع تلامذة جدد واصلت معهم عملها بنفس الجدية و الحماس بل و طورت في تعاملها معهم و كانت كلّ يوم

تجدد معارفها، أما السلطان فقد كان فرحا مسرورا و فخورا بكلّ ما أنجزه و كانت كل يوم تأتيه أخبار جيدة عن تحسن أوضاع الناس في عدة مدن و قرى، كما أصبح يتقرب من حسناء و صار يتعامل معها كما يتعامل مع امرأة عادية و كأنه نسي أنها امرأة غريبة الأطوار بقناع بقرة، و ذات يوم تجرّأ و طلب منها أن تعلم شقيقة فراس و تسهر على تربيتها و تحضيرها لتكون أميرة القصر، و تكون أميرة متعلمة لتساعده في المستقبل على إدارة شؤون البلاد، شعرت حسناء بالاشمئزاز من طلبه الغريب و من جرأته لكنها قبلت بذلك لأنه ليس لديها خيار غير تنفيذ أوامره، و ليس من مصلحتها تعكير الأجواء فهي تعيش في القصر في انتظار حبيبها فراس الذي اشتاقت له كثيرا.

خلال تلك الأيام حيث تعيش حسناء أيام نجاح و سعادة كان والد فراس يتهاوى كالشجرة القديمة و استبدّ به الوهن رغم ما يحظى به من رعاية في القصر و ذات صباح أفاق القصر على خبر وفاته، و كان ذلك الصباح صباحا مؤلم بالنسبة لحسناء بصفة خاصة و لساكنة القصر بصفة عامة الذين كانوا يعاملونه كأب و حتى السلطان تأثر قليلا فهو كان يكن له بعض الاحترام. مثل يوم وفاة ذلك الرجل صفحة جديدة حياة حسناء فقد استعادت رغبتها في الانتقام من السلطان الذي حرم حبيبها فراس من توديع والده في آخر حياته، و حرمها من البكاء على والد حبيبها كإنسانة عادية بوجه أعزل و دون قناع، لكن كيف ستنتقم من هذا السلطان الذي بفضل تعاونه معها تحسنت أحوال البلاد و أحوال الناس، و ربما يكون انتقامها منه انتقاما من البلاد بأسرها، حيث كانت كلّما فكرت في طريقة للتخلص من السلطان أو تحطيمه أو التآمر عليه تتذكر أولئك القرويين و المزارعين، تتذكر ذلك الحي الذي كان موبوءا، تتذكر الناس البسطاء

الذين يأتونها للعلاج، تتذكر تلاميذها النشيطين الحالمين الذين يتّقدون حماسا و تحدوهم رغبة كبيرة في تحسين ظروف عيش أهلهم و أسرهم، مرّت أياما عصيبة على حسناء بعد وفاة والد فراس و ظلت مختفية عن الأنظار لعدة أيام و تعطلت الدروس و حصص العلاج مما اضطر السلطان بأن يستنجد بأحد تلامذتها القدامى ليقدم العلاج للناس بدلا عنها في غرفة أخرى من غرف القصر المطلة على البستان.

استعادت حسناء عافيتها بعد مدة قصيرة و تجاوزت مرحلة الحزن كما تتجاوز كلّ مرة آلامها و أوجاعها، و رجعت إلى العمل بشكل عادي و بنفس الحماس، فقط علاقتها بالسلطان أصبحت فاترة رغم محاولتها التصنع و إظهار عكس ذلك، فهي مضطرة لمسايرته حتى تنهي عملها و يعود فراس.

اقترب موسم الشتاء و يبدوا أنه شتاء قاس و ممطر و السلطان كان سعيدا و مستبشرا بنزول الأمطار خاصة و هو ينتظر قدوم جهاد بعدما أنهى عمله و أنشأ بحيرة جديدة، و طلب من حسناء أن تكون معه في استقباله في مدخل المدينة فأبدت موافقتها و سعادتها لأنها اشتاقت لجهاد و لأنها ترغب في الخروج و الترفيه عن نفسها و الخروج من حالة القلق و الملل التي تعيشها.

ذات صباح خرجت حسناء مع موكب السلطان إلى مدخل المدينة، كان الجو داكن و الأمطار تنزل بغزارة و قد أضفت الأمطار على الغابات و التلال جمالا و رونقا استمتعت به حسناء كثيرا عند الخروج من القصر، لكن ما أفسد عليها متعتها بذلك المنظر الجميل هي الأوحال المتراكمة في الطرقات و برك المياه المتناثرة أمام المتاجر و البيوت، حاول السلطان أن يتجاذب معها أطراف الحديث حول مشكلة الأوحال و

برك المياه في المدينة لكنها تجاهلته حيث كانت منشغلة ثم قالت له بأن هذه المشاكل موجودة في كل المدن و هي من مشمولات جهاد، تفهّم السلطان وضعها و بقي صامتا إلى أن وصلوا إلى مدخل المدينة و بعد مدة وجيزة من الانتظار وصلت قافلة جهاد و رغم الأمطار كان في استقباله عدد كبير من الناس فرحين بما أنجزه، أمر السلطان بأن تكون والدة جهاد في استقبال ابنها الذي ترجل هو بدوره و قدم الهدايا التي أتى بها معه من القرية التي كان يشتغل فيها إلى السلطان الذي عبر عن فرحته و عن فخره بما قام به. ألقى السلطان كلمات الشكر على الناس الحاضرين و أمسك بيد جهاد و رفعها عاليا فارتفعت الأهازيج و الهتافات و اشتدت غزارة الأمطار و عاش الجميع لحظات فرح و سعادة، و بعدما عبروا عن فرحتهم أذن لهم السلطان بالمغادرة و طلب من جهاد بأن يدخل معه للعربة، و ما ان دخل العربة حتى احتضنته حسناء بحرارة أمام ذهول السلطان و المدبرة التي كانت معهم، ثم رجع الجميع إلى القصر.

رجع جهاد للقصر و ترك له السلطان الفرصة ليبقى مع والدته في الجناح المخصص لهما حتى يرتاح و يتحدث معها أكثر فهي من المؤكد قد اشتاقت له كثيرا، و في المساء تم تنظيم مأدبة احتفالا بقدومه. اجتمع السلطان في مجلسه بجهاد و حسناء و بعدما أعرب عن سعادته بما ينجزانه أجابه جهاد قائلا:

– مولانا السلطان، الهدايا التي جلبتها معي أصر الناس هناك على إرسالها معي كعربون شكر و محبة لك على ما تقوم به من أجلهم، كما جلبت معي بعض المعدات الصغيرة التي اشتغلنا بها هناك للذكرى، الناس هناك طيبون و قد حظيت باحترام كبير بينهم، و رغم العراقيل و المصاعب التي واجهتها في البداية فقد تحملت و صبرت و تحديت

المشاكل لنواصل بناء البحيرة التي كانت رائعة و أجمل بكثير من البحيرة التي أنشئت في قريتنا، و الناس هناك قد فرحوا بها كثيرا و قد احتفلوا بها و قدموا لنا المساعدة في كل ما نحتاجه، مولانا السلطان القرية التي عملت فيها بدأت الظروف تتحسن فيها و حاكمها الجديد الذي تم تنصيبه من قبل أحد حراسكم يقوم بعمل جبار في بناء الطرقات و المتاجر كما تم استقبال أحد أبناء القرية الذي درس في القصر و صار يعالج الناس و يدرس الأطفال العلوم. مولانا السلطان أشكرك كثيرا على الثقة التي منحتني إياها و أشكرك على رعايتك لوالدتي و أعدك بأن أكون عند حسن ظنك بي، الناس في البلاد فرحين بما تقدمه لهم و قد ذاع خبر تواضعك و اقترابك من الناس و من همومهم و مشاكلهم. مولانا اسمح لي بأن ارتاح في هذا الشتاء لنعود بعد ذلك للعمل و بناء المزيد من البحيرات، و البحيرة التي قمنا ببنائها سيكون هذا الشتاء فرصة لنعرف عيوبها.

ابتسم السلطان و أجابه:

– من حقك أن ترتاح لكن هذا الشتاء يجب أن تخرج للمدينة لتشاهد البرك و الأوحال التي تغرق المدينة كلما نزلت الأمطار، و تفكر لنا في حلول لهذه المشكلة، كلّ ما وصلنا له من نجاحات إنما هو بفضلك أنت و الجنية فلولاها لما غامرت و لما اختلطت بالناس و لما مشيت بينهم في الأسواق دون حراس، و لولاكما لما فكرت في تعليم أبناء البلاد و علاجهم في القصر، الحديث يطول في هذا الموضوع، المهم أنت فقط أطلب ما تحتاجه و سأوفره لك في كل أعمالك و حاول أن تختار معاونيك لأنك الآن لا تستطيع أن تعمل وحدك و بناء البحيرات سيكون في عدة مناطق بالتوازي

حتى نربح الوقت لأننا ان تمكنا من توفير الماء لكل الناس في بلادنا فسنتغلب على كل مشاكلنا، فنقص الماء هو أصل كل المشاكل، و الماء سيكون أهم ثروة في بلادنا. أشكرك مرة أخرى أخي جهاد و لا تنسى أن والدتك هي والدتي أنا أيضا.

ابتسم جهاد و جال بنظره في مجلس السلطان و كأنه يتفقد ما فيه من زينة و أثاث ثم نظر إلى حسناء نظرة حب و شوق و ما ان لاحظته ينظر إليها حتى تفادته و حاولت أن تثرثر و تتحدث في عدة مواضيع فهي لا ترغب في أن تستعيد لحظات الارتباك و الحيرة التي عاشتها مع جهاد في الأيام الأخيرة قبل مغادرة القرية، و هي لازالت تعيش على وقع حادثة وفاة والد فراس، و لا زال فراس أيضا يشغل بالها في كل الأوقات. بعد سهرة ممتعة و حالمة أذن لهما السلطان بالمغادرة فأوصل جهاد حسناء إلى باب غرفتها و حاول التحدث إليها و التعبير عن مشاعره تجاهها حيث يبدوا أنه ظل طوال مدة غيابه يفكر فيها، فجاملته ببرود و تخلصت منه بصعوبة فغادرها و هو حزين حائر أما هي فألقت جسدها المنهك و راحت تفكر ،بشفقة، في جهاد الذي يبدوا أنه يحبها كثيرا و هو الوحيد الذي يكتم سرّها و قد يتحول حبه إلى نقمة إن هي واصلت في تجاهله، و بالتالي عليها دائما مجاملته طوال فترة الشتاء التي سيقضيها في القصر.

مرّ الشتاء بسلام رغم غزارة أمطاره و كثافة رياحه، و حسناء أنساها العمل و التدريس حزنها كما انشغل عنها جهاد بما كلّفه به السلطان حيث أعدّ خطة كاملة لتنظيف الطرقات و المدن من الوحل و تصريف مياه الأمطار في اتجاه الأودية حتى لا تتراكم البرك في المدن خلال نزول الأمطار، أما أخبار البحيرة فقد كانت جيدة حيث لم تحدث أي مشاكل و أي حوادث و تجمعت كمية هامة من المياه في البحيرة و نفس

الشيء بالنسبة للبحيرة الأولى التي تم بنائها في قرية جهاد حيث جاء منها وفدا إلى قصر السلطان للتعبير عن شكرهم له و فرحتهم بما تم انجازه لفائدتهم.

و هكذا تواصل حكم السلطان بمساعدة جهاد و حسناء، حكم تميز بخدمة الناس و حل مشاكلهم و الإنصات لانشغالاتهم و علاجهم و مقاومة الأوبئة و الأمراض و مختلف الانحرافات، و خلال موسم الجفاف زار السلطان البحيرتين و وقف على توزيع المياه بين المزارعين فوجد بعض الصراعات الصغيرة و التي كان حلها سهل و تفاديها ممكن، و الأهم هو أن جهود الناس لم تذهب سدى فتطور إنتاج البقول و الفواكه و تكاثرت المواشي و تحسنت ظروف عيش المزارعين و هذا ما انعكس على التجارة في المدن بشكل ايجابي حيث صارت المدن نشطة و مزدهرة كما توافد التجار من عدة بلدان أخرى لشحن المنتجات و تنشيط الموانئ و المسالك التجارية.

مرّت سنوات على حكم السلطان و البلاد تعيش كلّ يوم تطور و ازدهار و تحسن عيش الناس و صارت حياتهم أكثر أمانا و أقل مشاكل و تمت مقاومة الفساد في حراس السلطان و الحكام الذين يتم تعيينهم حيث صاروا يخافون محاسبة الناس لهم و يخافون من فقدان مناصبهم، كما تحسنت علاقة السلطان بحكام البلدان المجاورة و ذلك بفضل أفكار حسناء التي تساعده في ربط علاقات جديدة و فتح الحدود و تحرير التجارة عبر المسالك الحدودية و تم تعديل قيمة البضائع حتى يقل التهريب و يتمكن التجار من دفع إتاوات بسيطة بدل دفع عمولات كبيرة لحراس الحدود، كما تحسن سلوك محاربي "الوسا" الذين صاروا يكتفون ببعض المهام الأمنية و بحراسة بعض المتاجر و محلات الصناعة التابعة لبلدهم، لكن حسناء وصلتها أخبار أن قائد

محاربي "الوسا" قد زاره مبعوث من بلاده يحذره من أنه سيتم عزله ان واصل عجزه عن عرقلة المشاريع الزراعية التي بسببها أغلب تجار بلاد "الوسا" الذين كانوا يبيعون بضاعتهم في البلاد يواجهون مشاكل و يعيشون أزمة خانقة، و قد يتطور الوضع نحو الأسوأ.

استغل السلطان الأجواء الإيجابية ليعلن رغبته في تنظيم حفل زفافه من شقيقة فراس، حاولت حسناء أن تثنيه عن ذلك رأفة بالفتاة التي لازالت صغيرة و قد عللت ذلك بإخباره بأن الوقت ليس مناسبا و بأن قائد محاربي "الوسا" قد تم تهديده و ربما يغير سلوكه، لكن السلطان لم يبال بكلامها و بقي منشغلا بتحضير الحفل و برر ذلك بأنه يراها كبرت و صارت ناضجة.

سمع جل الناس في البلاد بخبر اعتزام السلطان الزواج و كان الخبر باعثا على السعادة و الاحتفالات في كل المدن، حيث عاشت البلاد حفلات يومية ينظمها الناس في الشوارع بصفة عفوية، أما في القصر فكان الجميع منهمكون في تحضير حفل زفاف السلطان و حسناء تخصص بعض أوقات فراغها لتزيين الفتاة و تعليمها أساليب التخاطب مع الأعيان و كلّ ما يهم حياتها الجديدة، و في نفس الوقت كانت تتابع سلوك قائد محاربي "الوسا" إلى أن سمعت ذات يوم أن مجموعة من الأجانب قد دخلوا للقصر و عزلوا القائد القديم و نصّبوا بدلا عنه قائدا جديدا و هذا تماما ما توقعته و كانت متوجسة منه منذ مدة.

بعد التحري في شأن القائد الأجنبي الجديد دخلت حسناء مباشرة على مجلس السلطان حيث وجدته منهمكا في تحضيراته اليومية للزواج و التحدث إلى الطباخين و الخياطين، طلبت منه أن يأذن لهم بالخروج و قالت له:

– مولانا السلطان، أقدر انشغالك بأمر الزواج و هذا شأن هام بالنسبة لك و بالنسبة للبلاد بأسرها، لكن هناك مستجدات هامة يبدوا أنها لم تجلب اهتمامك و لم تكترث بها، فقائد محاربي "الوسا" الذي تم تغييره مؤخرا ليس مجرد تغيير عادي إنما هناك أحداث كثيرة، أولها الإمبراطور الجديد لبلاد "الوسا" الذي اعتلى العرش مؤخرا فأنت تعلم يا مولانا أنهم يغيرون حكامهم كما يغيرون ثيابهم، لكن الإمبراطور الجديد يبدوا أنه صعد للسلطة بمساعدة كبار التجار الذين لا يريدون للبلدان الصغيرة و الفقيرة كبلادنا أن تصبح منتجة و مستقلة، فهم يريدون دائما ترويج بضائعهم و صناعة الأسلحة حتى و إن كان ذلك على حساب أرواح البشر. مولانا السلطان القائد الجديد جلب معه العديد من القادة الذين سيشرفون على مختلف المعسكرات المتمركزة في عدة مناطق من البلاد، و أغلب هؤلاء القادة هم من أبناء البلد الذين هاجروا سابقا أو هاجر آبائهم إلى بلاد "الوسا"، و هؤلاء أخطر على بلادنا حتى من الأجانب الأصليين لأنهم يعرفون الناس هنا و لهم علاقاتهم و ارتباطاتهم. مولانا السلطان قبل أن يغادر القائد القديم عليك أن تقيم له حفل توديع صغير يكون بالنسبة لك فرصة لتلقي خطابا تعطي فيه رسالة للقائد الجديد حتى يفهم أن بلدنا تغيرت و لا يمكن أن نعود إلى الوراء و أننا صرنا نعول على أنفسنا.

أومأ السلطان برأسه و شكرها على اهتمامها فتركته و غادرت إلى عملها و مع حلول الظلام ألقت جسدها المنهك على الفراش لتعاودها نوبة الذكريات و الشوق لفراس فتتذكر كل الكلمات التي كتبها في رسالته و المعانات التي عاشها و عبارات الحب و الحنين، وسط هذا الزخم من الذكريات تستدعي صورة جهاد نفسها تلقائيا رغم أنها تحاول تجنب تذكرها، صورة جهاد هي صورة الرجل الشهم الجاد الذي بعث في قلبها الأمل و حب الحياة و تذكرت آخر مرة رأته فيها قبل أن يذهب إلى عمله حيث كان يضع رأسه على ركبة والدته كطفل صغير و هي تداعب شعره و تلمس وجهه الذي بات مجعدا من شدة التعب و الإرهاق و السفر، هكذا هي الحياة جمالها في قسوتها و لذتها في التعب، و هكذا ظلت حسناء لا تنام إلا على وقع الذكريات، و تقضي نهارها في العمل و أحيانا تراقب تصرفات القائد الأجنبي الجديد و مساعديه الذي صار عددهم كبير في القصر و سمعت عنهم معلومات أنهم في أوقات متأخرة من الليل يتحركون في أركان القصر و يقومون ببعض الشعوذة و يحاولون تحريك كل الحجارة و التماثيل الموجودة في أركان القصر، ففهمت أنهم يبحثون عن الممرات السرية في القصر، و فهمت أيضا أن التعامل معهم سيكون أصعب من التعامل مع القائد القديم، الذي أزف موعد مغادرته و أقام السلطان حفلا لتوديعه ،كما وعدها، و ألقى خطابا بالمناسبة.

القائد الجديد لمحاربي "الوسا" جلب معه أيضا أطباء و علماء صاروا يدخلون كل يوم إلى بيت التدريس و يتدخلون في شغل حسناء و صاروا يروجون في القصر أن ما تقوم به هو مضيعة للوقت و أنهم بإمكانهم توفير أدوية بأقل التكاليف، و كانت هي دائما

تحاول أن تتفاداهم تجنبا للمشاكل، إلى أن تفرّغ السلطان ذات يوم و نظم لقاء ليجمع فيه حسناء بالقائد الجديد في مجلسه، فلبت طلبه و دخلت المجلس فوجدت القائد الجديد و معاونيه فلاحظت أنهم لم يفزعوا من منظرها و خاصة بعض المعاونين الذين حدّقوا فيها بجرأة، ففهمت أن هؤلاء الناس لا يمكن أن تخدعهم أو تخيفهم بحركاتها و بخوارقها، قدّمهم السلطان لبعضهم و عدّد منجزات حسناء و صديقها جهاد و تكلم عن بالقائد الجديد بشيء من الإطراء و قال:

– هو في الأصل من بلد مجاور قد هاجر منذ كان شابا إلى بلاد "الوسا" و اشتغل محاربا هناك حيث شارك في عديد المهام و الغزوات التي تقوم بها إمبراطورية "الوسا" من أجل الإنسانية و أبدى كفاءة عالية في القيادة فكرموه و تم تعيينه ليكون قائدا لمحاربي "الوسا" الموجودين في بلادنا الذين يساعدوننا منذ مدة في تأمين بلادنا و خدمتها.

كانت إجابات القائد يشوبها التعالي و كان يحاول دائما التقزيم من المنجزات التي يتحدث عنها السلطان و يقلّل من أهميتها و مع ذلك تعامل مع حسناء ببعض المجاملات المملة المليئة بالتلميحات الخبيثة، أما حسناء فرغم امتعاضها و قلقها انتظرت فرصتها في الكلام لتقول:

– مولانا السلطان، نرحب بهؤلاء القادة الأفذاذ و نشكر لهم مساعدتهم لنا في بناء بلدنا و في تحقيق الأمن و مقاومة قطّاع الطرق و المنحرفين، لكن بحكم أن هذا القائد قد جاء إلينا جديد بعد سنوات من وجود محاربي "الوسا" في بلادنا يجب أن نذكره أننا الآن أصبحنا نعول على أنفسنا في بناء البلاد و علاج المرضى و صنع

الأدوية و الزراعة و نحن قادمين على مشاريع كبرى و على تغيير حتى أسلوب حكم الناس و تشريكهم في أخذ أهم القرارات في البلاد،. لقد قمنا بخطوة كبيرة في توفير المياه و بناء البحيرات و نخطّط لبناء بحيرة كبيرة ستكون أهم انجاز في البلاد كلّها و ستساهم في حلّ مشكلة المياه. بلادنا تغيرت كثيرا و دخلت مرحلة جديدة من التنظيم و تقسيم السلطات و المسؤوليات، و هذا كلّه بفضل مولانا السلطان الذي خير أن يكون قريبا من الناس و من مشاغلهم. أما أنتم أيها الأجانب فمرحبا بكم و شكرا لكم لكن لا تنسوا أن تحترموا تقاليدنا و عاداتنا و قوانيننا و كونوا حذرين في تعاملكم مع الناس لأنكم قد تواجهون صعوبات في بعض المناطق.

أجابها القائد بحزم قائلا:

– نحن نعرف جيدا مهمّتنا و عندما نكملها سنغادر البلاد فورا.

أكمل كلامه ثم غادر دونما استئذان مجلس السلطان و تبعه معاونوه و كأنه يربطهم في ذيل ثوبه، فانتظرت حسناء خروجهم ثم جالت بنظرها في كل أرجاء القاعة و اقتربت من السلطان و قالت:

– مولانا السلطان، لقد توقعت تغيير قائد محاربي "الوسا" منذ مدّة و ها قد حصل ذلك، و القائد الجديد تبدوا من ملامحه علامات الخبث و الدهاء، لكن لا يمكنني أن أتوقع ما سيفعلونه بالبلاد فالأيام القادمة ستكشف لنا نواياهم، اسمح لي مولانا السلطان أن أختفي مدة من القصر فالجو بات خانقا، و لم أعد قادرة على العمل

كسابق عهدي، تلاميذي سيواصلون عملهم و أتمنى أن لا تتم عرقلتهم، و جهاد سيساعدك أثناء الفترات التي يرجع فيها للقصر لزيارة والدته.

ذهل السلطان من كلامها و ظلّ لمدة عاجزا عن الكلام و ينظر حوله و كأنه يبحث عن شيء فقده ثم تنهّد و قال:

– فاجأني طلبك، و رغم أن هذه الفترة صعبة و أنا مشغول بتحضير مراسم الزفاف، و رغم أني في أمسّ الحاجة لوجودك هنا، سأسمح لك بالذهاب، ربما يتغير مزاجك و تعودين.

غادرت حسناء مجلس السلطان شعرت بخيبة و حزن شديد، و هي نفسها فوجئت بالقرار الذي اتّخذته دون أن تخطط له أو تفكّر فيه مسبقا، لكن هي اتّخذته بعد أول لقاء مباشر مع قائد محاربي "الوسا" و معاونيه حيث انتابها الرعب منذ الوهلة الأولى التي رأت فيها حركاتهم و نظراتهم، حيث خشيت أن يكتشفوا أمرها و يفسدوا كلّ ما قامت به و ربما يتمّ إعدامها، و رغم خيبتها فهي مطمئنة أنها ستخرج من الورطة التي أوقعت فيها نفسها منذ زمن طويل بأخف الأضرار، ربما هي تفكّر في أن تنهي المغامرة بكل ما فيها من إخفاقات و من نجاحات و تنزع القناع عن وجهها بصفة نهائيّة، دخلت غرفتها و ظلت هذه الهواجس تتدفق إلى ذهنها و تطرق رأسها طرقا كالحجارة، إلى أن حلّ الظلام فجمعت كلّ ما تحتاجه و تسلّلت خارج القصر خفية عن أعين الجواسيس الأجانب الذين كانوا يراقبونها و يتابعون كلّ تحركاتها، و طبعا عرفت كيف تشقّ المدينة دون أن يتفطن لها أحد و وصلت لبيت التلميذ الذي سكنت عند أهله لمّا غادرت

القصر في السابق، استقبلوها بحرارة و لم يتجرؤوا على سؤالها عن سبب وجودها، لكنها لمّا انفردت بتلميذها حدّثته عن كلّ شيء.

عاشت حسناء في بيت تلميذها و صديقها الجديد، و كالعادة تأقلمت مع حياتها الجديدة و كانت إقامتها معهم فرصة لتستعيد أنفاسها و ترتاح و قد كانت محلّ ترحاب و حفاوة من والدة التلميذ و كذلك والده الذين ساعداها على التخفي عن أنظار الناس، أما صديقها و تلميذها فقد كان مشغولا بعمله في علاج الناس في الحيّ و تدريس الأطفال، و هذا ما جعلها تشعر بالسعادة و الفخر بما أنجزته لفائدة الناس، كما لاحظت أن وضع أسرة التلميذ قد تطور كثيرا عمّا تركتهم عليه سابقا حيث حسّنوا سكنهم و تحسّن طعامهم. بعد مدّة من الراحة رجعت تفكّر في مصيرها و فيما يمكنها أن تفعله حيث ارتأت أنه لا بدّ أن تواصل مغامرتها من أجل السلطان الذي يحتاجها، كذلك شعرت بالمسؤولية تجاه ما قد يحدث لبلدها و ما قد يخطط له الأجانب، ففكّرت أولا أن تستقصي أخبار القصر، فكلّفت تلميذها بهذه المهمة. وافق التلميذ على طلبها، و صار يحدّثها كل يوم عن أخبار البلاد و أخبار الحيّ، و هكذا بقيت تتابع ما يحدث في البلاد و رغم أنّ الأخبار التي كانت تأتيها شحيحة فإنها شعرت أنّ بعض الأمور بدأت تتغير، خاصة بعد تكاثر بعض جرائم القتل الغريبة و التي عادة ما تكون لأسباب تافهة، كذلك عودة قطاع الطرق و المنحرفين لبعض الأحياء و الطرقات، و هذا ما جعلها دائما تشكّ في أنّ ما يحدث ليس صدفة إنما هو تدبير من قائد محاربي "الوسا" الجديد. ذات صباح أفاقت حسناء كعادتها و راحت تساعد والدة التلميذ في تحضير بعض البهارات و الأغذية و حفظها في بيت التموين، حتى فوجئت

بعودة تلميذها من عمله مبكرا على غير عادته، و ما إن وصل حتى طلب من والدته أن تخرج لتجلب له طعاما ففهمت حسناء أنّ عنده أخبار هامة، و ربما خطيرة فانتابها بعض الخوف، ثم تمالكت نفسها و تركت ما في يدها و رحبت به، لكنه بدأ مباشرة في الكلام و قال:

– سيدتي، الصديق جهاد يبلغك سلامه و يقول لك بأنه بخير هو و والدته، لكن الأجواء في القصر لم تعد على ما يرام، فقائد محاربي "الوسا" و معاونيه و حراسه يتدخلون في كل شيء، حيث تولى أحد معاونيه تدريس التلاميذ و كان أسلوبه خاطئا، و قد استعان عليهم بالحراس الذين يجلدونهم و يهينونهم، و مساعده الآخر تدخل في علاج الناس حيث يطرد أغلبهم و يعبث بالأدوية، أما مولانا السلطان فهو منهمك في التحضير لزفافه، سيدتي هناك خبر آخر مؤلم و مفزع ،و فكّرت كثيرا و تردّدت قبل أن أسوقه لك، و الخبر هو حول عصابات القتل التي بدأت تنتشر في مدينتنا و ربما في مدن أخرى، يقولون أنهم ليسوا كقطاع الطرق العاديين الذين يقومون بجرائم من أجل السطو و السرقة، إنما هم يقتلون من أجل لا شيء، من أجل أسباب تافهة حيث قتلوا رجلا عجوزا في أحد الأحياء لمجرّد أنه كان يجمع حوله الأطفال كلّ يوم ليتحلّقوا حوله و يقوم أمامهم بحركات مسلية و مضحكة، اذ اختطفوه من وسط الأطفال و قطعوا رأسه أمامهم فأصيب أغلبهم بالبكم و الجنون. سيّدتي سألت أحد المرضى فقال لي أنّ هذه العصابة تتمدّد كالوباء في أغلب المدن و حتى القرى، هم يريدون تغيير طريقة عيش الناس و يراقبون تصرفاتهم، و من لا تعجبهم تصرفاته يقتل أو يشنق، و ربما يمرّون في المراحل القادمة إلى استهداف حرس السلطان المنتشرين

في الطرقات و المدن، حيث تروج أخبار أنّ عصابة في احدى المدن قد حرقوا حارسا من حرس السلطان ذات صباحا لما كان يحرس مدخل المدينة. و هذا ما جعلني أرجع باكرا هذا الصباح. سيدتي أنا في خدمتك و تحت أمرك.

صمتت حسناء و تملّكها الرعب و تساءلت في سرّها ما الذي ظهر؟ من أين ظهر كلّ هذا فجأة؟ من شحن الناس بكلّ هذا العنف؟ بقيت هذه الأسئلة تساورها و تثير في نفسها الشكوك، بل أحيانا تفكّر أنّ كلّ شيء من تدبير الأجانب لأنّ هذه الظواهر الجديدة ارتبطت بقدومهم للبلد، و ما زاد في يقينها هو المحاولات اليائسة التي كان يقوم بها قائد محاربي "الوسا" السابق لعرقلة المشاريع و تعطيل الدروس في القصر، لكن هذه المرة لا أحد يمكنه أن يثبت شيئا ضدهم لأنهم يقومون بأشياء يصعب إثباتها لأنّ ما يحدث الآن من فوضى سيجعل الكلّ يتّهم الكلّ في المستقبل، و ستقلّ ثقة الناس في بعضهم البعض، ظلت حسناء غارقة في التفكير إلى أن سألها التلميذ فيما تفكّر. لم تجد كلاما تجيب به تلميذها الحائر، لأنها حائرة أكثر منه و تشعر بالحزن و الإحباط، فطلبت منه أن يرجع إلى جهاد و يوصيه بأن يكون منتبها و يساعد السلطان في هذه الفترة العصيبة و يشدد الحراسة على البحيرات.

غادر التلميذ الغرفة و ظلّت وحدها تفكر و بدأ الحزن يتسرب إلى قلبها و شعرت بالخوف و العجز، و شعرت بأنفاسها تضيق و بنبضات قلبها تتسارع، فبدأت تتحرك في كل الاتجاهات في تلك الغرفة الضيقة، ثم فتحت النافذة الصغيرة كي تخفف عن نفسها وطأة الحزن، فوجدت النافذة مطلة على أفق داكن و شمس تخترق أشعتها الخارقة الغيوم بصعوبة و دخل من النافذة ريح بارد حاملا معه غبارا كريها يغشى العيون،

حاولت أن تقترب من النافذة كي تتثبت من الأصوات الغريبة التي تسمعها أحيانا مع صرير الرياح، فسمعت أصوات عويل بعيدة، حاولت أن تركز سمعها لكن الأصوات كانت بعيدة و متفرقة، فتجاهلت الأمر و نامت إلى أن حلّ الظلام لتستفيق على صوت تلميذها الذي جلب لها الطعام، ثمّ قال:

– تفضلي سيّدتي، أراك مشغولة و تفكرين، لا تحمّلي نفسك أكثر من طاقتها فالبلد لها سلطان و قادة و حكّام سيهتمّون بمشاكلها، اهتمي أنت بنفسك فقط و بصحتك، لا أحد فينا قادر على تغيير العالم وحده.

أجابته حسناء بشيء من الارتياح و قالت:

– أجل، هو كذلك، لكني أريد أن أفعل ما بوسعي لمنع حدوث كوارث أكبر بهذا البلد، الذي خرج منذ سنوات قليلة من نفق الظلم و الاستبداد و قد بدأ الناس يأخذون زمام المبادرة و أصبح لهم أصوات لدى السلطان، و ربما في السنوات القادمة يكون أصحاب القرار من عامة الناس، لكن هذا لن يحدث إن دخل الشكّ في أنفس الجميع، و انعدمت الثقة بين الحاكم و المحكوم. صديقي، منذ أن أخبرتني بما يحدث و أنا أفكّر في حلّ للمحافظة على الثقة بين الناس، و الحلّ بسيط لكنه يتطلب منّا جهودا كبيرة حيث يتمثل في منع خطابات التحريض و التخوين و الكراهية بين الناس، و بالتالي يمكننا المحافظة على الثقة و الهدوء مهما كانت الأحداث دامية.

أجابها التلميذ :

– سيّدتي كلامك دائما صعب و غير مفهوم، لكن كلّه حكمة و أنا سأنذر عمري لخدمة أبناء بلدي و منع الفتنة و الكراهية حتى يعيش الناس في سلام و محبة.

شكرت حسناء التلميذ على شجاعته و شهامته، و قبل توديعه سألته عن مصدر أصوات العويل و الصياح التي سمعتها في النهار قبل أن تنام، فقال لها بأنها أصوات الناس الغاضبين الذين احتجوا على حرس السلطان و طالبوهم بالقبض على المنحرفين و قطاع الطرق، و بسبب أجواء الاحتجاج صارت مواجهات دامية بين المحتجين و حرس السلطان. حاولت حسناء أن تأكل بعد مغادرة التلميذ لكن رغم شدة جوعها لم تأكل بالقدر الكافي فهي بالكاد تتنفس، فكلّ الأفكار السيّئة تنهش رأسها، حيث باتت متأكدة أن الأجانب الذين تم إرسالهم من بلاد "الوسا" تم اختيارهم بعناية من بين المهاجرين الأكثر قابلية لبيع ذممهم و الأكثر خبثا و دهاء و قد يكونوا قد خططوا لما يحدث منذ مدة، أشعلت ضوءا خافتا و أغلقت الباب والنافذة و جلست فوق سريرها واضعة رأسها فوق ركبتيها و كأنها سجينة، ثم نزعت القناع و وضعته تحت الوسادة و أخذت تتلمس كل معالم وجهها فوجدته شاحبا جافا فيه بعض الحبوب، صعّدت أصابعها نحو جبينها بارتباك و ريبة و خوف، خوف من أن تتعثر أصابعها في بعض التجاعيد، لكنها وجدت جبينها أملسا و مرّت أصابعها في سلام لتصطدم برموش عينها فانهمرت منها الدموع غزيرة و كأنّ أصابعها قد لمست بابا كانت تتراكم خلفه الدموع، فحاولت يائسة أن تصلح خطأ أصابعها و تغلق باب رموشها، فدخلت في نوبة بكاء و نحيب و راحت تطلق زفرات يتردد صداها بين جدران تلك الغرفة الضيقة و المظلمة، مرّت عليها ليلة حزينة، مؤلمة، و مخيفة حيث انتابتها نفس المشاعر و

المخاوف التي عاشتها ليلة هروبها من القصر لمّا انتحر والدها و أمها و إخوتها، مرّت عليها ليلة لم تتذوق فيها طعم النوم حيث ظلت جالسة و متكورة فوق سريرها إلى أن أطلّت خيوط النهار الأولى من بين شقوق الأبواب و النوافذ و الجدران، فغسلت وجهها بالماء ثم تناولت بعض الأدوية لتطفئ بها الحبوب النابتة على خدودها، ثمّ لبست قناعها، و فتحت النافذة و أطلت خلسة على الأفق فوجدته مغبرّا ملبّدا لا يختلف عن الصباحات السابقة، و مع ذلك حاولت أن تكون متفائلة فهي تعول كثيرا على تلاميذها و على جهاد كي يقنعوا السلطان بالتدخل و منع الفتنة و الكراهية بين الناس، و بينما كانت ترتب الغرفة سمعت والدة التلميذ لدى الباب فأذنت لها بالدخول، و ما إن دخلت عليها حتّى انبرت المرأة في عتابها باستحباب على الطعام الذي تركته في الليل، فتناولت الطبق و بسرعة خرجت و جلبت لها طبقا جديدا، فشكرتها حسناء كثيرا و راحت تثرثر معها في أحاديث نسائية فشعرت بالارتياح و الاطمئنان بفضل والدة التلميذ التي كانت امرأة مرحة و نشطة، و بعد مغادرة المرأة تناولت حسناء الطعام ثم نامت.

بعد يوم هادئ تنفست فيه حسناء جيدا و استعادت عافيتها بعد أن كاد الحزن أن يقتلها، و حاولت أن تعيش يومها على أمل أن يأتيها تلميذها بأخبار مطمئنة عن القصر و عن البلاد، و بعدما أفاقت من نومها راحت تساعد والدة التلميذ في قضاء شؤونها حتى لا يستبدّ بها القلق، حيث لم يعد تلميذها إلا عندما جنّ الظلام و بدت على ملامحه علامات الحزن فلم تترك له المجال ليسترد أنفاسه و طلبت منه أن يبدأ مباشرة في سرد الأخبار، فقال:

– سيدتي، لقد قابلت الصديق جهاد و تحدثت إليه، هو بخير لكنه قلق، أمّا التلاميذ فقد تحدثت إلى بعضهم بصعوبة لأنهم كانوا مراقبين من قبل الأجانب، الأجواء في القصر كانت عادية فقط هناك تحضيرات و زينة و مولانا السلطان كان يستقبل بعض الخياطين الأجانب.

أمسكت حسناء التلميذ بتهوّر و صاحت في وجهه دون أن تشعر بحالة الغضب التي انتابتها فجأة ثم أمرت التلميذ بأن يتحدث فيما هو أهم، فتلعثم التلميذ و ارتبك ثم تنفس و ابتلع ريقه و قال:

– المدينة في حالت شغب و فوضى و سمعت أن في أحد الأحياء حدثت مواجهات و قتال بين أناس يقال أنهم من مناصري السلطان الحالي و آخرون يحبون السلطان السابق و يحنّون إليه، و ربما حدث بينهم قتال عنيف و سقطت الأرواح، و تم حرق المتاجر و العربات و المؤن، كما حدثني أحد الحراس عن مدينة الميناء قد أخرج منها حرس السلطان حيث تم تحريض الناس ضدهم و اتهموهم بالجبن، و بقي فقط يحميها الأجانب محاربو "الوسا" و هذا رغم أن المدينة لم تعش أي أحداث شغب عدى بعض الشباب الذين أمسكوهم قبل أن يبحروا للهجرة إلى بلدان أخرى، كما سمعت أيضا أن قائد محاربي "الوسا" الجديد قد عيّن حاكما جديدا على مدينة الميناء، و هو يدعى فراس، و كلّ الأقاويل و حتى الإشاعات تؤكد أنه نفسه فراس عشيق ابنة السلطان السابق الأميرة حسناء، و ما يؤكد هذه الأقاويل هو أنه نزل مباشرة في مدينة الميناء و لم يأت إلى القصر مع القائد الجديد...

واصل التلميذ حديثه و هو يفسر لحسناء ما حدث معه طوال اليوم و يشرح لها الصعوبات التي واجهها و بحكم خجله منها لم يتجرّأ على النظر إليها، و بعدما أكمل جلّ كلامه التفت إليها ليجدها مغشيّا عليها فوق الكرسيّ ففحصها ثم وضعها فوق الفراش و راح يعالجها كما علّمته، و بقي يراقب حالتها ليلة كاملة لتستفيق في صباح اليوم الموالي فوجدته بجانبها و معه والديه، شكرتهم كثيرا و طلبت منهم أن يتركوها ترتاح قليلا و أمرت تلميذها أن يرجع إليها قبل المساء، ثمّ بدأت تحاول ترويض ذاكرتها المشوشة و تصفية ذهنها المضطرب، لكن دون جدوى حيث تطلّب ذلك وقتا طويلا و بعض العقاقير و الأدوية، لتستعيد عافيتها و تستحضر آخر كلام قاله تلميذها عدة مرّات حرفا حرفا بأدق تفاصيله و توقفاته و تنهداته و حتى نبرته المرتعشة و الحزينة، كلمة واحدة كانت كلّما مرت بذاكرتها تكون حادة و قوية و ذات صدى رهيبا و كأنه يقولها مارد عملاق من وسط هوّة سحيقة، تمالكت نفسها و حاولت أن لا تصدق، ففراس حبيبها الرقيق الطيب الحنون ليس من الذين يبيعون ذممهم، هي تعرف جيدا أن فراس لا يريد أن يحكم الناس و لا يريد أن يقودهم هو دائما يريد نفسه في آخر الصفّ حرا طليقا،ازداد اضطرابها مع نوبة الشكّ ففكرت في البحث عن طريقة لمعرفة الحقيقة و قطع الشك باليقين، بقيت مضطربة و مشوشة إلى أن رجع لها التلميذ يبتسم و كأنه قد أتى بخبر مفرح في حين أنه جاءها ليؤكد لها الخبر، و هو لم يكن يدرك أن ما سيقوله سيكون سببا في صدمة ثانية، فجلس على الكرسي في حين كانت هي واقفة قرب النافذة و قال لها:

– سيدتي، إنه فراس، فعلا هو عشيق ابنة السلطان السابق لقد أكد لي والدي الخبر حيث سمعه من التاجر الذي يعمل عنده، حيث قال ذلك التاجر بأن بلاد "الوسا" أرسلته لتحضّره حتى يكون سلطانا على البلاد.

لم يكد التلميذ يكمل كلامه حتى تهاوت حسناء كالشجرة على الأرض بعدما أصابها دوار، هرع إليها و عالجها و أضجعها على السرير، فأفاقت بعد وقت وجيز فرفعت جسدها و أنزلت قدميها على حافة السرير و ظلت صامتة و أشارت بيدها إلى الدواء، فناولها إياه بعدما كررت إشارتها ملحّة على تناول الدواء رغم تحذيره لها من أن الكمية كبيرة و قد تضرها، نظرت حولها ثم أشارت له بالوقوف و قالت له بصوت مختنق:

– أيها التلميذ، سأطلب منك طلبا و لا تسألني أي سؤال، فقط يجب أن يكون هذا سرّ بيننا أريد أن تأت لي بمن يوصلني إلى مدينة الميناء و تحديدا إلى قصر الحاكم هناك.

أومأ التلميذ برأسه و انصرف دون أن ينبس ببنت شفة و بقيت هي جالسة فوق السرير دون حركة و راحت تفكر في الخبر الذي سمعته، و تنتظر عودة تلميذها بفارغ الصبر، و قد شعرت بأن رأسها بدا يفور كالقدر، فهي لا تدري هل تفرح، أو تغضب؟ لقد نزل عليها الخبر كنوبة برد فأفقدها شهية الكلام و سدّ أنفاسها، فراس هو الذي فعلت ما فعلت بنفسها و بوجهها فقط من أجله، فراس نذرت عمرها لانتظار رؤية وجهه الجميل، فراس هو الذي سهرت الليالي الطوال بين التلال و السهول منتظرة قدومه على فرس بيضاء، فراس هو الذي غامرت بالعيش من أجله بعدما لاذت أسرتها بالانتحار، لقد شعرت بفرحة غامرة بسبب قدومه و اقتراب المسافة بينها و بينه، ارتبكت و بدأ الشوق

يتسرب إلى قلبها و بدأت الفرحة تنساب في عروقها و بدأت تنسى أيّام الحزن التي عاشتها، و بدأت تنسى التفكير في مشاكل البلاد، و بدأ غضبها على فراس ينطفئ تدريجيا و مسحت عن ذهنها و ذاكرتها كلّ أفكارها عن الحكم و السلطة و عن سبب وجود فراس كممثل لبلاد "الوسا" و نسيت الأجانب و ما يخططون له، صارت تمنّي نفسها بلقاء جميل مع إنسان أحبته كثيرا بكل جوارحها و أحبها هو أيضا، مع إنسان تقاسمت معه لحظات جميلة كادت تيأس من تكرارها، صارت تمنّي النفس بعناق طويل مع فراس يكون مفعما بالحزن و الفرح و البكاء و الضحك و العتاب و اللوم و كلّ المشاعر المتناقضة إلا مشاعر الحقد و الكراهية، في لحظة تذكرت كلّ سيء في فراس، شعره الناعم عينيه البريئتين، جسده النحيف، طلته البهية، تذكرت كلماته الرقيقة المفعمة بالحب و بكل المشاعر الجميلة، تذكّرت كل الأماكن التي جلسا فيها معا، تذكرت كلّ الدروب التي مشيا فيها معا، لقد فتحت كلّ أركان ذاكرتها باحثة عن شيء له علاقة بفراس، لم يهدأ بالها و هي تجوب تلك الغرفة الصغيرة الداكنة مشيا أحيانا و قفزا أحيانا أخرى، إلى أن خارت قواها فألقت بجسدها المنهك بكل راحة فوق السرير و شبّكت يديها خلف رأسها و ظلت تنظر للسقف المعتم ثم تنهدت تنهيدة عميقة و نادت فراس بصوت خافت لكنه مشحون بأنفاسها فشعرت كأنّ صوتها قد وصل إلى أعلى قمة في البلاد، ثم استرخت قليلا محاولة التخفيف من وطأة المشاعر و الذكريات، لكنها سمعت أصواتا تتعالى من المدينة فأطلّت برأسها من النافذة لترى في الطريق المؤدي إلى وسط الحيّ أناسا غاضبين يهتفون بموت السلطان و كانوا كالمجانين يحرقون و يكسّرون كلّ شيء أمامهم، أصابها الخوف و تذكرت ما كان

يشغلها عن مؤامرة قائد محاربي "الوسا" على البلاد، و تذكرت غضبها على فراس لأنه معهم، فجالت في خاطرها أفكار سلبية عن حبيبها فكاد الدوار يعاودها مرة أخرى فهرعت إلى فراشها لتلقي جسدها هناك و تحاول إفراغ ذهنها من كلّ الأفكار و إطلاق العنان فقط لقلبها و لمشاعرها، فهي تحمل عن فراس في ذاكرتها صورة شاب لطيف مرهف الأحاسيس جميل الوجه، لتشعر مرّة أخرى بالحنين إليه و ظلت فقط تفكر في تلميذها الذي تأخر في العودة من المدينة، ظل التوتر و الارتباك يلازمها و مرّ عليها المساء طويلا و مرهقا، أطلت مرة أخرى من النافذة لتسمع أصوات العويل مرّة أخرى نظرت للشمس فوجدتها بالكاد تميل إلى الغروب، فرجعت يائسة إلى وسط الغرفة و القلق يكاد يقتلها و ما ان لمحت طبق الطعام حتى انهمكت في التهامه فقط لقتل الوقت، ثم جلست على الكرسي إلى أن أسدل الليل ستائره و ساد الصمت و بعد طول انتظار سمعت تلميذها يتحدّث مع والديه فتنفست الصعداء و انزاح عنها القلق و بسرعة بدأت تجهز نفسها و تجهز كلّ ما تحتاجه للسفر إلى حبيبها فراس و في لحظات جمعت كلّ أغراضها بنشاط و حيوية بعدما أصابها الملل و الخمول طوال اليوم، لم يطل التلميذ المكوث مع والديه و طرق بابها فأذنت له بالدخول، و ما ان دخل حتى بحث عن كرسي و جلس و بقي للحظات يلهث و ينفس بصعوبة و دون أن ينظر إليها قال:

– سيدتي، بالكاد وصلت هنا، الأجواء خارجا متوترة جدا و هناك عنف و شغب، لقد سمعت أن مولانا السلطان خرج اليوم ليلقي خطابا لكنه تعرض لهجوم من الناس الغاضبين و تم رشق موكبه بالحجارة فرجع للقصر دون أن يقول أي كلمة، سيدتي

الوضع صعب خارجا، أتمنى لك النجاح في مهمتك، لقد جلبت لك شخصا سيوصلك بعربته إلى حيث تريدين، هو في الحقيقة كان سابقا من قطاع الطرق، لكنه في السنوات الأخيرة صار يشتغل بالتجارة هو يعرف كلّ المسالك و يمكنه تجاوز كل العقبات هو فقط دائما يأخذ أجره ذهبا قبل البداية في مهمّته و هذا ما كنت متوجسا منه لأن والدتي لا تملك ما يكفي لدفع أجرته.

ابتسمت حسناء و طمأنته و قالت له بأنها تملك ما يكفي من الذهب و سلمته ما يحتاجه و أهدته هو أيضا بعض قطع الذهب ليحتفظ بها نظرا لصعوبة الظروف، و شكرته كثيرا ثم سلمت عليه و خرجت لتجد التاجر قد حضر لها عربة ، في البداية انتابه الفزع بسبب منظرها و القناع الذي تلبسه ثم تجاهل الأمر و أمسك يدها و ساعدها على الصعود إلى العربة التي كانت محملة ببعض المؤن و البقول، و أخفاها جيدا و لم يترك لها إلاّ فتحة صغيرة تتنفس منها، و دون أن يتكلم انطلق بعربته و شقّ المدينة بسرعة، حاولت حسناء معرفة ما يحدث خارجا لكن سرعة العربة و قلة الأضواء في المدينة لم تستطع أن ترى شيئا، فوضعت رأسها بين يديها و رجعت للتفكير في فراس فقط في حبيبها الذي اشتاقت له كثيرا و تمنت لو أن العربة تحولت إلى طائر أسطوري و اختصرت كلّ المسافات و أوصلتها في طرفة عين بجانب حبيبها، و بقيت تسأل نفسها، هل أنه يفكر فيها هو أيضا و اشتاق إليها، و كيف سيكون اللقاء بينهما و ماذا سيقول، و هل سيقفز فرحا عند رؤيتها؟ بينما كانت غارقة في أمنياتها و تساؤلاتها بدأت العربة تهتز فعرفت أنهم غادروا المدينة و دخلوا في مسالك جبلية ألقت نظرة خارجا فلم تر شيئا حيث لا وجود لأي نور في تلك الليلة المظلمة، كان التاجر الذي

ينقلها يشق البلاد في ذلك الليل البهيم و كأنه خفاش يبحث عن فريسة، حيث لا يتكلم أبدا و كأنه من حجر، فقط في بعض المفترقات تنفتح شهيته للكلام و المزاح الماجن عندما يجد بعض حرس السلطان، ثم يمر بسهولة دون أن يفتشوا عربته، و حتى بعض قطاع الطرق يهابونه فيسمحون له بالمرور دون إزعاج، لم تشعر حسناء بالطريق رغم وضعها الغير مريح في العربة و رغم السير الجنوني للعربة و بعد مرور شطر الليل في السير بين الأودية و المنحدرات دخلوا المدينة في آخر الليل و رغم أن الظلام كان حالكا، بدت مدينة الميناء مضاءة و كأنه قد تم زرع النجوم على أراضيها، و لما دخلوا المدينة التي كانت محروسة و هادئة اتبع التاجر بعض المسالك الجانبية و في وقت وجيز وجدته يمدّ يده إليها و يسحبها من يدها و ينزلها برفق ثم أشار بيده إلى القصر و ذهب في حال سبيله.

هبت نسائم الصباح على حسناء بعد سفرة شاقة، نظرت حولها فلم تلاحظ أي حركة في المكان حيث يبدوا أن التاجر قد أنزلها من الجهة الخلفية للقصر حيث لا يوجد حراس باستمرار، نظرت إلى القصر الذي تذكرته جيدا حيث كانت تزوره في الصيف مع والدها السلطان و أسرتها في مواسم الصيف للترفيه و الاستمتاع بالبحر، و كان والدها يلتقي فيه بأهم التجار في البلاد، نزعت القناع عن وجهها و خبأته في صرّتها التي تحملها، ثم عالجت وجهها ببعض الأدوية و مشت قليلا و نظرها معلقا بالشرفة المطلة على الطريق فرأت نوافذها مفتوحة فتخيلت حبيبها فراس جالس وهي معه في تلك الشرفة في الصباح مع شروق الشمس، و بينما كانت تفكر في فراس و الفرحة

تملأ قلبها و كلّها شوق لرؤيته و عناقه، باغتها حارس ضخم يبدوا أنه أجنبي، و بدأ ينهرها و يدفعها بعيدا ثم أشفق عليها و قال:

– أيتها المتسولة، ماذا تفعلين هنا؟ لم يبق لدينا طعام، هيا ابتعدي، هذا قصر حاكم المدينة، لا يمكنك المكوث هنا لوقت طويل، هيا انصرفي.

ابتعدت قليلا ثم بدأت تتوسل إليه و تطلب منه أن يوصلها إلى حاكم المدينة لمقابلته، و بعد إلحاحها و توسلاتها رقّ قلب ذلك الحارس الذي يبدوا أنه ظنّ أنها تريد أن تشتغل في قصر الحاكم، فأدخلها إلى غرفة قال لها أنها مخصصة للخادمات و أعطاها من طعامه و حذّرها من أن تذكر لأحد أنه أدخلها للقصر. دخلت حسناء غرفة الخادمات فوجدت بعضهن نائمات و أخريات يتسامرن و ما إن دخلت حتى انهمر الضحك المجنون و المزعج من أفواههن، بهتت و أصابها بعض الإحباط و الخوف حاولت إحداهن أن تفتكّ منها صرّتها فأبدت مقاومة شرسة و صرعتها أرضا بطريقة عنيفة أخافت الأخريات. اتخذت ركنا في تلك الغرفة و جلست فحاولت إحدى الخادمات التقرب منها و جلبت لها غطاء و بعد تجاذب أطراف الحديث معها أخبرتها أنهن لسن خادمات و إنما يتم احتجازهن ليختار منهن الحاكم فراس التي تعجبه خليلة له، صدمت حسناء من الخبر لكنها حاولت أن تخفي امتعاضها فهي لا تريد أن تحمل عن فراس أي ذرة حقد قبل مقابلته، خلدت للنوم بعدما اطمأنت للخادمة التي اقتربت منها ثم استفاقت في النهار لتجد القصر في حركة و ضوضاء لكن الغرفة التي ألقاها فيها الحارس لا يزورها أحد عدا حارس كان يراقب باب الغرفة بانتباه و حزم، اقتربت منه و حاولت أن تكلمه لكنه تجاهلها و واصل حركته بانتظام أمام باب الغرفة فانتظرت

خلو المكان من النّاس لتنقضّ عليه أمام ذهول النّساء ثم منعته من أن يستعمل سلاحه و أمرت الجميع بالصمت، و بخفة دسّت في يده قطعة ذهبية و همست في أذنه طالبة منه أن يوصل رسالة إلى الحاكم فراس، و وعدته بأن تزيده قطعة أخرى ان رجع لها برسالة منه، ارتبك الحارس و أومأ برأسه مبديا موافقته ثم عاد إلى مكانه و بعد وقت وجيز سلمته رسالة مكتوب فيها:"حبيبي فراس أنا حسناء حبيبتك هنا في قصرك اشتقت إليك و أريد رؤيتك" ، و بعد لحظات جاء خادم محمّل بالطعام ألقى ما في يده أمام الباب و تفوه بكلام مستفزّ و مهين تجاه النساء ثمّ غادر، لم تتحرك حسناء و بقيت تراقب تدافع النساء و صراعهنّ على الطعام، التفتت إحداهنّ إليها بشيء من الرفق المشوب بالخوف فحملت لها بعض الطعام، حيث كانت حسناء فأكلت الصحن الذي أمامها رغم مشاعرها المضطربة و فكرها المشوش فقد باتت تشكّ في أن فراس فعلا يريد أن يفرز فتاة ليتّخذها خليلة بهذه الطريقة البشعة، كيف لفراس أن يحتجز النساء بهذا الشكل المقرف و المهين من أجل متعة عابرة، أين ذهبت طيبته و أخلاقه أين مشاعره المرهفة، هي قد تقبل أن يقع في غرام امرأة أخرى ان كان ذلك نابعا من قلبه لكن بهذا الشكل، لا يمكنها أن تحتمل و لا يمكنها أن تصدّق، و في كلّ الأحوال النساء محتجزات في قصر تحت سلطته و هذا أمر يستحق عليه اللوم و العتاب، هي اشتاقت له كثيرا و ستعانقه و ستكلمه و ستعاتبه، على غيابه الطويل عنها، و على سهرها الليالي الطوال شوقا لرؤيته، ظلّت منزوية في ركنها و النعاس يغالبها لولا قهقهة النساء و ثرثرتهن التافهة لنامت، سمعت جلبة في الباب فرأت الحارس تمّ تغييره، ففهمت أنه يجب عليها أن تنتظر ذلك الحارس يوما آخر، مهما كانت مدة انتظارها

فلن تكون أطول مما انتظرت، اقتحم الحارس الجديد الغرفة و صاح في الفتيات و أمرهنّ بالصمت فتعالت قهقهاتهنّ للحظات ثم بدأت أصواتهنّ تنخفض تدريجيا عدى بعض الابتسامات الخجولة التي تتسرّب خلسة من أفواههن، انصرف الحارس متهاديا مختالا و الابتسامة تعلوا محياه، فاستغلت حسناء ضعف شخصيته لتطلب منه أن يسمح لها برؤية الحاكم، فأخذها بعد نوم الأخريات لترى فراس من بعيد كان محفوفا بالحراس و الخدم، و لم تكد تعرفه حيث كان يبدوا أضخم مما عهدته حاولت التثبت في ملامحه فشعرت أنها لم تتعرف عليه جيدا، و انتابها الخوف و تمسّكت بقضبان النافذة التي تطلّ منها لكن الحارس سحبها بقوة و جرّها إلى الغرفة مرة أخرى، و ظلّت تنتظر و الملل يكاد يقتلها.

بعد يوم من الترقب و القلق و الشوق و الشكّ رجع الحارس إلى مكانه و ما إن وصل أطل على حسناء و ابتسم ثم أشار إليها فخرجت وسط سخرية الأخريات و ضحكهن المستفز فقال لها:

– لقد قابلت الحاكم فراس، و كان مشغولا، هو لديه مشاغل أهم منكنّ، لقد تجرّأت على مقابلته من أجل عينيك الجميلتين، و بحكم مكانتي لديه، فهو يعتبرني من أهم حراس القصر، تسلم رسالتك و قرأها و قد تثبت فيها جيدا و كأنها فاجأته، ثم وضعها جانبا فقد كان مشغولا مع كبار التجار في البلاد و حتى التجار من بلاد "الوسا" أكيد أنت لا تعرفين هذه الإمبراطورية العظيمة، و لأنك جميلة أنا مستعدّ أن أحمل له كل يوم رسالة منك. ماذا تكتبين له أيتها المشاغبة؟

طرح عليها سؤاله الساخر ثم واصل الثرثرة و هو يداعب شعرها لكنها لم تكترث بكلامه و حركاته و لم تعد تسمع ما يقوله، و في البداية شكت في كلامه و مصداقيته، و لم ترغب في تخيّل أن فراس قرأ رسالتها و تجاهلها، و حاولت أن تبحث له عن أعذار فتبادر إلى ذهنها أنه تجاهل الرسالة ربما لشكّه في أنها مكتوبة من إحدى النساء لخداعه، و هكذا وضعت حسناء في ذهنها كلّ الاحتمالات عدى احتمال تجاهل فراس لرسالتها و لوجودها في القصر قريبة منه. انزوت في ركنها و تناولت المرآة فرأت على وجهها ملامح التعب و الحزن و قد بدت عليه آثار القناع حيث زادته شحوبا. اقتربت منها إحداهنّ و قالت لها:

– مرآتك تقول أنك امرأة ثرية، و ملابسك تقول أنك امرأة متشردة، من أنت؟ و ما هذه الأشياء التي تضعينها على وجهك؟ هل يؤلمك؟ وجهك يبدوا جميل عن قرب.

صمتت حسناء ثم شكرتها على اهتمامها و أعطتها بعض الأدوية و العقاقير و علمتها كيف تستعملها ثم عادت للنظر في المرآة و أعاد لها كلام المرأة ذكريات الصبا و المجد حيث كانت أميرة متألقة بلباسها الفاخر و تذكرت كيف كانت تسحب المرآة قبل قدوم فراس إلى البستان بلحظات و تتفقد وجهها و تعيد ترتيب الكحل على عينيها، وقتها فراس كان يأتي متلهفا لرؤيتها، كان يأتي محملا بباقات الزهور مبتسما فرحا. مرّ ذلك اليوم مرّا و صعبا على حسناء و حلّ الليل فنامت رغم ضجيج النساء حولها لتستفيق في صباح اليوم الموالي على ضجيجهن و قهقهتهنّ المعتادة مع الحارس، الذي وجدته واقفا قريبا منها و يرمق جسمها بنظرات خبيثة، فأصابه الارتباك لمّا نظرت إليه، ثمّ التفتت إلى الأخريات فتوقّفن عن الضحك، خوفا من غضبها. طلب

منها الحارس أن تجهز نفسها لمقابلة الحاكم فراس، ثم خرج مختالا فغسلت حسناء وجهها و تناولت المرآة و قامت بتجميله و تزيينه و سكبت الزيوت على شعرها فانتابت الأخريات حالة من الغيرة و الانبهار بجمالها ثم أعادت ترتيب ثيابها و رغم أن الجو كان باردا تخففت من الملابس و بقيت بثوب خفيف متناسق مع جسدها فزادها جمالا رغم أنه كان ثوبا باليا، و بعد لحظات دخلت الغرفة امرأة بدينة يبدوا من ملامحها أنها أجنبية كانت محفوفة بالحراس و الخدم، و ما إن دخلت حتى بدأت في الصياح و شتم النساء ثمّ نادت حارس الغرفة و طلبت منه أن يرتبهنّ حسب سلوكهنّ مع الحراس، فبدأ يختار على هواه الواحدة تلو الأخرى، فما كان من حسناء إلاّ أن نظرت إليه نظرة جريئة و ابتسمت له ابتسامة أسرت قلبه و أربكته فوضعها وسط الصفّ، و بعد ما تمّ تنظيمهنّ صاحت فيهنّ المرأة و ساقتهنّ في اتجاه غرفة الحاكم فراس، و بعدما انتظم الصف بدأت كلّ مرة تدخل واحدة فرحة مبتسمة و تخرج مكسورة الخاطر حزينة فيأخذها الحراس خارجا، إلى أن جاء دور حسناء حيث اصطكت أسنانها و انتابها خوف و رهبة و شعرت بالبرد يسري في كل جسمها، و لم تكن قدمها قادرة على حملها لولا تدخّل أحد الحراس ليدفعها داخل الغرفة بقوة حتى أرداها أرضا و أغلق ورائها الباب، لم تعد قادرة على الوقوف و كأن حجرا على ركبتيها، جالت بنظرها في كل أركان القاعة بحثا عن فراس فرأته محفوفا بخادمتين، حدقت فيه جيدا فرأت وجهه صار كبيرا و أوداجه منتفخة و جبهته باتت مجعدة و لامعة، و بدا جسمه عريضا، شعرت و كأنها لا تعرفه لولا عينيه الجميلتين التين تعرف عنهما أدقّ التفاصيل، لكن نظراته قد تغيرت كثيرا و أصبحت نظرة مجردة من الأحاسيس، كان يلبس ثيابا فاخرة

لكنها داكنة غابت عنها الألوان الزاهية، انتظرت منه أن يهرع لاستقبالها و مساعدتها على الوقوف، لكنه لم يبال بوجودها أصلا، و كعادتها حسناء إلى الرمق الأخير لا تريد أن تحمل ذرة حقد عن فراس، فتوهمت أنه لم يعرفها و نسي ملامحها، فزحفت فوق البساط الفاخر إلى أن وصلت إلى كرسيّه فتسلقته أمام ذهول الحراس و الخادمتين، ثم ارتمت في حضن فراس و عانقته و راحت تقبله و تداعب وجهه، حاول الحراس إزاحتها عنه لكنها دفعتهم و ظلت تقبله و أغرقته في عناق مجنون، عناق أفقده رغبته المبيّتة في تجاهلها فحاول أن يمسك يديها ثم قال:

– شكرا لك يا حسناء، أقدر شعورك، تفضلي ارتاحي، و سنحاول علاجك و تقفين على قدميك مرة أخرى.

بعدما انتهى من ترحابه الجاف بها حاول أن يفلت من عناقها لكنها تشبثت بكتفيه و نظرت في عينيه و قالت:

– عزيزي فراس اشتقت إليك كثيرا، شوقي و حنيني إليك لا يمكن أن أصفه بكلمات، كنت أراك في كل ليلة في منامي، و أراك قبل أن أنام في سقف بيتي أراك بين النجوم، لقد كان وجهك الجميل يراودني في كلّ مكان و في كل الدروب، في كل نبع جلسنا بقربه و في كلّ شجرة تسامرنا تحتها، عزيزي فراس من أجلك أنا الآن على قيد الحياة، من أجلك خذلت والدي و أسرتي، من أجلك سبحت في الأودية و عشت ليال مرعبة بين الوحوش و الضواري و في الغابات، و من أجلك عشت بين الأبقار، لقد عشت فقط على أمل لقائك كي نكون أسرة جميلة و صغيرة و سعيدة و ننجب أطفالا يزرعون الأرض و يربون المواشي و الطيور، هيّا يا عزيزي نهرب من حياة القصور و المؤامرات

و الدسائس فقد مللت هذه الحياة، هيا يا عزيزي نذهب إلى الغابة و إلى ينابيع المياه و الأعشاب و الأشجار و الأزهار و نترك هذا المجتمع المتناحر المليء بالنفاق و المتناقضات، عزيزي أحبك كثيرا بحجم الأرض و باتساع البحر و السماء، حبك هو الهواء الذي أتنفسه، هو الطعام الذي أتناوله، أمام عينيك الحالمتين لا أملك إلا أن أحبك، و لن أحبّ شيئا بعدك، عزيزي فراس لا تحرمني هذه النظرات الآسرة فيكفي العمر الذي ضاع مني و أنا أبحث عنك في كلّ الدروب، لقد كنت تائهة. عزيزي لقد تركت بي فراغا لا يتّسع لأحد غيرك.

أصيب فراس بالذهول و الصدمة من هول ما رأى و بدا متجمدا في مكانه أمّا حسناء فأجهشت بالبكاء و أعادت عناقه مرّة أخرى فتمالك نفسه و لم يقاومها، صبر عليها بعض الوقت لكنها بقيت متمسّكة به فأدرك أنه لو تركها ستبقى تعانقه لوقت طويل، فنادى أحد الحرّاس ليجتثها من حضنه كما لو أنه يجتث شجرة من التراب، ثم أشار إليه بأن يضعها في كرسي و أمر الجميع بالمغادرة، جلست حسناء على الكرسي خائرة القوى و وجهها مصفر و شاحب و الدمع لا يكفّ من عينيها، و كانت تنظر إليه بنظرات يملؤها الشوق و الحنين و حاولت أن تبتسم له لكنّ زفراتها منعتها.

غادر فراس القاعة و تعلّل بأنه سيقضي بعض الشؤون المستعجلة، و ترك حسناء مصدومة و حزينة هي لم تستوعب ما حدث و لم تصدّق أنّ فراس تجاهلها عمدا، و بعد نوبة الدموع و النحيب و الألم مسحت عينيها و شعرت بأنها استعادت وعيها فحاولت أن تخطوا بعض الخطوات فطاوعتها قدماها بصعوبة و بقيت تجوب القاعة الواسعة ببطء رغم رعشة قدميها، و بينما هي على تلك الحال دخلت عليها خادمة و

أخذتها إلى الحمّام، و في الحمّام بدأت تستفيق من صدمتها و تذكرت تصرفات فراس، و سألت نفسها إن كان لم يعد يفكرّ فيها و تجاهلها عمدا، أم أنّه صار منشغلا بالسلطة و المال و النساء، فكلّ ما سمعته عنه كان صحيحا هو الآن ممثل محاربي "الوسا" في مدينة الميناء و هو فعلا من أمر باحتجاز النساء بتلك الطريقة المهينة ليفرز منهنّ واحدة لتحقق رغباته، هو تغيّر كثيرا و أصبح جسمه منتفخا و وجهه كالصخرة الملساء بعد ليلة ماطرة، هل غيّرت الرحلة من طباع فراس؟ سألت حسناء نفسها مرّة أخرى، و لم تشأ أن تفكر في الأمور السلبيّة و انشغلت بجسمها الذي بدأ يفور في ذلك الحمّام المنعش و بدأت تنزاح عنه كلّ أغشية الغبار و التعب و العرق و العقاقير، فبات جميلا و مثيرا و متحرّرا من كلّ شيء عدا نظرات الخادمات الحسودات، تركت جسدها بعدما اطمأنت عليه و طلبت من احدى الخادمات أن تجلب لها صرّتها من الغرفة التي كانت محتجزة فيها، فلبت طلبها في وقت وجيز و سلمتها الصرة ففتحتها و أخذت بعض الأدوية و العقاقير لتزين وجهها و شعرها، و اقتربت من المرآة لتكتشف جمالها من جديد، و بقيت شاخصة أمام المرآة لوقت طويل فاقتربت منها الخادمة و طلبت منها العودة إلى الغرفة و قدمت لها حزمة من الملابس، دخلت إلى الغرفة و انتقت أجمل الثياب و تجملت و تزينت و حاولت أن تصفّي ذهنها من التفكير في شؤون الحكم و المؤامرات و قررت فقط أن تفكّر في فراس الّذي سيفاجأ بجمالها، و بقيت تنتظره إلى أن جاء في آخر النهار فاستقبلته بحفاوة و أمسكت يديه و رفعت عينيها نحوه و قالت له:

– هل صدّقت أنني اشتقت إليك؟، لقد تعبت من الكلام، لماذا لم تجبني و لم تحدثني عن مشاعرك؟

أجابها مبتسما محاولا أن يخفي بروده فقال:

– أجل عزيزتي اشتقت إليك، لقد عشنا أياما جميلة، لكن للأسف افترقنا و أنت اخترت أن تتركيني وحيدا.

قاطعته حسناء و قالت:

– أعتذر يا عزيزي عن تلك الليلة المشئومة ففي تلك الليلة كان والدي ينتظرنا كي نشرب السمّ معا في ممرّ سريّ في أسفل القصر، أنا أعرف جيّدا ما حلّ بك بعدها لقد قرأت رسالتك، و لأنك تحبني وصلت رسالتك بين يدي و قرأت كلماتك الرائعة التي لامست قلبي و جعلتني أطير في الفضاء و أسبح فوق السحاب.

رفعت نظرها نحوه كي ترى فرحته باستلامها لرسالته، لكنها صدمت بردة فعله المحبطة حيث استشاط غضبا و أجابها بنبرة حادة و امتقع وجهه العريض و قال:

– كيف وصلتك الرسالة؟ كلّ الناس يعرفون أنّك مختفية، أنا أرسلت الرسالة إلى والدي. من أوصل والدي للقصر، و كيف مات؟ و ما حكاية الجنيّة التي تعتني به و ترتب اللقاءات بينه و بين أختي؟ ثم ما حكاية هذه الجنّية أصلا؟ الكلّ منشغل بها في دولة "الوسا" خاصة كبار التجار و كبار قادة المحاربين، ما الذي حلّ بالبلد؟ هذا السلطان الغبي أغضب دولة "الوسا" كثيرا و هي الدولة التي ساعدته في الوصول إلى السلطة

بعدما انقلب على والدك السلطان السابق، و هو الآن يتصرّف من رأسه و يصنع الأدوية و يزرع الأرض و يبني البحيرات و لم يعد يشتري عدة منتجات من بلاد "الوسا".

أكمل فراس ثرثرته بانفعال و بسبب غضبه و توتره تحدّث في كل ما يشغله عدا الحب، و هذا ما أزعج حسناء و آلمها فانهمرت الدموع من مقلتيها و سالت مختلطة بالكحل على وجنتيها كالوحل فوضعت كفّيها على وجهها لإخفاء شهقاتها و دموعها فالصدمة هائلة، فهي التي جهزت نفسها و تجمّلت من أجل حبيبها الغائب منذ مدة طويلة و منذ يوم و ليلة و هي تمنّي النفس بلقاء جميل معه بعدما غامرت و تحدّت الأخطار من أجله و في الأخير يقابلها ببرود ثمّ يفتح معها مواضيع لم تكن مستعدّة للحديث و لا للتفكير فيها، إنما هي كانت جاهزة للحديث عن الحبّ عن القمر عن النجوم، عن الأزهار، عن الربيع، عن الخريف عن الأوراق المتساقطة من أغصان الأشجار، عن غروب الشمس على سطح البحر و خلف التلال، و عن لمعان الشمس على سطح مياه البحيرة، هي ليست مستعدة في هذا اللقاء بالذات للحديث عن حكم السلطان، و لا عن دولة "الوسا" الاستغلالية، أطلقت يده و ابتعدت عنه قليلا فما كان منه إلاّ أن توجّه نحو كرسيّ قرب النافذة و جلس عليه و بقي صامتا و لم يتجرّأ على النظر إليها و كأنّه خجل ممّا يفعله و ممّا يقوله، أمّا هي فحاولت أن تستعيد أنفاسها و تمحوا آثار الكحل من وجهها و كفكفت دموعها ثم نظرت إليه نظرة يملؤها التحدّي و قالت في سرّها:"هو يريد نقاشا حول السلطة و شؤون البلاد، فليكن ذلك، لنتناقش." ثم بدأت تقترب منه و قالت:

– ما يحدث الآن في البلاد هو بسبب محاربي "الوسا" الذين أتيت أنت و باقي القادة من المهاجرين على رأس جيوشهم و على متن سفينتهم المحمّلة بالأسلحة و أدوات الموت، هم منذ وطأت أقدامهم أرضنا و هم يتآمرون على بلادنا و يريدونها تابعة لدولتهم، لقد كانوا يحرضون الناس لمنع جهاد من بناء البحيرات، لقد كان أحد معسكراتهم سببا في تفشي الوباء في حيّ بأكمله، القائد السابق فشل في مهمته في إرباك البلاد و إخضاعها بحكم عدم معرفته بعدة أمور في البلاد و قلّة علاقاته، فقرروا أن يرسلوكم أنتم لتقوموا بهذه المهمة القذرة نظرا لأنّكم مهاجرين من بلادنا و من بلدان مجاورة لنا و لكم علاقات و تعرفون عاداتنا و تصرفاتنا، و ها أنكم نجحتم في بث الفتنة و تمويل عصابات القتل و تهييج الناس و تأليبهم ضد السلطان الجديد الذي بدأ يرسي أسلوبا جديدا في الحكم، أسلوب يحترم حقوق الناس و حرياتهم.

وقف فراس من كرسيّه و هو حائر و يبدوا أنه لم يستوعب كلامها جيدا فقال:

– من الذي ملأ رأسك بهذه الأفكار؟ دولة "الوسا " هي الوحيدة المؤهلة لصناعة الدواء و توزيعه في كلّ مكان في الأرض، و توفر الغذاء و جميع المواد و الأسلحة لكل البلدان، ثمّ أين ذاكرتك؟ أليس السلطان الذي تدافعين عنه هو الذي انقلب على والدك و بسببه تفرقت أسرتك و فقدت مكانتك كأميرة؟ لقد رأيت بأم عيني في تلك الليلة في وسط المدينة كيف يجرّون تمثال والدك الحجري بالحبال و حطّموه، ألا ترغبين في الانتقام منه؟

أجابته بارتياح و قالت:

– الذي منعني من الانتقام هو نجاحه في إدارة البلاد بأسلوب متحضر و الانجازات التي أنجزت في عهده و قبل أن أفكر في الانتقام عليّا أولا أن أفكر في الناس البسطاء و الفقراء الذين يحتاجون لمزيد من الاستقرار و لسلطان يخدمهم، فوالدي كان متسلطا و كان جميع الناس في خدمته.

ذهل فراس و بدأ يتنقل في أرجاء الغرفة و يصيح بعصبية و يلومها على الكلام الذي قالته عن والدها و يذكرها بأفضاله عليها و الحياة الباذخة التي كانت تعيشها في القصر و قال لها بأن الناس لا يحكمون باللين و بالعلاج، بل يحكمون بالتسلط و أن تركهم على راحتهم سيجعلهم يتحركون كالذباب في كل الاتجاهات و يصعب السيطرة عليهم. و كما ذهل هو ذهلت حسناء و شعرت بأنّ الشخص الذي أمامها ليس فراس الذي أحبته و عاشت على أمل لقائه، فقد تغيّر جسده و تغير كلامه، و تغير تفكيره و صار يتهافت على السلطة، لكنها لم تقطع منه الأمل و ظلت تحاول إقناعه بأن يطلب من قائد محاربي "الوسا" في القصر أن يتوقف عن التآمر على البلاد و حاولت أن تثنيه عن رغباته الجامحة في السلطة و تعده بحياة بسيطة هادئة في إحدى القرى الهادئة، فبدأ يهدأ و يلعب ببعض أواني الزينة المعلقة في ركن القاعة فقالت له:

– عزيزي فراس، أعشقك، لم أعد أتخيل حياتي بدونك، أنت أملي و روحي، أنت حياتي الجميلة أنت الصدق و الإخلاص، سأعطيك عمري و سأسهر الليالي من أجل سعادتك و راحتك، أنت ما بقي لي في هذه الدنيا.

ارتبك فراس و أوقع الآنية التي كانت بين يديه ثمّ اقترب منها و قال:

– حسناء، ماذا حدث معك في غيابي؟

ابتسمت حسناء و طلبت منه أن يجلس بجانبها و قصت عليه كلّ ما حدث معها بأدق تفاصيله ، و تواصل حديثها إلى طلوع الفجر فشعرت بالعطش فناولها الماء فشربت منه ثم قالت:

– عزيزي لم أذق في حياتي ماء عذبا كهذا، لقد شعرت أنّ الماء ينسكب من عروق يديك الرقيقتين و يتسرب كالدواء في عروقي، فشعرت أني شفيت من كل أسقام الأرض، عزيزي ما أجملك و أنت تسقني ماء ماذا لو تسقني كلّما عطشت من يديك، سوف لن أشرب إلاّ من يديك مهما أرهقني الظمأ، هل ستسمعني أنت كلّ ليلة أحكي لك حكايتي و هكذا ننتظر معا شروق الشمس على التلال الخضراء.

بدا على فراس التأثر من كلامها كما بدا عليه التعب من السهرة الطويلة، و رجع للومها على ما قامت به من أجل السلطان الذي انقلب على والدها، فقامت حسناء من مكانها و نفضت ثوبها و قالت له:

– أيها الرجل، انا أحدثك عن المشاعر و أنت ترجع للحديث عن السلطة، كم من مرّة قلت لك أحبك هذه الليلة، هل أكتبها على الجدران و الأواني كي تفهمني.

رفع فراس كتفيه غير مبال بما قالته و غادر القاعة فألقت جسدها على الفراش و نامت إلى مساء اليوم الموالي، و لمّا أفاقت شعرت بألم كبير في رأسها فتناولت بعض الدواء و نظرت حولها فوجدت طعاما بجانبها التهمته، و بعد لحظات اقتحم فراس الغرفة و قال لها:

– أظنّ أنك استعدت عافيتك اليوم، فرجاء لا تحدثيني بكلام صعب لا أفهمه فقد مللت حديثك عن القيم و المثاليات و لا تحدثيني على الحياة البائسة مع الأبقار ، فأنا أريد أن أصل للسلطة و عليك مساعدتي، فالسلطان الآن يجهز نفسه للزواج من أختي، أريدك أن تعودي للقصر و تلبسي قناعك مرّة أخرى و بعد أن يتم هذا الزواج بصفة رسمية تقنعي السلطان بالخروج للشارع لمقابلة الناس و إلقاء خطاب و نحن سنتكفل بالباقي.

فهمت حسناء كلّ ما يريده فراس، و في البداية رفضت الانصياع لأوامره فهدّدها بأن الناس سيعرفونها و سيكتشفون ما قامت به، كما لمّح إلى تهديد صديقها جهاد و والدته.

مرّت على حسناء أياما صعبة و مؤلمة في قصر فراس، و حبست نفسها في الغرفة لعدة أيام، ثمّ بدأت تنزل إلى الحديقة لتتأمل البحر و تقلب الأمواج، فارتاحت و تحسن مزاجها، و بدأت تخرج إلى المدينة كلّ يوم و تتجول في أسواقها، و ما جلب انتباهها أن المدينة كانت هادئة و أسواقها نشيطة على عكس الفوضى و التخريب الذي يسود باقي المدن و المناطق، تجوّلت في الميناء فوجدته يعجّ بالأجانب و لاحظت أن اغلب السفن التي يتمّ شحنها و تفريغها هي من بلاد "الوسا" ففهمت سبب طرد حرس السلطان من مدينة الميناء و تسليم الحكم لفراس الموالي لهم، و عند خروجها من الميناء وجدت خارج أسواره أحد المزارعين الذي كدس بقوله على قارعة الطريق و ظلّ يبكي و ينتحب، سألته عن السبب فقال لها بأنّ السفن التي كانت تأخذ بضاعته تم منعها من دخول الميناء، أهدته قطعة من الذهب و طلبت منه أن يأخذ

بضاعته و يوزعها على المحتاجين، أو يبيعها للناس بسعر يسير. رغم ارتياحها في جولاتها اليومية في أسواق مدينة الميناء اكتشفت من خلال أحاديث الناس أن محاربي "الوسا" قد قاموا بخطة محكمة للتآمر على البلاد و تعطيل إصلاحها و منع الناس فيها من التعويل على أنفسهم ،حيث شاعت عدّة أخبار في المدينة تشيد بفراس و قدراته العجيبة كما سمعت بعضهم يقول أن محاربي "الوسا" يتعرضون لهجمات من عصابات القتل و يتصدّون لها ببسالة و شجاعة، كذلك كانت أغلب حوارات الناس حول عصابات القتل و الجرائم البشعة التي يرتكبونها.

رجعت حسناء ذات مساء من جولتها اليومية بالمدينة فوجدت فراس في انتظارها و معه امرأة أجنبية حيث قال لها بأنها ستكون خادمتها، لكن حسناء لم تصدقه فهي متأكدة أنها جاسوسة، نظرت في عيني فراس لتبحث عن بقايا براءة و طيبة من الأيام الخوالي لكن دون جدوى حيث لمحت فيهما الجشع و الدهاء، فطلب منها أن تلبس قناعها وثيابها البالية و تحمل صرّتها و تركب العربة التي ستقلّها إلى القصر، نفذت حسناء أوامره دون أدنى تردّد فهي الآن ليس أمامها أي اختيار غير الهروب إلى الأمام، و علّقت أملها على أن يغير فراس سلوكه عندما يحقق مآربه و يتحمّل وزر السلطة. شقت العربة المدينة دون أن يوقفها أحد، ثمّ سارت في الطريق العادي دون البحث عن مسالك بعيدة، و رغم ذلك لم تتعرض إلى أي هجوم لا من قطاع الطرق و لا من حرس السلطان، ظلت في بداية السفرة تراقب الأجواء خارجا دون أن تتحدّث إلى الخادمة، ثم استسلمت للنوم لتستفيق عند طلوع الشمس و قد وصلت العربة إلى المدينة فأطلت خارجا لترى المدينة مخربة بالكامل و آثار الحرق و الفوضى في كلّ

مكان و رغم ذلك شقت العربة المدينة دون أي إزعاج، و اقتحمت القصر، و كأن الحراس ينتظرونها، نزلت حسناء من العربة و اتجهت نحو الغرفة لتجد الخادمة تلازمها كظلّها، مدّت يدها لتفتح الغرفة فوجدتها مفتوحة و ما إن دخلت حتى رأت قائد محاربي "الوسا" واقفا قرب النافذة، و التفت إليها و قهقه ثم نظر لها نظرة خبيثة و ساخرة و قال:

– و أخيرا عدت أيتها الساحرة المقنّعة، اشتقنا لك كثيرا...

حاولت أن تتمالك نفسها و تجاهلته و راحت ترتب غرفتها ثم طلبت منه أن يأخذ معه الخادمة فرفض و قال:

– أيتها المشعوذة، وجود هذه الخادمة معك هو شرط من شروط الاتفاق الحاصل بينك و بين الحاكم فراس، فلا تزعجيها، و حتى ان غادرت الغرفة بإرادتها خوفا من شعوذتك سأحملك المسؤولية، أعرف أنّك هربت من القصر عند قدومنا خوفا من أن نكتشف ألاعيبك و حيلك.

أكمل كلامه و خرج ثم أوصد الباب بعنف إلى أن ارتجّت الغرفة، فشعرت حسناء بالحزن و الغيظ و الإحباط من الوضع الذي وصلت إليه، و ظلّت تبكي و تنتحب بحرقة على حبيبها و على بلادها و على أهل بلادها، و بقيت تفكّر في حلّ لتخرج هي من الورطة التي وقعت فيها، و تخرج البلاد من ورطة العنف فالبلاد باتت تحترق، لكنّ يبدوا أنه لا حلّ أمامها سوى الانصياع لأوامر فراس و انتظار ما سيحدث فيما بعد، و هذا ما زاد في ألمها حيث حبيبها فراس الذي عاشت على أمل عودته و ضحت

من أجله صار يبتزها بتهديد صديقها جهاد، و صار عميل لمحاربي "الوسا" بعدما أعمت رغبته في السلطة بصيرته. فهمت حسناء أنّه حتى و ان تحدّتهم و ضحت بصديقها جهاد فلن تكون قادرة لا هي و لا السلطان على إعادة الهدوء للبلاد التي بات يملؤها العنف و تعجّ بعصابات القتل الذين يقتلون الأرواح كلّ يوم و يثيرون الفتن بين الناس، حيث قالت في سرّها:"وحدهم محاربي "الوسا" و معاونيهم و عملائهم قادرين على إعادة الهدوء للبلاد، لأنّ ما يحدث هم من صنعوه، و النار المشتعلة في البلد يعرفون كيف يطفئونها، و لن يطفئوها إلاّ إذا حققوا مآربهم و أخضعوا الناس لإرادتهم، و ربما تكون البلاد محكومة من الأجانب و مستقرّة و آمنة، أفضل من أن تعمّ الفوضى و التخريب" شعرت بشيء من الارتياح، بعدما تبادرت لذهنها المشوش هذه الأفكار، ثمّ تذكرت صديقها جهاد الذي قد يحرجها بالأسئلة فقرّرت أن تقنعه بمغادرة القصر في أقرب فرصة ممكنة.

وجدت حسناء مرّة أخرى نفسها في القصر، بإحساس مختلف و بواقع مختلف، فالقصر الذي كانت تعيش فيه أميرة مدلّلة ثم هربت و بعد ذلك رجعت إليه كامرأة خارقة و عاشت فيه كمعلمة حكيمة ثم هربت مرة أخرى لترجع له كامرأة عاجزة مخدوعة من أقرب الناس إليها، حبيبها الذي كلّفها بأقذر مهمّة، ارتاحت قليلا ثم خرجت تتجول في القصر و طبعا كانت الخادمة الجاسوسة تراقبها عن كثب، و كان أول ما صدمها هو أنّها وجدت تلاميذها يشتغلون في غرف محاربي "الوسا" ويقومون بتنظيفها و ترتيبها، حاولت أن تمنعهم و تعيدهم إلى القاعة ليكملوا دروسهم فرفضوا حيث قال لها أحدهم:

– سيدتي إنهم لا يهتمّون بالدروس، و لم تعد الناس تأتي للقصر للعلاج، سيدتي أنا أتحصل كلّ يوم على المال و الهدايا من المحاربين الأجانب مقابل عمل سهل يتمثل في تنظيف غرفة هذا الحارس، سيدتي، لا أريد أن أكمل دروسي كي لا ألقى مصير أخي الكبير الذي اغتالوه في قريتنا، فقد هجمت عليه مجموعة من الناس يقال أنهم عصابات القتل و احتجزوه بسبب الأدوية التي يصنعها حيث قالوا أنها لا تتماشى و أفكارهم، و لا يحقّ له أن يعالج بها المرضى، فقتلوه و حرقوا البيت الذي يستغله لعلاج الناس و حرقوا كل الأدوية، سيدتي أنا و أغلب تلاميذك صرنا نشتغل كخدم عند الأجانب لتحصيل المال و الهدايا و أنت ان شئت فواصلي تعليمنا فنون الطبخ فقط فلا أظن أن قائد الأجانب سيسمح لك بتدريسنا كلّ العلوم، لقد قال لنا بأنّ بلادهم ستوفّر لبلادنا كلّ الأدوية التي تحتاجها.

انصرف التلميذ و ترك حسناء واقفة في مكانها دون حراك و بعد غضب و تفكير اقتحمت غرفة قائد محاربي "الوسا" بعدما صرعت الحارس الواقف أمام الباب و دفعت الجاسوسة التي تلازمها، و قالت له:

– ألا يكفيكم التخريب الذي تسببونه في البلاد؟ ماذا فعلتم بهؤلاء الشباب الذين جاؤوا للقصر ليتعلموا و ليسوا خدم تشغلونهم في غرفكم؟ ثم لماذا تمنعونهم من العلوم و من علاج الناس؟ أنتم تسعون للسيطرة على هذا البلد، فماذا ستجنون من التحكم في بلد مدمّر و تنتشر فيه الأمراض و الأوبئة؟

غضب القائد و نعتها بالمشعوذة و طردها و حذّرها من أن تكرّر ما قامت به أو تتحدث في هذا الموضوع ثانية حتى مع نفسها. انصرفت حسناء من غرفته غاضبة و مشاعر

الإحباط و الحزن تكاد توقعها أرضا فتوقفت وسط الرواق لتستعيد توازنها ثمّ نظرت بازدراء للخادمة الجاسوسة، فكّرت في الذهاب إلى مجلس السلطان، ثمّ تراجعت و خافت من أن يزداد اختناقها و ألمها، فقرّرت أن تزور شقيقة فراس، بحثا عن البراءة و الطيبة، فرجعت إلى غرفتها و حملت معها صرّة ثم دخلت غرفة شقيقة فراس، فوجدتها غاية في الرّقة و الجمال و البراءة، فاقتربت منها و احتضنتها. كانت العروس مندهشة فهي أول مرة تقترب من الجنية إلى هذا الحدّ و بعد عناق طويل بسببه أصيب الجميع بالدهشة و الذهول، طمأنتها على شقيقها الحاكم فراس و بلّغتها سلامه و بلّغتها أنه سعيد بزواجها من السلطان، ثم أهدتها الصرّة و فتحتها فصدم الجميع من جمال و روعة المجوهرات و الحلي التي كانت بداخلها، ثم لمست رأس الفتاة بحنوّ أم حنون و انصرفت مباشرة إلى مجلس السلطان الذي كان يعج بالخدم و الخيّاطين الذين كان أغلبهم من الأجانب، و كان السلطان منهمكا في قيس الملابس و النعال، ثم جالت بنظرها في أرجاء القاعة لترى جهاد متخذا ركنا غير بعيد عن كرسيّ السلطان لكنّه بالكاد يظهر بسبب الاكتظاظ و انشغال السلطان، فاقتربت من جهاد و سلمت عليه و بدأت تتحدث معه فانتبه لهما السلطان فالتفت لجهاد و قال:

– جهاد، صديقي هل أعجبك النعل؟ أظنّ أنه لا يناسب قدمي؟ و أنت أيتها الجنية طال غيابك و نحن في أمسّ الحاجة إليك.

أجابه جهاد:

– أجل يا مولانا، يجب أن يكون أكبر بقليل، و أن يتغير لونه حتى يتناسق مع كلّ ألوان الثياب.

أجابته حسناء:

– مولانا السلطان، هنيئا لك، غدا سأهتمّ بنفسي بهذه الشؤون، أرغب أن نتحدث قليلا في شؤون البلاد.

امتقع وجه السلطان و ظلّ ينظر حوله ثم خاطب الخياطين بامتعاض و طلب منهم أن يؤجلوا كلّ شيء إلى الغد و أمر الجميع بالخروج، و أذن لحسناء و جهاد بالجلوس، و قال:

– لقد سمعت بما يحدث، لكن ماذا أفعل ؟ لقد صادف عرسي الذي أنتظره منذ مدة طويلة، هل أترك عرسي و أهتم بشؤون الناس؟ لقد شقيت من أجلهم و أتعبتكما و وفرنا الدواء و بنينا البحيرات و علمنا الأطفال و قاومنا الأوبئة و دخلت الحي الموبوء و نجوت من الموت بأعجوبة فوق الجسر، لكن بماذا كافئني الناس؟ لقد كوّنوا عصابات تقتل حرس السلطان و تقتل العلماء لأسباب تافهة و واهية، لقد منعوا حتى من يسلّي الناس و من يقومون بالألعاب و الحركات الرشيقة، لقد أحرقوا البلاد، أنا أثق فيكما أكثر من أي شخص فوق الأرض و أعول كثيرا عليكما، لكن لا أظنّ أنكما قادران على إنقاذ البلاد ممّا هي فيه من عنف و تخريب و فتنة و شكّ، لذا سألجأ مرّة أخرى لمحاربي "الوسا" فأنا قد وصلت للسلطة بفضل مساعدتهم و بقائي في السلطة لن يكون سهلا، بل لن يكون ممكنا دون مساعدتهم، صحيح هم خططوا لأن يتحكموا في مصيرنا، و الناس في بلادنا لا يستحقون أن يكون مصيرهم بأيديهم، و قائد محاربي "الوسا" وعدني بأن يساعدني على فرض الأمن و ملاحقة عصابات القتل و القضاء عليها، شرط أن نعود للتعامل معهم في التجارة و شراء البضائع و الأدوية فكما تعرفان،

الإمبراطور الجديد لبلاد "الوسا" هو تاجر و قد وصل للحكم بفضل مساعدة كبار التجار هناك، الذين أوصلوه للسلطة كي يفتح لهم أسواق، و أماكن لبيع كل شيء حتى الأسلحة الفتاكة و الخطيرة، لا يوجد أمامي حلّ آخر و بداية من الغد سأهتم فقط بعرسي و زوجتي و أنت أيتها الجنية يجب أن تخصصي وقتك و تفكيرك فقط لمساعدتي في تحضير العرس، و أنت يا جهاد واصل عملك هنا في القصر.

هدأت حسناء و شعرت بارتخاء في كامل جسدها الملقى على الكرسيّ حاولت أن تتحرّك لكن قواها كانت منهارة فطلبت من السلطان أن يسمح لجهاد أن يعود إلى قريته ليرتاح حتى لا تحدث له مشاكل مع الأجانب، و وعدت السلطان بأن تخصص أغلب وقتها للاهتمام بمراسم الزواج، و لم تكد تكمل كلامها حتى اقتحمت الخادمة الجاسوسة مجلس السلطان دون استئذان فغضبت حسناء و سحبتها من ثوبها و غادرت المجلس في اتجاه الغرفة لتستريح.

دخلت حسناء غرفتها، ثمّ فتحت النافذة و ألقت نظرة على البستان فرأت أغلب الأعشاب مصفرّة و الزهور ذابلة، خرجت إلى البستان فوجدته جافّا و تملِؤه الأوساخ فقضت باقي اليوم تعتني بذلك البستان إلى آخر المساء حيث شعرت بالتعب الشديد فرجعت مباشرة إلى الغرفة و أغلقت كل الأبواب و النوافذ و أعطت للخادمة ما تحتاجه من أغطية و ملابس ثمّ ألقت جسدها فوق الفراش و نامت إلى الصباح لتستفيق على جلبة تلاميذها الذين وجدتهم يتدافعون داخل قاعة الدروس ليس للتعلّم أو الدراسة إنما لأخذ معدات التنظيف التي يخبئونها في قاعة الدّرس لينظفوا بها غرف محاربي "الوسا" فتصدت لهم، و اضطرت لصرع أحدهم حتّى تخيفهم، ثم أجبرتهم على حضور

حصة تدريس، و طلبت منهم تخصيص وقت و لو صغير للتعلّم و حاولت أن توعيّهم و تحسّسهم بضرورة التعلّم للقدرة على الارتقاء بأنفسهم و مقاومة الفتنة و العنف. أكملت درسها بسرعة و سمحت لتلامذتها بالخروج، و بعد لحظات جاء جهاد ليودّعها و معه والدته، اقترب منها و سلّم عليها و حاول أن يفهم ما يحدث في البلاد و يسمع رأيها، و قال بأنّه يمكن ملاحقة المنحرفين و الزج بهم في السجن، طلبت منه ألّا يتحدث في الموضوع و أن يغادر القصر و يعود للعيش في القرية مثلما كان سابقا، ثم ودّعته و اتجهت إلى مجلس السلطان فوجدته كالعادة محفوفا بالخياطين الأجانب فتدخّلت لتساعده في اختيار كسوة العرس.

وجدت حسناء في عرس السلطان فرصة لتشغل نفسها و الانهماك في أشغال لا تجلب لها مشاكل، حيث ترك لها قائد محاربي "الوسا" المجال لتكون المشرفة الأولى على ترتيبات عرس السلطان، رغم أنه يفرض حصارا رهيبا على كلّ نشاطاتها الأصلية من تدريس و علاج و إدارة شؤون البلاد. مرّت مدة طويلة و التحضيرات تسير على ما يرام، أمّا البلاد فبقيت في حالة فوضى و عنف و عصابات القتل لا تكاد الأخبار عن جرائمهم تنتهي، حاولت حسناء بمساعدة بعض تلاميذها الأوفياء السابقين الذين بقوا على قيد الحياة أن تروج لعرس السلطان و طلبت منهم أن يبثوا خطابا إيجابيا و يسعون للمصالحة بين الناس و تعزيز ثقتهم في بعضهم، كما أوصتهم بأن يحثّوا الناس و المزارعين على مواصلة أعمالهم بشكل طبيعي مهما كانت الأحداث دامية و مؤلمة، لأن الحلّ الوحيد لتحدي عصابات القتل هو التمسّك بالحياة.

اقترب موعد عرس السلطان و كعادتها أتقنت حسناء عملها و رتبت كلّ شيء حيث ساعدت السلطان في اختيار ملابسه و ساعدت شقيقة فراس في تحضير نفسها، أمّا التلاميذ فلم تيأس منهم بل واصلت تدريسهم رغم أنهم فضلوا الربح السهل على العلم و المعرفة. شعرت ذات مساء بالتعب فخرجت تتنزه في البستان الذي بدأ يتحسّن بعد عودتها حيث باتت تخصّص بعض الوقت للعناية بالنباتات و الشجيرات، و بينما كانت تمتع نظرها بالخضرة و الأزهار أطلّ عليها قائد محاربي "الوسا" من شرفته و قال لها:

– أهلا بك أيتها الجنية، تلاميذك رائعين و مطيعين، إنهم يقومون بعملهم بكفاءة و خاصة تنظيف و مسح الغرف، لقد أحسنت تعليمهم.

شعرت حسناء بكلماته تنزل عليها كالحمم من السماء، لكنها حاولت المحافظة على هدوئها و أجابته:

– شكرا على الإطراء، أتمنى أن تحافظوا عليهم و لا تجففوهم كما جففتم هذا البستان.

ضحك بصوت عال و مزعج نفرت منه الطيور العالقة في الأشجار فطارت في وقت واحد لتحدث بخفقان أجنحتها ضجيجا مرعبا ارتعدت له فرائص حسناء، ثم قال لها:

– أنتم في بلدكم لا تحسنون التعامل مع الحدائق و البساتين، نحن في انتظار بستانيين قادمين من بلادنا و سيعتنون بهذا البستان و سيقتلعون كلّ الأعشاب الضعيفة و يزرعون مكانها نباتات قوية و صلبة و ألوانها زاهية.

أجابته حسناء رغم الغضب المتأجج في صدرها و قالت:

– سيّدي شكرا لكم على مساعدة بلدنا، في كلّ شيء في دوائنا و طعامنا و حتى في زراعة الأعشاب

ردّ عليها ساخرا:

– أجل نحن من نملك القوة و النفوذ، و نحن من نملك العلوم و المعرفة، و قد بذل أجدادنا تضحيات كي نصل إلى هذا المستوى و هذه المكانة التي لا يمكن أن نفرّط فيها بسهولة و بالتالي لن نسمح للبلدان التي يملؤها الجهل و الفقر و التخلف أن تلحق بركبنا، أنتم فقط كونوا تابعين لنا و سنوفر لكم ما تحتاجونه.

أكمل كلامه الجارح و الجريء ثم دخل إلى غرفته فشعرت حسناء بارتباك و ببرود في أطرافها فجلست على الأرض و بقيت تراقب حركة النمل و الحشرات المنتظمة و قالت في سرّها:" ترى هل تفعل هذه الكائنات كما يفعل البشر؟ ربما هم يعيشون باحترام دون صراعات و لا مؤامرات"، ففقدت شهية التنزه و رجعت إلى غرفتها و شعرت من خلال كلام القائد الأجنبي أنه يريد أن يؤكد لها شكوكها كي يرعبها، و كأنه يريد أن يقول أنّ ما يحدث في البلاد هو من تدبيرهم و أنّهم قادرين على فعل كلّ شيء من أجل المحافظة على نفوذهم، استلقت على فراشها ثم كتبت رسالة صغيرة كي ترسلها لفراس، باسمها كجنيّة و سلمتها للخادمة و طلبت فيها منه أن يكون يوم زفاف السلطان يوم هادئ و دون مشاكل، ثمُ حاولت النوم،فتراءى لها فراس و شعرت بالحنين إليه رغم كلّ ما حدث، و تمنت أن يتغير سلوكه بعد الوصول إلى السّلطة، و تمنت أن تكون لخيانتها لصديقها السلطان انعكاسات إيجابية على البلاد و تستعيد استقرارها، و في كلّ الأحوال السلطان الحالي قد انقلب على والدها و تسبّب في

تشريد أسرتها و يستحق أن يُنقلَب عليْه. بعد أرق دام شطر الليل اهتدت للنوم فنامت في وقت متأخرا، و مع اقتراب موعد زفاف السلطان زاد توترها و صارت الليالي تمرّ عليها ثقيلة و مزعجة و صارت كلّ يوم تفيق عند المساء، و كلّ أمسية تستفيق فيها تجدها داكنة بلا طعم و لا رائحة و لا جديد فيها غير أخبار القتل و التخريب، و قد سمعت أخبار عن عدة مناطق و أحياء يطالبون بطرد السلطان و تسليم الحكم لأحد قادة محاربي "الوسا" من أبناء البلد الذين هاجروا و نجحوا في هجرتهم و طبعا السلطان لا تصله الأخبار و هو أيضا لم يعد يهتمّ.

حان موعد زفاف السلطان و قد قامت حسناء بتقسيم الحفل إلى ثلاثة مراحل على ثلاثة أيام و لكل يوم لباسا خاصّا به، كانت ملابس السلطان مهيبة و جميلة و قد أهدته أثمن ما تملك من المجوهرات ليتزين بها، و قد انبهر الجميع بالمجوهرات و اللباس بما فيهم الأجانب الذين لم يتخيلوا أنّه يوجد في البلاد مثل هذه المجوهرات، و كان اليوم الأول مخصصا لاستقبال أمراء و ملوك و حكام عدّة بلدان و كان يستقبلهم في مدخل المدينة قادة حرس السلطان، و في مدخل القصر يتم استقبالهم بنثر الزهور و الرياحين على مواكبهم من قبل الحسناوات، ليستقبلهم السلطان في ساحة القصر و كانت حسناء مختبئة في مكان قريب تراقب ما يحدث عن كثب، و بينما كان السلطان يستقبل ضيوفه، رأت قائد محاربي "الوسا" يقترب منه و يهمس له، فوقف و أشار إلى أحد قادة الحرس فجاءه و أخذ مكانه ثم انتقل إلى قاعة المجلس فلحقت به حسناء، و اكتشفت أن القائد الأجنبي أجبره على الخروج إلى أطراف المدينة لاستقبال إمبراطور دولة "الوسا" فغضبت و قالت له:

– مولانا السلطان، يجب أن تبقى في مكانك لأنّ شطر الضيوف لم يأتوا و ان لم يجدوك ستكون إهانة في حقهم

ابتسم السلطان و أجابها:

– هؤلاء الحكام و الملوك لم يأتوا من أجل تهنئتي، هم أتوا من أجل رؤية إمبراطور دولة "الوسا" العظيمة.

خرج السلطان و رجعت حسناء إلى مكانها و بقيت تنتظر دخول الإمبراطور، و ما إن دخل حتى تسابق نحوه جميع الحكام و الملوك و السلاطين يتقربون منه و يتنافسون على تقديم عبارات الطاعة و الولاء، و ينحنون أمامه فيدّعي هو بعض التواضع و يحدثهم عن بلدانهم و يتظاهر بأنه يعرفها و يعدهم بالمساعدة، كما كانت تتوقع رافقه فراس الذي كان في مقدمة الموكب، أمّا تلاميذها فكانوا نشيطين و يساهمون في تنظيم مكان الحفل و يتقرّبون هم أيضا من الأجانب و يحاولون ربط علاقات معهم و سمعت عن قرب أحد التلاميذ يسأل عن طريقة للسفر إلى بلاد "الوسا" و يسأل عن الحاكم فراس.

تمّ الجزء الأول من حفل السلطان الذي كان أكثر من حفل إنما هو مناسبة للمجاملات و التعارف بين أعيان البلاد و خاصة التقرب من إمبراطور بلاد "الوسا"، أمّا اليوم الثاني فتم تنظيم حفل لفائدة الخدم و الحراس في القصر و قد فضّل جهاد أن يحضر في اليوم الثاني و قد سعد السلطان كثيرا بوجوده و شكره كثيرا هو وحسناء و قد كان الحفل في، ذلك اليوم، عفويا و فيه الكثير من الفرح و السعادة، و قد ابتهج الجميع

و تناولوا ما لذ و طاب، أما الأجانب فقد كانوا معترضين على هذا الحفل و اعتبروه اهانة و استهتار من قبل السلطان الذي يفترض به أن يكون صارما مع الخدم و الحراس لا أن يسمح لهم بحضور حفله كضيوف. التقت حسناء بجهاد و والدته و بعدما تجاذبوا أطراف الحديث و سألتهما عن أحوال القرية، فأجابها جهاد بحزن و أسى حيث أخبرها عن شباب القرية الذين دخل بعضهم إلى عصابات القتل و قد سافر بعضهم لينضمّ إلى عصابات أخرى في مدن و حتى بلدان أخرى، و قال لها أن البحيرة صارت حولها صراعات و تم اغتيال المشرف عليها و لم يعد ممكن فتحها و قد تمتلئ في الشتاء و تتسبب في كارثة، فقاطعته حسناء و لم تتركه يزيد في حزنها خاصة و أن الوقت غير مناسب.

ودعت حسناء جهاد و طلبت منه أن ينتظر والدته حتى تزور معها العروس، التي كانت في غرفتها محفوفة بالخدم و قد زارها بعض بنات و زوجات أعيان البلاد و كبار التجار، كما وجدت حسناء المدبّرة التي كانت في القصر و تمّ طردها من قبل الأجانب، فارتمت العروس في أحضان والدة جهاد و قبلتها كثيرا فناولتها قطعة ذهب قديمة لكنها جميلة ثم ودعتها و غادرت، فالتفتت العروس إلى حسناء و قالت:

– أيتها الجنية أرى أنك تهتمين بمولانا السلطان أكثر منّي، هيا اهتمي بزينتي و لباسي أين أخي فراس لماذا لا يزورني سمعت أنه جاء للقصر.

أكملت الفتاة كلامها و أجهشت بالبكاء فأثر كلامها في كلّ الحاضرين و كانت حسناء هي الوحيدة القادرة على توقيف دموعها فاحتضنتها و هدأت من روعها، ثم جلبت معدات الزينة و العطور و العقاقير و قامت بتزيينها و وعدتها بأن تهتمّ بها ثم تركتها و

رجعت إلى غرفتها و ألقت جسدها المنهك على الفراش و ظلت تسمع أصوات الاحتفالات و كلما ارتفعت أصوات الأهازيج خارجا كلّما زاد حزنها و بكائها، فهي لم تعش أي حفل كبير في القصر عدى بعض الحفلات الصغيرة التي كانت تنظمها والدتها للالتقاء بزوجات التجار، و كان الحفل الكبير الوحيد الذي عاشت تنتظره هي و أسرتها هو حفل زفافها كأميرة للقصر، وقتها لم تكن تعرف الزوج الذي كان والدها سيختاره لها، لكنها بعدما أحبت فراس كان حلمها بزواج من أجل الحب و ليس زواج من أجل المصلحة و الوجاهة، و ها قد أصبح حبيبها هو اللاهث وراء السلطة و تجاهل حبها له. مرّ على حسناء أكثر من شطر الليل وهي منكفئة على نفسها و لم يسأل عنها أحدا غير الخادمة التي تخرج للاستمتاع بالحفل ثم ترجع بسرعة لمراقبتها،و بينما هي تطارد النوم، سمعت خادمة في الباب تطلب منها أن تزور العروس التي تريدها في أقرب وقت، فهرعت نحو غرفة الفتاة فوجدتها تبكي و تنتحب و ترتعش و كأنها واقفة أمام وحش ضار، جاملتها و اقتربت منها و سألتها عن سبب بكائها فصاحت الفتاة مذعورة و قد زادها البكاء براءة و طفولة و بدت كطفلة صغيرة تبكي من أجل قطعة حلوى، و قالت:

– لا أريد أن أكون ملكة أيتها الجنية، لا أحبّ هذا السلطان، إنه إنسان جبان و ضعيف، لا أستطيع أن أعيش معه.

أجابتها حسناء بهدوء:

– عزيزتي، صحيح أنت صغيرة و تهابين السلطان كما يهابه عدد كبير من الناس في هذا البلد، لكنه ليس بالوحشية التي تتخيلينها، إنه إنسان مثلنا يأكل و يشرب و ينام،

ستكتشفين كم هو حنون المهم أنه يحبك، و الأفضل في سنك أن تتزوجي شخصا يحبك من أن تحبي شخصا لا يحبك وقتها ستتألمين أكثر، ثم أنت مع شروق شمس الغد ستصبحين عروس هذا القصر و ملكة البلاد ألا يستحق هذا تضحية منك و القبول بزوج لا تحبينه، فهو السلطان الحاكم بأمره و صديق الملوك و السلاطين و الحكام و ستكونين أنت صديقة زوجاتهم و بناتهم الملكات و الأميرات.

بدأت الفتاة تستعيد هدوئها بعد نوبة من البكاء و النحيب أمام ذهول الخادمات اللواتي عجزن عن إقناعها و إسكاتها، اقتربت منها حسناء و مررت أصابعها برقة على رأسها و طلبت منها أن تغسل وجهها و تخلد للنوم، لكن الفتاة رغم هدوئها بدا على وجهها الحزن و الألم، أحسّت حسناء أن الفتاة في عينيها الكثير من الكلام فأمرت جميع الخادمات بالمغادرة و طلبت من الخادمة التي تراقبها أن تقف خلف الباب ثم طلبت من العروس أن تتحدث فنظرت حولها ثم قالت:

– أيتها الجنية، أنت ربما تعرفين أن هذا السلطان قد اختطفني من بيتنا لما جاء يبحث عن أخي فراس ليلة سقوط السلطان السابق، وقتها كان قائد حرس السلطان، لقد ربطني و ألقاني في عربته كما يلقي الأشياء التي يجمعها في تلك الليلة المشئومة، و قد عشت رعبا لن أنساه طوال حياتي حيث تم ربط عصابة على عيني و تم إدخالي إلى مكان لا أعرفه وسط قهقهة و سخرية الحراس، و بعدما رفعوا عني العصابة لم أر شيئا و سمعت الأبواب تغلق و الأقفال تولول، بعد ذلك، و كأن الناس ينتظرونني ليتكلموا، كانت أصوات أنين تأتي من كل مكان و أحيانا بكاء و أحيانا أخرى صياح، و عندما طلع النهار وجدت الغرفة ملوثة بالفضلات البشرية و الدماء و الشعر المتناثر في كل أركانها،

و بعد أيام من العذاب تم إخراجي من الغرفة بعد تنظيفها و قد أخرجوا العديد من النساء و الرجال مشوهين متألمين و بعضهم يعرج و بعضهم يزحف على بطنه، فأمروني بأن أطيع أوامر السلطان و أبقى في غرفتي.

أكملت الفتاة كلامها ثم أجهشت بالبكاء مرة أخرى فاحتضنتها حسناء بقوة و قالت:

– ابكي أيتها العروس فلن يخفف من ألمك شيء غير الدموع، افرغي مقلتيك فمازالت أمامك مواسم للبكاء.

رغم أن حكاية الفتاة صحيحة إلى حدّ ما و خروج الناس من السجون هو أمر يجعلها تحب السلطان و تقدره، و هذا ما زاد في حيرة حسناء فتبادر إلى ذهنها أن هناك سبب أقوى جعل الفتاة ترفض الزواج من السلطان فقربتها من صدرها و همست لها قائلة:

– أيتها العروس هذه فرصة عمرك، و السلطان لم يتزوج سابقا و هو ليس طاعن في السن، و الأهم أن ليس له لا طارف و لا تليدا، فأنت ملكة القصر لكل العصور و الأوقات، أظنّ أنك واقعة في الحب، و أنا أعرف الكثير عن الحب، فكوني حذرة فالفتاة التي تحب و هي صغيرة يجرفها سيل من المشاعر و الأحاسيس و العواطف فتظلّ تطفوا على سطح مياهها المتدفقة و لا تدري بأي أرض ترسو، فقد ترسو على أرض صلبة خضراء و مزهرة و قد ترسو في مستنقع يملؤه الوحل و تستوطنه الأفاعي.

أعجبت الفتاة بقولها و سألتها ان كانت قد أحبت جنيا مثلها أو ثورا لما عاشت مع الأبقار، فحدثتها حسناء عن الأبقار و جمالهم و علاقاتهم الجميلة، ثم طلبت منها أن تحدثها عن الحبّ فخجلت الفتاة في البداية و خافت ثم بدأت تتحدث فقالت:

– أيتها الجنية، لقد أحببته، إنه شاب جميل جاء مع الخادمات ليرتب البيت، في البداية كان يتحاشى النظر إلي، حيث يبدو أن الخادمة أوصته بأن لا ينظر لفتاة السلطان، فأخذت راحتي و حريتي في النظر إليه مليا و مراقبة حركاته و سكناته، كان يتمايل بهدوء و شموخ كان يمسك المفروشات برقة و إتقان، كان كلما أمسك شيء أشعر و كأن ذلك الشيء رفع وحده فوق الأرض دون ضجيج، كان ينظف أرض الغرفة و يسكب عليها الماء برفق و كأنه يسقي أزهارا صغيرة، كانت نظراته تجول في كامل الغرفة و تتوقف فقط عند الركن الذي أجلس فيه، كان صدره رحبا يسع الأرض و ما عليها، كان ظهره صلبا كصخرة من صخور الوادي، كانت أصابعه خشنة و مشققة لكن لونها جميل و تمنيت لو أنه يلمس وجهي و يدي و يمسك خصري، و مع هذه الأمنية لم يبقى في قوس الصبر منزع فنهرت الخادمات و دعوته للجلوس أمامي و قلت له:"من أي أرض أنت أي ريح جلبتك لهذا القصر، كم طريقا سلكت، و كم جسرا عبرت و كم غابة اقتحمت كي تصل هنا بين أحضاني" ارتبك و احمرت وجنتيه و أجابني عن أهله و قريته و حقله كان الكلام ينساب من بين شفتيه كالماء من منبع صغير أسفل الصخور، كانت كلماته صافية و عذبة، كنت أحلق مع كل كلمة يقولها في الفضاء و في عوالم الصفاء و السعادة كالطيور التي تريح جناحيها بلا حركة و تترك مصيرها للرياح، فلمحت بياضا ينبت في ركني فمه ففهمت أنه قد أصابه العطش بعدما

سقاني بكل ما في صدره من ماء فسكبت له الماء في زجاجة كان يحدق فيها و هو يكاد يلقي لسانه وسط الكأس، ناولته إياها فأغمض عينه و شرب وقتها كنت أتمنى ان أشق صدره و أرى انسياب الماء في عروقه مددت يدي بجرأة و مسحت البياض عن شفتيه و تمنيت لو أنه قضم إصبعي و ابتلعه وقتها فتح عينيه و حدق فيّ جيدا فقد فَقَدَ كل الخجل و الخوف في تلك اللحظة، لمحت في عينيه جمالا و بحرا و غابة و هواء و صحراء و حرية و حبا و شجاعة و وفاء، فتدفق كل شيء من عينيه إلى قلبي فارتفعت نبضاته حتى بت أسمعها كصوت طبل ينقره المجانين في أطراف المدينة، ارتبكت و بدأ جسمي يرتجف و شعرت بالأرض تدور حولي فانحرفت عن الكرسي حتى لمست الأرض، وقتها حقق أمنيتي دون أن أطلب منه و أمسك خصري بأصابعه الخشنة فأيقظني من غيبوبتي الصغيرة التي عشتها أمامه و أفاقني من غيبوبتي الكبرى التي كنت أعيشها منذ دخولي هذا القصر وقتها اقتحمت خلوتنا الخادمة و دفعته و عاتبتني و حذرتني لكني لم أسمعها جيدا فأذني وقتها محشوة بكلمات حبيبي العذبة.

ارتبكت حسناء و تأثرت كثيرا بكلام الفتاة و سبحت هي الأخرى في عوالم الحب و المشاعر، وبعدما استعادت تركيزها و تفكيرها بصعوبة، بدأت تفكر في مصير هذه الفتاة العاشقة و فهمت أن كلماتها و خطاباتها لن توقف هذا السيل الجارف من المشاعر الذي تسبح فيه هذه الطفلة اليافعة، حاولت أن تتحدث معها و تحذرها لكن دون جدوى و كان الحل الوحيد هو أن تستنجد بفراس، ثم انصرفت و مع طلوع الشمس جمعت التلاميذ و بأسلوبها الخاص عرفت الشاب الذي تيّم عروس السلطان

فنهرته و أبعدته عن القصر نهائيا، و خرجت من قاعة التدريس مع باقي التلاميذ فوجدت فراس، فقالت له:

– يبدوا أنك مطمئن على خططك و مؤامراتك أنت الآن تنام قرير العين؟ أطماعك و طموحاتك أنستك أختك التي ستضحي بأجمل شيء في حياتها من أجلك، لماذا لم تزرها؟ هي الآن في أمس الحاجة إليك، هي ترفض الزواج بالسلطان حاول أن تقنعها دون أن تضغط عليها سأقنعها بنفسي ان عجزت أنت.

أكملت كلماتها و نظرت له نظرة جريئة كلّها تحدي و شجاعة و تركته واقفا متجمدا في مكانه و انصرفت إلى مجلس السلطان لتجده قلقا و منزعجا حيث يبدوا أنه قد وصلته أخبار العروس، فطمأنته و هدّأته و وعدته بأنها ستحل المشكلة كعادتها، حيث قالت له:

– مولانا السلطان، اطمئن فزفافك غدا سيكون أجمل حفل في البلاد، و سيبعث الفرحة و الأمل في قلوب الناس المكلومين، سيكون عرسك رسالة سلام إلى كل الدنيا، رسالة حب و تعايش، مولانا السلطان، الناس في البلاد تنتظر فرحة بعدما حلّ من دمار و خراب، و بعدما عاثت عصابات القتل في البلاد فسادا، و عرسك سيكون الفرحة المنشودة، التي سيتحدى بها الناس الذين يجبون الأمن و السلام، كلّ عصابات الموت التي لا تحب الاحتفالات و الأعراس، و لا تريد العلم و المعرفة، مولانا السلطان لا تخف من تلك العصابات، فهم يجرحون و نحن نداوي، و هم يقتلون و نحن نحتفل و نعيش و نعمل، و هم يدمرون و نحن نبني، مولانا السلطان لا تفكر في شيء سوى

أنك أنت غدا العريس و ستكون بجانبك أجمل عروس، إنها زهرة يانعة، إنها صافية كالماء، إنها عذبة و طرية و ناعمة ستكون أسعد إنسان معها.

تركت حسناء السلطان فرحا مطمئنّا و غادرت المجلس لتزور العروس فاعترضها فراس خارج من غرفتها و علامات التأثر بادية على وجهه، تفادته و لم تبادله أي كلمة و ما ان دخلت الغرفة حتى جثت أمام الفتاة و قالت:

– مولاتي الملكة، مولانا السلطان يبلغك سلامه و يقول أنه سعيد بك و يكن لك كل الاحترام و التقدير.

أشارت إليها الفتاة بالوقوف فاقتربت منها و هنأتها و طلبت منها أن تعامل الناس كملكة، و تجهز نفسها لأهم مرحلة في الزفاف و هي خروج السلطان و عروسه لساحة المدينة حتى يرى الجميع الملكة الجديدة، و طلبت منها أن تأخذ قسطا من الراحة ثم تركتها و رجعت إلى غرفتها و تناولت بعض العقاقير التي تخفف عنها التعب و تذهب عنها النوم، ثم استغلت غياب الخادمة التي خفّفت عنها المراقبة بعدما صار بينهما ودّ و تفاهم، فكتبت خطابا للسلطان كي يلقيه للناس أثناء الحفل، ثم خبأت الخطاب في طيات ثيابها و قد دخلت عليها الخادمة لتزفّ لها خبرا جديدا، حيث قالت لها :

– أيتها الجنية،إنّ الإمبراطور قد نصب السيد فراس كقائد لمحاربي "الوسا" مكان ذلك الأجنبي المتعجرف، السيد فراس ابن البلد لقد نال شهرة كبيرة و قد أقنع الإمبراطور بسحب عدد هام من محاربي "الوسا" كي يعودوا إلى بلادهم.

شكرتها حسناء على الخبر ثم أوصلت الخطاب إلى السلطان و واصلت تحضيراتها و كانت تلتقي أحيانا ببعض تلاميذها الذين لا حديث لهم إلاّ عن السيد فراس، و عن بطولاته و عن ذكائه الخارق علاقاته الوطيدة بإمبراطور دولة "الوسا" و بكل الملوك و كبار التجار في البلاد و حتى التجار الأجانب، بدأ كلّ شيء يتضح أمام حسناء و بدأت معالم الخطة ترتسم في مخيلتها، حيث صنع إمبراطور دولة "الوسا" القائد فراس ليكون حاكما مطيعا للبلاد و بوصوله للحكم ستنتهي كلّ المشاكل و يعود الهدوء حيث استغلوا طمعه في السلطة ليكون خادما لهم. ظلت حسناء تتحرك في كلّ أرجاء القصر دون كلل أو ملل و تنظم كلّ شيء باقتدار رغم أن فكرها كان مشوشا و كانت شاردة يشغلها ما يخطط له فراس، و بقيت المرحلة الأخيرة و الأهم و هي زيارة العروس قبل خروجها، فزادت في تزيينها و تجميلها حتى أعادت لوجهها جماله و نظارته و طفولته.

خرجت القافلة الاحتفالية من قصر السلطان في جوّ بهيج حيث كان الجميع فرحا مسرورا و كان في مقدمة القافلة فتيات صغيرات يلبسن ملابس جميلة و ألوانها زاهية و يحملن سلالا ملآ بالياسمين الذي ينثرنه بين الفينة و الأخرى على الطريق، و كان الحراس يفتحون الطريق بهدوء و بعد وصول القافلة و تأمينها، لحقت قافلة أخرى و فيها فراس و يرافقه قائد من بلاد "الوسا" و يبدوا أنه نائب الإمبراطور، ثم انتشر حراسهم وسط الناس و بدأت الهتافات بحياة فراس، أمّا حسناء فقد كانت متخفية في عربتها تراقب ما يحدث عن كثب، و قد لاحظت ترحاب الناس بفراس أكثر من السلطان، و كانت مرتبكة و متوترة فالسلطان قد تأخر في إلقاء الخطاب الذي كتبته

له، و بعد مدة طويلة من الهتافات و الأهازيج، قام السلطان متثاقلا من كرسيه و أعطى إشارة للناس بأن يسمعوه و سحب الورقة من ثيابه و قال:

– أبناء بلدي الرائعين، شكرا على حضوركم حفل زفافي، فأنا سعيد جدا هذا اليوم، شكرا على مشاركتكم لي فرحتي، فقد تضاعفت سعادتي بحضوركم الجميل، وددت لو كنت قادرا على دعوتكم جميعا إلى القصر، لكنه لا يكفي لاستيعابكم، فهذه الساحة هي قصرنا و كل البلد هو بيتنا، هذا بيتنا الذي يجب أن نحميه من كل من يريد أن يقفز على أسواره كذلك يجب أن نحميه من الداخل و نصونه و نعتني به، أشكركم مرة أخرى لأنكم حضرتم و احتفلتم رغم ظروفكم الصعبة و معاناتكم، فأنا أشعر كل يوم بمعاناتكم، لقد عملت كل ما بوسعي لتحسين ظروف عيشكم. لقد ساعدت الناس في كل مكان و شجعتهم على العمل و الإبداع، و حققنا نجاحات كبيرة في مجال توفير المياه و توفير الدواء و الغذاء، لكن في غفلة منا تغير كل شيء و تعطلت عدة مشاريع و انهارت عدة بحيرات قبل أن يكتمل بناؤها و تعطلت بضائعنا في الموانئ و ما زاد الأمور سوءا هو ظهور عصابات الموت و انتشارها و انتشار أفكارها الإجرامية بسرعة، أردت أن أقول هذا الكلام كي تعرفون أننا في مفترق طرق، إما أن نواصل في طريق الإصلاح و التغيير، و إما أن نستسلم للفوضى و الفتن، علينا أن نثق في بعضنا و أن لا نتهم بعضنا البعض مهما حصل، فمهما كانت الخسائر فادحة و الأحداث مؤلمة لا يجب أن نبحث عن عيوب بعضنا و يبحث كلّ واحد فينا عن ألف طريقة ليلصق تهمة الإجرام و الانحراف في كل من يخالفه الرأي، عليكم أن تتحدوا و تصبروا، أما عصابات القتل فسبيلكم الوحيد للتخلص منها هو أن تواصلوا ممارسة حياتكم بصفة

طبيعية و عادية مهما كانت بشاعة جرائمهم، لا تخافوهم و تحدّوهم بالفرحة و الابتسامة، هم سيشعرون بالفشل ان عجزوا عن إخافتكم، أعدكم أيضا بمحاسبة كل من أذنب و كل من أجرم بواسطة قضاة نثق فيهم، علينا أيضا أن نبحث عن حلول لمشكلة المياه، انتظر أفكاركم و اقتراحاتكم.

لم يكمل السلطان خطابه كما كتبته حسناء فقد كان مرتبكا حيث قاطعته هتافات الناس المنادية بحياة فراس أكثر من مرة، فجالت حسناء بنظرها في وسط الساحة لترى أن الهتافات و الأهازيج يوجهها بعض العملاء المزروعين وسط الحشود، حيث كان فراس محل اهتمام الجميع، و بدأ الاحتفال و قدم بعض الشباب حركات ممتعة كما تم تقديم عروض من عدة بلدان أخرى، فيها من يلعب الزواحف و فيها من يلاعب الحيوانات و الوحوش، كانت الأجواء منعشة و ممتعة و زرعت الفرحة على وجوه الناس المهمومين الذين احتفلوا و فيهم من تناول الطعام الذي تمّ توفيره في الأماكن المجاورة للساحة، و تمكن بعض الوجهاء من الوصول إلى منصة السلطان و تهنئته، كما تقدم فراس وسط الأهازيج ليهنئ شقيقته و يقبلها ثم صافح السلطان و نزل، و قبل نهاية الحفل هدأ الناس و أشار لهم أحد الحراس بأن يصغوا لخطاب إمبراطور دولة "الوسا" و الذي سيلقيه نائبه، اشرأبت الأعناق و انتبه الجميع فقام القائد من مكانه و وقف بجانبه فراس و راح يخطب قائلا:

– أولا أهنئ جلالة السلطان بعروسه الرائعة و الجميلة، ثم أهنئه بهذا الاحتفال و بفرحة الناس حوله، هو يستحق هذا الاحتفال لأنه منذ أمسك السلطة و هو يسعى لإسعاد الناس و حل مشاكلهم، و تحسين ظروف عيشهم و إرساء العدل بينهم، لكنه للأسف

فشل رغم أفكاره النيرة و جهوده الجبارة، ربما بسبب الظروف الصعبة و المشاكل و الحروب الطاحنة المحيطة ببلدكم و ظهور عصابات القتل و التي لم يكن جادا في صدها و مقاومتها، حتما سنساعده و سنساعدكم و سنوفر لكم الدواء و اللباس و المؤن فقط لا تتبعوا الأفكار الجديدة التي يروجها المشعوذين الذين أحاط بهم السلطان نفسه فظللوه، فأفكار المشعوذين قد أنزلت عليكم الوبال و بسببها عجز السلطان عن سداد ديونه، حيث كان يصغي إليهم في شؤون خطيرة كالطب و العلاج و البناء، فمن أين لهم المعرفة حتى يتلاعبوا بعقول أبناء هذا البلد الجميل، هؤلاء المعتوهين كادوا يأخذون البلد نحو الهاوية لولا تدخلنا لإنقاذها. هذا فراس ابن بلدكم الذي هاجر إلى بلاد "الوسا" فتعلم كل العلوم و صار قائدا عظيما و قد شارك في عدة مهام و نجح فيها و هاهو اليوم نال ثقة الإمبراطور بعدما نجح في إدارة مدينة الميناء التي لم تعش ما عاشته باقي المناطق من فوضى و تخريب. نحن نثق فيه كثيرا و بعدما يمسك قيادة محاربي "الوسا" في بلدكم بصفة رسمية سنزودكم بالأسلحة و المعدات التي تساعدكم على القضاء على العصابات، و سنزودكم بالمؤن و اللباس و الدواء. أشكركم كثيرا على هذا الاستقبال.

ارتفعت الهتافات بشكل جنوني بعد نهاية الخطاب و شعرت حسناء بضيق في أنفاسها و أصبحت تسمع أهازيج الناس بعيدة و مشوشة و كأنهم يهتفون وسط بركة ماء، و شعرت بالعرق يسيل على كل جسدها و آخر شيء وعت به هو أنّة عميقة أطلقتها بحزن استفاقت منها في غرفتها في اليوم الموالي.

عاشت حسناء أياما عصيبة بعد زواج السلطان فقد استبدّ بها المرض و كانت تحاول أن تتحمل و تظهر قوة و صلابة أمام الخدم و التلاميذ، الذين لا حديث لهم إلاّ عن فراس الذي كان دائما يتردد على شقيقته، كانت حسناء تنام بصعوبة في كل ليلة حيث بات يؤرقها ما ستقدم عليه من تآمر مع فراس على السلطان، كانت أحيانا تشعر بالذنب و بتأنيب الضمير، ثم تقول في سرّها: "كلّ السلاطين و الملوك قد وصلوا للسلطة بالمؤامرات و الدسائس و ربما بعد جرائم بشعة"، تعبت حسناء كثيرا، تعبت من القناع و من الدور الصعب الذي عاشت تلعبه من أجل إنقاذ حياتها في البداية ثم من أجل أهل بلدها، و هي في المدة الأخيرة تلعبه من أجل ورطة أوقعها فيها حبيبها.

ذات مساء و بينما كانت حسناء جالسة تتحدث مع بعض تلاميذها قال أحدهم بأن السيد فراس قرر أن يبني تمثالا كبيرا للسلطان الأكبر الذي حرّر البلاد و بناها في السابق. غضبت كثيرا و تذكرت انهيار تماثيل أبيها في كل المدن و الساحات حيث جرها الناس بالحبال و هشموها بالحجارة، ربما فراس أراد أن ينال شهرة بإعادة تمثال جدها السلطان الأكبر، هي باتت تكره أبيها و جدها فهي تعرف أنهما سبب تعاستها و تعاسة البلاد.

طالت فترة راحة السلطان و الملكة الصغيرة التي كانت تستقبل كلّ يوم بنات و زوجات كبار التجار و أعيان البلد اللواتي يزرنها للتقرب منها و تزورها حسناء بين الفينة و الأخرى للاطمئنان عليها، و تزور السلطان لتحسّسه بضرورة الاهتمام بشؤون البلد التي يسوء وضعها يوما بعد يوم، أما فراس فيزورها أحيانا لاستفزازها و تحذيرها و تذكيرها بأنّ موعد مهمتها قد اقترب. جلست حسناء ذات مساء قرب النافذة المطلة على

البستان فدخل عليها فراس و دون مقدمات طلب منها أن تكتب خطابا للسلطان و تقنعه بأن يخرج لساحة المدينة و يلقي خطابا ليطمئن الناس، أومأت برأسها و طردته من غرفتها و قبل أن يخرج طالبها بأن تسلمه الخطاب قبل أن يتسلمه السلطان.

بعد ليلة مؤرقة أفاقت حسناء لتجد فراس واقف أمام باب غرفتها و ناولها الخطاب و أمرها بأن تتجه مباشرة إلى مجلس السلطان، فلبت طلبه و دخلت على السلطان في مجلسه فسلمت عليه ثم فتحت الخطاب و قرأته و لم تلاحظ عليه أي تغيير، أعادت قراءته لتجد جملة صغيرة مستفزة و كلماتها مميزة تم حشرها وسط الخطاب، ففهمت ما خطط له فراس ربما تكون تلك الجملة هي الإشارة لقتل السلطان، سلمته الخطاب و أقنعته بأن يخرج في المساء للالتقاء بالناس و طمأنتهم و حثهم على العمل و نبذ العنف و الصراعات. ودعته و خرجت فشعرت بالدموع تسري تحت قناعها و ببرود يدبّ في كل أطرافها، فهي أول مرة تقوم بعمل سيء و أول مرة تخون شخصا وثق فيها، رجعت إلى غرفتها و أحضرت بعض العقاقير و بعض المجوهرات و وضعت كلّ شيء في صرّة و حضرت كل شيء لمغادرة القصر بصفة نهائية حيث لم يبق أمامها إلاّ جهاد صديقها الوفي ذلك الرجل الشهم، هي تعرف أنه يحبها كثيرا و هي بالقناع و قد أحبها بعدما عرف سرّها، كذلك والدته تحبها، أما فراس فسينال مآربه و ينساها، و هي أيضا بدأت تنساه بل و تنقم عليه.

حان موعد خروج موكب السلطان عند المساء وما إن دخلوا الساحة حتى اتخذت مكانا مشرفا في إحدى العربات و ألقت نظرة من خلف الستار على الساحة فلاحظت تغير الحراس و المرافقين بما فيهم قائدهم، ففهمت أن خطة فراس تسير بشكل

صحيح، و قبل أن يبدأ السلطان خطابه أخذه الحراس إلى وسط الساحة في مكان يصعب فيه التحرك كما صار صعبا عليها اللحاق به، نزل السلطان من عربته و صعد المنصة و صمت الجميع و كأن يدا وضعت على أفواههم، كان السلطان خائفا و مرتبكا، نظرت حسناء و سط الحشود فرأت زمرة من الناس الغرباء يدخلون وسط الصفوف ثم يتخذ كل واحد منهم ركنا في الساحة ، بدأ السلطان خطابه و ارتعشت حسناء و شعرت بالتعب و الحزن و الإحباط، و في غفلة منها صاح عدة أفراد بصفة متزامنة وسط الحشد و أخذوا يشتمون السلطان و يلقون الحجارة حيث يبدوا أن الإشارة وصلتهم من خلال الخطاب، و في لحظة بدأ التوتر يرتفع و بدأت الأجواء تزداد عنفا و هيجانا حاول السلطان تهدئة الأجواء لكن صار العكس، فقد قام أحد الحراس بصفة عبثية بقتل امرأة و زوجها و طفلها في ركن من أركان الساحة فسال الدم و هاج الجميع وسادت الفوضى، و صار الكل يقتل الكل أضرمت النار في أغلب العربات بما فيها العربة التي تختبئ فيها، نظرت إلى منصة السلطان فرأت زمرة من الأجانب يصعدون إليه و يلقون به وسط الناس ثم اختفوا، فكرت في إنقاذه لكنها تراجعت فهي أيضا مستهدفة، فأخذت تنفث النار دفاعا عن نفسها.

مرّت على حسناء أمسية مؤلمة، و حدث كلّ شيء أمامها في لحظات فلم تستوعب المشاهد العنيفة و القتل و الدم و النار، و قد دافعت عن نفسها بشكل غريزي دون تخطيط مسبّق، المشهد الوحيد الذي بقي عالقا بذهنها هو سقوط السلطان بين الناس كفريسة تنهشها الوحوش، مالت الشمس للمغيب و احمرّت السماء و بدت داكنة و بدا الأفق مغبرّ و زاده الدخان المتطاير من الساحة حزنا، و بدأ الناس يتفرقون و غادر

كلّ الحراس و لم يبقى في الساحة غير النار و تمثال جدّها السلطان الأكبر الذي نصبه فراس وكأنه أراد أن يشهده على جريمة جديدة تشبه ما ارتكبه هو سابقا من جرائم، كما بقي في الساحة قلّة يحاولن التعرّف على جثث أهاليهم، و بعد لحظات دخلت مجموعة من المنحرفون ينبشون الجثث بحثا عن حلي و مال، وقتها حسناء بدأت تستعيد أنفاسها و تعي بما يدور حولها، فرأت المنحرفين يقتربون من جثّة السلطان فقفزت في الساحة و نفثت النار لترعبهم و تطردهم، اقتربت من جثة السلطان و فتحت فمه بحثا عمّا تبقى من أنفاسه، ثم جست نبضه فوجدته قد فارق الحياة، استغربت موته بسرعة فقلبته لتجده مطعونا طعنة غائرة فتأكدت أنّه قتل من قبل قاتل مأجور و ليس بسبب السحل. غادرت حسناء الساحة المحترقة و هربت بنفس الطريقة التي هربت بها ليلة سقوط والدها، لقد عاشت في حالة هروب دائمة، هروب من المؤامرات و الدسائس و القتل و العنف، اتجهت نحو بيت تلميذها حيث بات ذلك البيت ملاذها الأخير كلّما مرّت بظروف صعبة، كانت البلاد في حالة فوضى و تم حرق أغلب المتاجر و المباني و النار تشتعل في كلّ مكان حتى في الهواء، و كأن البلاد مرّ عليها كائن أسطوري و نفث فيها النار بطريقة عبثية، دخلت بيت تلميذها فوجدتهم مرعوبين، و وجدت ابنهم قد فقد رجليه و أمه تبكي و تنتحب، فواستهم و سألته عمّا حل به فقال لها أنّهم قد نصبوا له فخّا في البيت الذي يعالج فيه الناس، و ما ان داس على عتبة ذلك البيت حتى اشتعلت النار في رجليه، فاضطرّ لبترهما حتى يحافظ على حياته، تألمت كثيرا، و طلبت من والد التلميذ أن يجلب لها شخصا ينقلها إلى القرية،

فحاولا إثنائها عن السفر لكنها أصرّت و بررت ذلك بأنها لا تريد أن تكون ثقيلة عليهم و أن تسبب لهم مشاكل، لكنها في الواقع كانت ترغب في الذهاب إلى جهاد.

هربت حسناء مرة أخرى إلى قرية جهاد في ليلة صعبة و قاسية كل شيء فيها يذكرها بليلة هروبها من القصر أول مرة، نقلها كالعادة أحد قطاع الطرق الذي يحترف نقل الناس الخطرين و الأشياء الخطيرة، و كالعادة أوصلها دون أن يتعرض لأي مشكل رغم ضراوة الصراعات و اشتعال البلاد، انزلها في أسفل الغابة و انصرف دون أن يتكلّم فهو كعادته أخذ الذهب مسبقا، شقت الغابة و اقتربت من بيت جهاد فشعرت و كأن حملا ثقيلا انزاح عن ظهرها، اقتربت من زريبة الأبقار فهاجمها الكلاب نادتهم بأسمائهم فأصبحوا يتمسحون بثوبها، دخلت مكانها القديم وسط الأبقار لتجده نظيفا مرتبا و كأنها غادرته لتوها، نظرت إلى الأبقار فرأتهم نائمين فقالت في سرّها:"ما أجمل الطمأنينة" ألقت جسدها المنهك على الفراش و نامت دون أن تفكّر في شيء و دون أن تخاف من شيء، لتستفيق صبيحة اليوم الموالي على وقع أمطار صيفية غزيرة و كأنها نزلت لتغسل الدماء التي تركتها في ساحة المدينة، ثم نظرت إلى ثوبها فوجدته ملطخا بالدماء و الأتربة، أطلت على الحقل فلم ترى لا جهاد و لا والدته يبدوا أنهما قابعين في البيت خوفا من المطر رغم دفئ الطقس، أمسكت مرآتها و سحبت القناع لترى وجهها شاحب و مصفرّ فخبأت القناع و قالت له:"انتهت مهمتك أيها الوجه التعيس، لقد قررت أن أكون سعيدة" ثم وقفت أمام الزريبة و راحت تتأمل الأفق الرحب غير آبهة بالأمطار فلمحت خلف السحب بقعة ضوء بعيدة تنساب منها أشعة الشمس فشكلت قوسا جميلا بكل الألوان فتذكرت طفولتها لما كانت تطارد ذلك القوس، مع

أترابها من أبناء الخدم و الحراس، ثم قالت في سرّها:"لازلت طفلة، بل عدت طفلة من جديد، الآن ولدت" ثم فتحت الزريبة و أخرجت الأبقار و خرجت حافية تقفز تحت الأمطار و ترفع يديها و كأنها تريد ان تخطف كل قطرات المطر بيديها و لسانها، كانت تدور بين البقرات كفراشة، سمع جهاد و والدته خوار الأبقار و صياح حسناء فخرجا ركضا، في البداية جهاد عرفها مباشرة و بقي واقفا في مكانه، أما والدته فقد استغربت وجودها فهي قد نسيت ملامحها الأولى لما جاءت للقرية، ثم تعرفت عليها و هرعت نحوها تعانقها و تقبلها ثمّ جرتها إلى البيت و فرضت عليها أن تستحمّ و ناولتها أجمل الملابس التي تحتفظ فيها بخزانتها منذ كانت عروس. يبدوا أن والدة جهاد بحدسها النسائي عرفت أنّ حسناء لم تعد جنية و قد جاءت من أجل الزواج.

ارتاحت حسناء في بيت جهاد و عند المساء تجمعوا حول الطعام فأكلوا كثيرا و ضحكوا كثيرا ثم انسحبت والدة جهاد لتترك ابنها الخجول مع الفتاة التي أصبحت تحلم بأن تزوجها إياه. لم تترك حسناء لجهاد فرصة كي يسألها فحكت له كلّ شيء و أطنبت في ذم فراس و ذكر طمعه و جشعه و رغبته الجامحة في الوصول للسلطة بأي ثمن، فحدث ما لم تتوقعه فجهاد رجل شهم و يؤمن بالوفاء و التضحية و يعتبر نفسه صديقا للسلطان المغدور، فلم يتفهم وضعها و غضب كثيرا و تركها و ذهب إلى غرفته، فلحقت بوالدته لتسهر معها و تحدّثها عن قصتها منذ ولدت إلى لحظة عودتها للقرية.

أفاقت حسناء على صوت والدة جهاد التي قدمت لها فطورا جميلا و قبلتها و مدحت جمالها و رقتها، ثم همست في أذنها و قالت:

– حبيبتي حسناء، جهاد مع الأبقار في تلك الأكمة الجميلة.

أكملت حسناء فطورها و خرجت إلى الحقل لتجد الشمس حارقة و الطقس حارّ فرجعت للبيت و اختارت أجمل و أخف الثياب من الملابس التي أهدتها إياها والدة جهاد ثم نزلت إلى الحقل تمشي خفيفة كفراشة بثوبها الخفيف، الذي زادها جمالا و رشاقة اقتربت من جهاد وسلمت عليه فرد عليها ببرود فحذرته من أشعة الشمس فتجاهلها، فقالت له:

– عزيزي جهاد، أنا متأكدة أنك تحبني، و أنا أحبك و أنت أجمل إنسان عرفته في حياتي فأنت طيب و شهم، و صداقتنا شاهدة على ذلك بالنسبة للسلطان كان صديقنا المشترك، و أنا لم أخنه عمدا بل بسبب التهديد و لأني أحبك و أخاف عليك، و في كلّ الأحوال نحن لا نقدر على توقيف مؤامراتهم، فالبلاد التي نحاول تحدّيها بلاد كبيرة و بلادنا لازال أمامها وقت طويل كي تحقق سيادتها و استقلالها، عزيزي و أنا معك الآن يؤلمني كثيرا الحديث في شؤون البلدان، انما أريد أن نتحدث عن الجمال عن هذا المكان الرائع الذي أحببته كثيرا عن والدتك الطيبة الجميلة، آه بالنسبة لفراس، أحببته فعلا أيام شبابي وأيام طيشي هو كان حلما جميلا من أحلام الشباب و صار كابوسا، و من حقك أن تغار منه، لكنه انتهى بالنسبة لي بعد كلّ ما فعله، و هو يخطط لأن يكون سلطانا على البلاد و بالتالي صار أمره لا يعنينا، أحبك كثيرا و بصدق عزيزي جهاد و أحترمك كثيرا و أثق فيك كثيرا و في حياتنا البسيطة هنا الثقة أهمّ من الحب، سعادتنا ستكون كبيرة بأسرة جميلة و أبناء رائعين يلهون و يلعبون وسط هذه الربوع الحالمة.

صمت جهاد و تأثر بكلمات حسناء فتجرّأ قليلا و رمقها بنظرة خاطفة ثم نظر للأرض، فلاحظت عليه علامات الارتباك حيث بات ينبش التراب بعود صغير في يده، فهو أول مرة يراها امرأة كاملة الأوصاف في لباس جميل متناسق مع جسمها الرشيق، رأت جروا صغيرا يقترب منهما فحاولت أن تجلب انتباهه، و حملت الجرو بين يديها و قالت:

– هذا الجرو ضعيف و قد تقتله الشمس، يجب أن نعتني به، إن شعره مليء بالحشرات سأغسله بالماء الساخن.

أكملت كلامها و وضعت الجرو على الأرض و جثت على ركبتها و راحت تداعبه ثمّ التفتت لتجد جهاد ينظر إليها باهتمام فتركت الجرو و اقتربت منه و قالت له هيا معي إلى البيت أمك تحتاجك، ثم أوصلته إلى والدته و طلبت منها أن تقنعه بالزواج منها.

بعد أيام تمكنت العجوز من إقناع ابنها بالزواج و نظمت حفلا جميلا و بسيطا دون ضجيج حيث استضافت بعض القرويين على مأدبة و كانت حسناء أجمل و أسعد عروس حيث لبست نفس اللباس و نفس الحلي الذي تزوجت فيه والدة جهاد، و تواصلت سعادتها بعد الزواج حيث صارت تتقن كلّ الأعمال و صارت تحب جهاد كثيرا، حيث عاشرته و اقتربت منه و صارت تفهمه و هو أيضا كان كعادته شهما و طيبا و هادئا، و ذات صباح بينما كانت تعمل في الحقل، شعرت بغثيان و قلق شديد فعرفت أنها أعراض حمل، فبشرت والدة جهاد التي بشرت ابنها و زادت سعادتهم و فرحتهم في أحضان الطبيعة.

غرقت حسناء و حبيبها جهاد و والدته في سعادة غامرة لم تعش مثلها طوال حياتها، وسط أسرة صغيرة و جميلة، تنتظر طائرا صغيرا يحطّ فوق شجرة هذه العائلة و هو المولود الذي ستضعه حسناء. ذات صباح بينما كانت حسناء منهمكة في العناية بالحقل، و جهاد يرعى الأبقار و والدته تهتم بالبيت، اقتحم الحقل مجموعة من حرس السلطان و صاح أحدهم يسأل عن جهاد حيث وصفه بالمجرم المنحرف، تعرضت لهم العجوز فطرحوها أرضا و بقيت حسناء تراقب ما يحدث من بعيد و جاء جهاد يجري و جثا قرب والدته يمسح عنها التراب، سألهم عن سبب بحثهم عنه فقالوا له أن الملكة أمرتهم بالقبض عليه بتهمة تمويل عصابات القتل و تحريض الناس ضد بعضهم و يريدون زوجته أيضا لأنها مطلوبة لدى قائد محاربي "الوسا" الذي يتهمها بالسرقة، ارتجفت حسناء و شعرت بالخوف، و وضعت يدها على بطنها، فكرت في الهروب ثم تراجعت و اقتربت من الحراس و مدت يديها إلى أحد الحراس و طلبت منه أن يأخذها و يترك جهاد و شأنه، فأجابها قائدهم و قال:

– أرجوك سيدتي، أنت مطلوبة لشأن آخر، أما جهاد فالتهمة مثبتة عليه و سيعدم مع عدة خونة في ساحة المدينة.

بدأت والدة جهاد تصيح و تولول و تضرب وجهها بالتراب و بدأت تركض خلف القافلة محاولة اللحاق بابنها و حسناء إلى أن وقعت على الأرض و بقيت حسناء تنظر إليها إلى أن ابتعدت. وصلوا إلى القصر فتم أخذ جهاد إلى السجن و تم أخذ حسناء مباشرة إلى غرفتها، و لم يقترب منها أي شخص، و في صباح اليوم الموالي أفاقت لتجد شخصا أجنبيا يدرس التلاميذ أشياء بسيطة ثم يطردهم و يأمرهم بالذهاب إلى

شغل التنظيف و بعد ذلك يجلب شبابا يبدوا من ملامحهم أنهم من أثرياء البلد و من الأجانب و يعلمهم أشياء مهمة مثل صنع الأدوية والعطور، و قبل أن يكمل درسه دخل عليه فراس و تحدث معه بالهمس، ثم همّ بالخروج فاقتربت منه و قالت له:

– لقد حققت كلّ مآربك ماذا تريد؟ الآن أختك في الصورة هي الملكة و أنت تتحكم في البلاد بواسطتها ألم يكفك ذلك؟ أم أنك تريد قتلها كي تأخذ مكانها؟ هل فكرت في والدتك و شقيقك المشردين؟ لماذا لا تتركني أنا و جهاد نعود للبيت فنحن لم نعد نشكل أي خطر عليك، لماذا تريد قتله بتهمة الخيانة؟ كم ستزهق من الأرواح بتهمة خيانة الوطن؟ هذا الوطن لم يعد يحتمل المزيد من الأرواح التي ستزهقونها تحت عنوان حبكم له، و كره من يخالفكم له. لو كنت متأكدة أنك ستقتل جهاد بفعل الغيرة و من أجل الحب، سأسامحك، أما ان كنت ستقتله باسم حب الوطن فلن أسامحك.

نظر لها فراس نظرة خبيثة و كأنه شعر أنه فشل في تملّك جسدها الجميل، ثم قال لها:

– غدا سيعدم و سيكون يوما تاريخيا و سيتزامن إعدامه مع تنصيب تمثال والدك السلطان بجانب تمثال جدك السلطان الأكبر محرر البلاد و صانع مجدها، حيث ستنجح بلادنا في القضاء على عصابات القتل و بعد إعدامه سينتظم احتفال كبير في البلاد، كما سيحتفلون بالحاكم فراس و شقيقته على النجاح في إنقاذ البلاد من الذهاب إلى الهاوية.

دفعته حسناء و أوصدت الباب و راحت تتحدث بصوت عالي و تقول:

– خيانة الوطن، إنقاذ البلاد، البلاد تسير نحو الهاوية....إنها عناوين مقيتة يصلون بها إلى مآربهم.

ثم استلقت فوق فراشها و بقيت تنظر إلى السقف، و فجأة دخل عليها ثلاثة خادمات من الأجانب و هجمن عليها و قيدنها جيدا رغم مقاومتها الشديدة ثم جاء ذلك الأجنبي و ناولها دواء عنوة و تركوها في مكانها مقيدة لتستفيق بعد وقت طويل مثقلة و خاملة، و صاروا يكررون هذا العمل يوميا إلى أن صارت تطلب ذلك الدواء كل يوم وحدها، لتتناوله و تنام فتدهورت صحتها و صارت دائما تتألم و غير واعية بما يدور حولها، لكنها لم تنسى فراس و ظلت ترفض كلّ طلباته لأنها لا تثق فيه، و ذات مرّة أخبرها أنه نشر بين الناس خبر مفاده أنه تم العثور عليها مختطفة و أنه يحبها و يريد أن يتزوجها، و قد صارت قصة حبه لها و تضحيته من أجلها منتشرة بين الناس و طلب منها أن تشرف معه على موكب تتسلم فيه السلطة من شقيقته كأميرة القصر السابقة التي تملك شرعية حكم البلاد ثم تسلمها له بحكم وضعها الصحي و قال لها أن الناس تعرف أنّ فراس يستحق أن يكون سلطانا عليهم لأنهم سمعوا أن فراس قد حرّر الأميرة حسناء بشجاعة من قبضة عصابات القتل الذين كانوا يحتجزونها و سيحرر البلاد من قبضة الأجانب لأنه ذكي و قادر على التلاعب بهم، رفضت حسناء طلبه، فقال لها:

– سألقي بك في القبو مع الخونة و بائعي الوطن فقد فتحته بعدما أغلقه السلطان السابق الذي تلاعب بأمن البلاد بتساهله مع الخونة و عصابات القتل.

بعد مدّة من بقائها في القبو تألمت حسناء كثيرا و تعبت كثيرا، و لم تعد قادرة على المقاومة وصاروا يتأخرون في إعطائها الدواء فزاد توترها، كما انزعجت من أصوات

صياح الناس و أنينهم في ذلك القبو الرطب حيث يتم تعذيبهم في كلّ الأوقات، فطلبت من أحد الحراس أن يقول لفراس أنها موافقة على طلبه، فتمّ إخراجها بعد ذلك بمدة وجيزة و إيصالها إلى غرفة فراس فوجدت خادمة رحبت بها و ابتسمت لها ثم أخذتها إلى الحمّام و غسلتها جيدا ثم ألبستها لباسا فاخرا حيث يبدو أن فراس قد جهز نفسه للزواج منها، فسألت عنه الخادمة فقالت لها بأنه خرج يزور إحدى القرى كي يوزع الأراضي و الهدايا على شرفاء الوطن الذين ساهموا في القضاء على عصابات الموت، شكرتها كثيرا ثم نامت نوما عميقا لتستفيق في المساء على صوت فراس يخبرها بأنه موعد زفافها منه، فدخلت عليها خادمة أجنبية جمّلتها بسرعة و ألبستها و أخذتها إلى ساحة القصر حيث وجدت كرسيها في انتظارها و بجانبها الملكة الصغيرة شقيقة فراس و على الجانب الآخر كرسيّ فراس الذي كان يسلم على وجهاء البلاد و كبار التجار و عدد هام من المهاجرين في بلاد "الوسا" كان الحفل مزعجا و مملا و مليئا بالمجاملات الكاذبة و الوجوه الحاضرة كان بعضها منتفخ كالصخور الملساء وبعضها حاد كالأخشاب و ابتساماتهم كانت متملّقة، لم تكن تشعر بما يدور حولها فقط تنتظر نهاية الحفل الكريه.

وجدت حسناء نفسها زوجة لفراس و على وشك أن تكون ملكة القصر، لكنها ملكة واهنة و مريضة، زوجها فراس الذي كان حبيبها و كان الحلم الجميل الذي عاشت تطارده، و كان زواجها منه هو أمنيتها الوحيدة، قد تزوجها من أجل أطماعه و تهافته على السلطة و على كرسي السلطان و هو الذي كان أيام حبهما الأول يريد أن تعيش معه عيشة بسيطة و هادئة بعيدا عن القصر. عاشت لأيام في غرفة فراس، و لا أحد

يعلم أنها مهملة كقطعة من أثاث تلك الغرفة يناولونها جرعة دواء كلّما انتابتها نوبة الصراخ و البكاء، فتسترخي كقطعة قماش و تنام، إلى أن جاء اليوم الموعود الذي خطط له فراس بدقة، تمّ حمل حسناء من قبل خادمتين و تمّ إظهارها في الساحة أمام الناس كامرأة مريضة عاجزة و تم وضعها فوق كرسيّ ثم جاء فراس و شقيقته وسط هتافات جميع الناس بحياة فراس، و في لحظات و بإشراف حاكم أجنبي تناولت حسناء شيئا يرمز للسلطة من يد شقيقة فراس ثم بقيت متمسكة به و بعد ذلك ألقى فراس خطابا أمام هتافات و أهازيج الجميع و بعدما انهي خطابه افتكّ من يدها رمز السلطة فتعالت الأهازيج مرّة أخرى و تعالت الأصوات لدرجة أنها استعادت وعيها و استوعبت ما يحدث أمامها.

رجع الجميع للقصر و قد أصبح فراس بطل البلاد و منقذها و الحبيب الوفي الذي لم يتخلّ عن حبيبته وهي في محنتها، و أصبح سلطانا على البلاد بصفة شرعية بعد عجز الأميرة حسناء عن إدارة البلاد. دخلت حسناء القصر مع موكب السلطان الجديد و شعرت بحاجتها للدواء، لكنها لم ترغب في تناوله حيث فكرت في حلّ للتقليل منه، حتى تستعيد عافيتها و تهرب، استغلت انشغال الجميع بالاحتفال الكبير الذي يشهده القصر لتدخل إلى غرفة العلاج و تأخذ بعض الأدوية التي تخفف عنها آلام الرأس، و بعد أيام تمكنت من علاج نفسها و قلّ إقبالها على الدواء لكنها واصلت تظاهرها بالعجز أمام فراس، و كانت تقضي كامل يومها تعتني بالبستان، و شعرت بشيء من الهدوء و الطمأنينة و ارتاحت لأن فراس صار منشغلا عنها باستقبال ضيوفه من كبار التجار و سلاطين و حكام البلدان المجاورة و تكريم من يعتبرهم شرفاء الوطن.

كلّما ارتاحت حسناء و استعادت عافيتها إلاّ و انقضّ عليها فراس ليعكّر مزاجها و يقض مضجعها و كأنّه لم يكفه ما أخذ من عمرها و ما سبّبه لها من ألم، و بينما كانت تعتني بشجيراتها في البستان اقترب منها ليفاجئها بطلب لم تتخيله حيث طلب منها أن ترشده إلى الممرات السرية في القصر حيث الكنوز و الوثائق الهامة. صدمت من طلبه و قالت:

– من أيّ طينة أنت أيها الرجل؟ ماذا حلّ بك؟ من فعل بك هذا؟ لقد تركتك شابا لطيفا جميلا لترجع لي وحشا ضاريا، لقد تركتك مرهف المشاعر تحركك هبّات النسيم و زقزقة العصافير و رجعت لي صخرة صماء في بركة آسنة، لقد ظننت أني اكتشفتك لكن مازال أمامي الكثير لسبر أغوارك و البحث عن دهاليز الجشع في أعماقك، لقد استفحل بك المرض و بات مستعصيا، إنه مرض الطمع سيأخذك حتما نحو الهاوية وقتها لن تجد يدا تنتشلك، وقتها سوف لن تجد أحدا في القاع غير الجشعين أمثالك، لأن الأنقياء يسبحون فوق السحب، وقتها ستبحث عن الحب الذي رميته خلف ظهرك، و ستذكر حسناء تلك الفتاة الجميلة التي عشقتك، و عاشت شطر عمرها تبحث عنك في كل الدروب و لمّا وجدتك أضاعت دربها.

تركها فراس واقفة في مكانها و غادر لقضاء شؤونه اليومية و مشاغله التي لا تنتهي، ليدخل عليها في آخر الليل و يوقظها من نومها و يتهجّم عليها بجسده الضخم المتوحش فعجزت عن مقاومته، لتفيق في صباح اليوم الموالي مكسورة الخاطر و متألمة، فلملمت ثيابها و قادتها قدماها إلى مكانها في البستان فجلست تتأمل الشجيرات و الدموع لا تكاد تفارق مقلتيها، جلبت لها الخادمة الطعام فرفضته، و

انتابتها حالة من الجنون فأخذت تنبش التراب و تستنشقه بفمها و أنفها ثم تقفز بين الأشجار ككائن بدائي، أطلّت الرؤوس من شرفات و نوافذ القصر، و ظلوّا يتفرّجون في المشهد إلى أن وعت من نوبتها و جلست مرة أخرى في مكانها و قالت في سرّها:"حتى الجنون لم يعد كافيا ليشفيني، لا بد من شيء أقوى من الجنون، البارحة تأكدت من أنه لا أمل من فراس فهو وحش في هيأة إنسان" و في لحظة من الزمن استحضرت لحظة إقدام والدها و والدتها و إخوتها على شرب السمّ، و أكملت باقي يومها في البستان تتذكر تلك اللحظات بكل تفاصيلها، إلى أن حلّ الظلام فدخلت قاعة التدريس و استغلت نوم الأجنبي الذي أخذ مكانها في التدريس، فتناولت دواءً قاتلا أفرغت منه كمية في قارورة صغيرة و أحكمت غلقها ثم أخفتها في ثيابها و ذهبت إلى غرفتها و نامت.

ذات صباح بينما كانت حسناء جالسة في مكانها في البستان سمعت جلبة في القصر، فدخلت الرواق لترى ما يحدث فرأت الحراس يخرجون كلّ الخدم إلى ساحة القصر، استغربت ما يقع ليأتيها حارس و يقول لها بأن السلطان فراس يريدها في مجلسه، فبدأت تفهم ما يجري حولها، فدخلت إلى مجلسه و قالت له:

– أنا جاهزة لكي تحقق أطماعك التي لا نهاية لها، هيا اتبعني و لا تخف لن أقتلك.

أشارت إليه بيدها فلحقها إلى حيث المكان الذي يفتح منه الممر السرّي ففتحته و أغلقته عدة مرّات حتى يتذكره جيدا، ثم أخذت الضوء و دخلت الممرّ السري و كشفت له عن كلّ الكنوز و المقتنيات الثمينة التي كان يملكها والدها و جدّها، بعضها

محفوظ في صناديق و بعضها منثور على الأرض، كانت كنوزا عظيمة و مجوهرات و أقمشة و حجارة فأصيب بالدهشة و قال:

– هذه كنوز حقيقية.

أجابته باستهزاء و قالت:

– أغلبها مسروقة، يجب عليك أن تفكر في الخروج أولا قبل الكنوز لأنه لا يمكن العودة إلى الوراء، هذا هو الممر الوحيد الذي يفضي إلى النهر، و باقي الممرات ترتبط ببعضها البعض.

و بينما كانت تكلّمه بانت وسط دائرة الضوء التي كانت تمسح المكان عظام بشرية فأصيب بالذعر و تقهقر إلى الوراء و راح يسأل حسناء بانفعال عن العظام و الجماجم المتناثرة تحت هذا القصر، فأجابته بهدوء و قالت:

– هذه عظام والدي و أمي و إخوتي و خادمتهم، لقد شربوا كؤوس السمّ و ماتوا هنا و أنا خدعتهم و خنتهم و هربت و لازلت أخونهم، أظن أنك تعرف القصة، لقد حدثتك عن هذه المأساة لكنك وقتها كنت تفكر في السلطة. بحثت عن الكؤوس ثم جمعتها و نظمتها و كان كأسها فوق صندوق كما تركته، حملته بيدها برفق ثم سلمته الضوء، و سحبت قارورة الدواء بخفّة حتى لا تجلب انتباهه، نفخت في وسط الكأس حتى تطاير الغبار ثم قالت له:

– عزيزي فراس هذه هي الكأس السادسة التي لم أشربها في وقتها.

ثم سكبت السمّ في الكأس السادسة و شربته.

نبذة عن المؤلف

محمد عمارة الخزري

تونس

حصيل العلمي:

شهادة الباكالوريا علوم تقنية لسنة ٢٠٠٠ من المعهد الثانوي المختلط بغارالدماء (محافظة جندوبة) بملاحظة حسن.

شهادة انهاء المرحلة التحضيرية (مدتها عامين) ٢٠٠٠-٢٠٠٢اختصاص فيزياء و كيمياء بالمدرسة التحضيرية للأكاديميات العسكرية بمدينة سوسة بملاحظة متوسط.

الشهادة الوطنية لمهندس سنة ٢٠٠٥ من الأكاديمية العسكرية بملاحظة متوسّط.

(*) أكتب في مدونتي الخاصة و عنوانها "بروح ريفية" و موقعها الإلكتروني www.medkhazris.blogspot.com

كذلك أدير صفحة فيسبوك اسمها "الأديب الراحل إبراهيم بن سلطان ابن مدينة الرديف" أسستها تكريما له.

الاعمال السابقة:

لا توجد